الطريق الصوفي

وفروع القادرية بمصر

تأليف
يوسف محمد طه زيدان

دار الجيل
بيروت

الطريق الصوفي

وفروع القادرية بمصر

تأليف

يوسف محمد طه زيدان

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

الإهداء..

إلى الشيخ إبراهيم حلمي القادري
الذي ترك بالإسكندرية
نورًا يتلألأ في قلبي!

يوسف زيدان

مقدمة عامة

تحمل كلمة (التصوف) بين طيّاتها عالمًا فريدًا من الرؤى النورانية الشفافة، كما تشير إلى نمطٍ من الفكر والسلوك يتميز بخصوصية شديدة.. وإذا كانت الحياة الصوفية تعكس أعمق وجهات النظر تجاه الوجود الدنيويّ، فإنها تمثل أيضًا: أعلى مظاهر التقوى الدينية النابعة صدق الرابطة بين الإنسان وخالقه. ولما كنا بصدد دراسةٍ في التصوف والطريق الصوفي، فإنه يجوز لنا في البداية أن نتوقف عند تساؤلاتٍ مثل: لماذا التصوف؟ وما مفهومه الحقيقي؟ وما جدوى البحث في هذا الميدان..؟

وحول المحور الأول من هذه التساؤلات نقول إن التصوف (ضرورة) فهو يمثل الجانب الجواني في حضارة هذه الأمة، فبين شتى المذاهب والاتجاهات التي تعاقبت عبر التاريخ الممتد لقرون الإسلام، كان التصوف هو الضمير النابض الذي أشاع الصدق في وجدان الأمة، وكان الصوفية هم فقهاء القلوب الذين وضعوا قواعد المعاملة بين الإنسان والله ـ وبين الإنسان والإنسان ـ على أرض اليقين الراسخ والأخلاق الحقيقية، واعتبروا أن (الباطن) هو ما يتشكل به (الظاهر) تشكلاً صحيحًا.. فكانوا دومًا ينفذون من قشور الأشياء إلى لُبابها قائلين: المدار على القلب!

والتصوف ضرورة، لأنه منتهى السعي الصادق في كل الدروب.. وما من خطى تحثّ لبلوغ الحقائق، إلاّ وكان التصوف غايتها ومنتهاها. ولهذا نجد ابن

سينا، وهو الطبيب المتفلسف، ينتهي بسيره العقلي الجارف إلى شاطئ التصوف. ونجد الغزالي، وهو الفقيه الأشعري، يخرج من متاهاته الفكرية بالعكوف تحت ظلال التصوف. ونجد ابن خلدون، المؤرخ الاجتماعي، يخلص من مقدمته الشهيرة ومن (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ليكتب (شفاء السائل) في التصوف. وسوف نرى في الصفحات التالية، أن ابن تيمية كان سينتهي ـ لو طال به الأجل سنوات ـ إلى التصوف.. ولا يقدح في هذه الاستشهادات أن التصوف كان في وقت ما، هو حلية العصر التي يجب العلماء أن يتزينوا بها أُخريات حياتهم؛ فقد عمدنا للاستشهاد بهؤلاء العلماء الذين تفصل بينهم مئات السنين، للدلالة على أن التصوف كان في تاريخ الإسلام، حلية كل العصور.

والتصوف ضرورة من حيث كونه حقيقة العبادات، فلو ظلت شعائر الدين لدى المتدين قاصرة على الرسوم والأشكال الظاهرة، فإن ينابيع الإيمان تنطمس في قلبه! إن التصوف يقف بنا على حقيقة مهمة تقول بتلازم القلب والجوارح؛ ففي فرض كالصلاة، لا يتسنى للعبد تأديتها على وجه الحقيقة، ما لم تعرج به صلاته عن كل ما سوى الله.. فالصلاة في المفهوم الصوفي، ليست حركات وسكنات وتلاوة آيات فحسب، بل هي ارتقاء ومعراج ذوقيّ في أوقاتٍ يقف فيها العبد بين يدي مولاه؛ فالمحروم من هذه الأذواق عندهم، محرومٌ من الصلاة.

ولعل ذلك يؤدي بنا إلى المحور الثاني من التساؤلات السابقة، أعني: المفهوم الحقيقي للتصوف ـ وهنا لا نزيد على أن التصوف هو (إسلامٌ بذوق) فبرغم التعريفات العديدة التي يحشرها مؤرخو التصوف ورجاله الكبار ـ كالسُّلَمي والكلاَبَاذي والقُشيري ـ في محاولة لتحديد مفهوم عام للتصوف، إلا أن هذه التعريفات لا تعدو كونها إخبارًا وكشفًا لبعض جوانب التجربة الصوفية. فالتصوف من حيث المنطلق (مشتقٌ من الصفاء) وهو من حيث

السلوك (كله خُلُق، فمن زاد في الخلق فقد زاد في الصفاء) وهو من حيث الزهد في متاع الدنيا (مأخوذٌ من لبس الصوف والخشن من الثياب) وهو من حيث المراحل والعتبات (شريعةٌ وطريقةٌ وحقيقةٌ).. وهكذا تضع التعريفات السابقة تصورًا لجوانب متعددة من التصوف. وعلى الإجمال، فما التصوف إلا: تذوق حقائق الإسلام.

وهذا المفهوم العام للتصوف باعتباره (الإسلام بذوق) يعني عدة أمور؛ أولها أنه لا شيء في التصوف يخرج عن سياج الشريعة الإسلامية، وأنه لا يسع الصوفي مهمًا كانت مرتبته الروحية أن يُسقط قاعدة شرعية - وإلا صار زنديقًا - وأنه لا يمكن أن تتعارض الحقائق الصوفية مع صريح الكتاب والسُّنَّة.. فإذا ما تسامت الحقيقة الذوقية، ولم يدرك الفرد أصلاً شرعيًا لها، فإن الواجب هنا التوقف حتى يلوح الأصل الشرعي لفهمه، وإلا استغنى عما لا يفهمه.

والتصوف - كإسلامٍ بذوق - يعني أيضًا وحدة بنيانه.. فالإسلام كلٌّ لا يتعدد، مهما اختلفت فيه الفرق وتنوعت المآخذ والمداخل، وكذلك الأمر فيما يخصّ التصوف! وذلك يقتضي أن نتعامل مع تقسيمات التصوف بشيء من الحذر. فقد ظهرت عند مؤرخي التصوف ودارسيه تبويبات مصطنعة وتسميات متعددة، فنراهم يدعون تصوف ابن عربي وتلامذته (التصوف الفلسفي) وتصوف السُّهروردي وأتباعه (التصوف الإشراقي) وتصوف الجنيد والبدوي والدسوقي ومريديهم (التصوف السُّنِّي).. ثم تتزايد التسميات فنجد (تصوف الطرق) ونجد (التصوف النظري والعملي) وأخيرًا (التصوف النفسي).

وعلى الحقيقة، فإن جميع هذه الإطلاقات على التصوف تفتقر إلى الرؤية الشاملة للصوفي الواحد، وإلى الإحاطة التامة بالطريق الصوفي ودقائقه. فلكل صوفي مسلكه إلى الله، ولكلٍّ ثقافته وأسلوبه التعبيري؛ ومن وراء ذلك،

فجميعهم يشربون من نبعٍ واحد، وجميعهم مسافرون في رحلةٍ تمتد من الخلق إلى الحق.

إن هذه التقسيمات تجعلنا مترددين في وضع الواحد من أقطاب التصوف داخل قسمةٍ منها دون غيرها.. فالامام الجيلاني يقتدي في جملة تصوفه وتفصيلاته بالكتاب والسنة، فهل هو متصوف (سنّي) وهو يعبر عن أدق النظريات التي نجدها عند ابن عربي وعبد الكريم الجيلي، فهل هو متصوف (فلسفيّ) وهل هو من متصوفي (الطرق) لأنه شيخ واحدة من أكبر الطرق الصوفية في ديار الإسلام، وهل هو متصوف (نفسيّ) لأنه يقف طويلاً عند النفس الإنسانية مُسهبًا في ذكر أوصافها وأدوائها ودوائها!

وما ينطبق على الإمام الجيلاني هنا، ينسحب أيضاً على معظم رجال التصوف الكبار؛ وما دمنا ننظر إلى تراث الواحد منهم خلال مفهومٍ مُسبق لتصوّفه، فإن العديد من جوانب التصوف عنده ستغيب عن أنظارنا.

وربَّ معترضٍ يقول: إن صحّ ذلك، فلماذا نجد فقيهًا كابن تيمية يخصّ بهجومه بعض أهلِ التصوف دون غيرهم؟ ولهذا المعترض نقول إن موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية، يحتاج منا إلى الوقفة التالية:

كان تقي الدين بن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هجرية) مفكرًا قلقًا جاء في زمن الأزمة الكبرى، أعني اجتياح المغول للعالم الإسلامي. وقد سجل له التاريخ جملة مواقف مشهودة؛ ضد التتار بالسيف، وبالقلم والمناظرة ضد الطوائف المنحرفة والفلاسفة والمناطقة والمتكلمين.. حتى انه كاد يقضي حياته كلها في محنٍ ومعارك لا تهدأ.

وفي ميدان التصوف؛ نظر ابن تيمية إلى الامام الجيلاني نظرة إكبار وتقدير، وعني بشرح واحد من أشهر مؤلفات الجيلاني (فتوح الغيب) فكان شرحه ذوقًا طيبًا للمعاني الصوفية التي تعرض لها الإمام الجيلاني، وخلا شرح ابن تيمية من أي نقدٍ أو اعتراض على هذه المعاني الصوفية.. بل نراه يدعو

الامام الجيلاني بلقب: شيخ الإسلام.

وإذا وضعنا (شرح فتوح الغيب) بجانب بعض الرسائل المعروفة لابن تيمية، كرسالتي (الصوفية والفقراء) و(قاعدة في المحبة) لانتهى ذلك بنا أمام إمامٍ ذائقٍ لحقائق التصوف، بل ومعترفٍ بمكانة أهله وكراماتهم وصدق أحوالهم ـ كما يظهر من رسالته (المعجزات والكرامات).. فما هذا الهجوم الذي شنَّه ابن تيمية على الصوفية في (مجموعة الرسائل والمسائل) و(الفتاوى) حيث جرَّح أقطاب التصوف تجريحًا ما له مثيل، فتراه يعكس اسم شيخٍ من مشايخهم الكبار ـ العفيف التلمساني ـ ليسميه ابن تيمية: الفاجر التلمساني.

وبرغم أن التلمساني واحدٌ من رجال مدرسة ابن عربي، إلا أننا نرى ابن تيمية يخفِّف الهجوم على ابن عربي، ويقول بأنه أقرب هذه الطائفة إلى الإسلام، ثم يكيل الاتهامات لتلاميذه الذين لم يكتبوا غير سطرٍ واحدٍ مما كتبه شيخهم الأكبر.

وبعد ذلك.. فكيف الحال بابن تيمية إذا عرف أن كل الحقائق التي أشار إليها الصوفية الذين هاجمهم في رسائله وفتاواه، هي بعينها الحقائق التي أشار إليها الامام الجيلاني حين عبَّر في أشعاره ومقالاته الرمزية عن غايات الطريق الصوفي ومنتهاه.

إن موقف ابن تيمية المضطرب من التصوف والصوفية ـ وهو العالم الفقيه الجليل القدر ـ يمكن أن نفسره من عدة وجوه.. الوجه الأول أن ابن تيمية كتب (الهجوم) وهو بعد في سن الحمية والاندفاع المعرفي الذي انتقد فيه الفلاسفة والمناطقة والشيعة، فضم إليهم الصوفية! لكنه حين تقدم بعمره، وذاق بعض المشارب الروحية التي يهتدي إليها العلماء؛ ترفق في القول، وتعرَّف على بعض إشارات القوم الذوقية.. وبالوجه الثاني، فالمصطلح الصوفي قد ضلَّل ابن تيمية كما ضلَّل غيره من فقهاء الظاهر، فراح يلقي سهامه اعتمادًا على فهمه هو لدلالات المصطلحات الصوفية، دون أن يتريث ليتكشف ما

تحمله تلك الرموز والمصطلحات من دلالة رحبة! ومن هنا نفهم كيف تسنى لابن تيمية أن ينتقد الشيخ الأكبر (محي الدين بن عربي) دون أن يحيط بمؤلفاته كلها؛ هذه المؤلفات التي يقتضي إمعان قراءتها زمنًا، ويحتاج فهمها دهرًا.. وبالوجه الأخير، فإن ابن تيمية لم يكن صاحب طريق ذوقي! صحيحٌ أنه صاحب جهدٍ علميّ لا يُنكر، واجتهادٍ فقهيّ لا يقارن، ومدرسةٍ سلفيةٍ واضحة المعالم؛ لكنه مع ذلك كله لم يكن صاحب وجدانيات ومشارب. فكان أن تعرّف على بعض المعاني لبدايات الطريق الصوفي وعرف أصولها الشرعية، فسُرَّ بذلك وامتدحه في بعض الرسائل؛ ثم توقف عند دقائق غايات هذا الطريق وسهّا عن أصولها، فقال كلامه المرّ.

.. فإذا انتقلنا من ذلك، إلى التعرض للمحور الأخير من التساؤلات التي طرحتها الفقرة الأولى من مقدمتنا، أعني (جدوى البحث في ميدان التصوف والطريق الصوفي) فإننا نقف بذلك في مواجهة واقعنا المعاصر!

.. يشهد الواقع اليومي علينا بتخبطٍ منهجيّ لا حدَّ له، مما يلزم معه أن يكون (المنهج) هو قضيتنا الأولى. وقد استجابت لهذا الإلزام الذي يفرضه الواقع طائفتان، حاولت كل طائفة أن تطرح تصوراتها المنهجية، ورؤيتها الخاصة للمشكلة والحل. فكانت طائفة منها تقدمية عصرية تهوى التحديث وقلب نظام الأشياء، والطائفة الأخرى سلفية تراثية تود لو تخترق الزمن المرّ لترتع في روض الصدر الأول للإسلام - ولكن عقارب الساعة لا تتراجع، بل تلسع من يعترض دبيبها.

وما بين معترك النظريات والرؤى المنهجية، تساقطت أوراق أيامنا وثمارها، وبقينا مكتوفي الأيدي ننتظر اللحظة التي تتوحد فيها النظرة والكلمة والفعل.. فهل يجوز لنا في غمرة هذه الأزمة المنهجية والسبات الحضاري، أن نطرح (التصوف) كمعين لاستلهام ملامح منهجنا؟

إن التصوف النقيّ لا يزال أرضًا خصيبةً يمكن أن تثمر في العديد من

النواحي، ففي التربية هو أقرب للتكوين الجواني لشخصية هذه الأمة، وفي الأخلاق هو أجدى من الجدل النظري والفكر الذي استوردناه وطبقناه فأخرج جيلاً مغتربًا، وفي الحياة الدينية هو الروح التي لو فارقت رسوم الشرع لتركتها ميتة، وفي الاقتصاد هو المعامل الذي تنقلب به موازين الحلول العقيمة للمشكلة الاقتصادية، وفي الفقه والتشريع هو الروح التي تسمح باجتهادٍ موفق.

لكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أننا نود لو تصير الأمة شعبًا من المتصوفة وأهل الطريق، فذلك لا يتفق مع طبيعة النفوس وخصوصية التجربة الصوفية ومنطق التاريخ.. إن ما نطرحه هنا، هو محاولة (استلهام) المنهج من تلك المفاهيم العالمية التي أشار إليها الصوفية الكبار.

واستلهام المنهج من التصوف يقتضي البحث المتعمق حول أصوله وقواعده.. ومن هنا كان اهتمامنا ببحث جوانب التصوف وقضاياه المختلفة، مع حرصٍ دائمٍ لإرسائه على قاعدة الكتاب والسنة، وحلّ النقاط المستشكلة فيه نظرًا لتفرد الاصطلاح وخصوص المعنى.. وعساه يكون دعامةً منهجيةً، يقوم عليها مشروعنا النهضوي المقبل، وتسير بها خطواتنا الآتية ـ جامعة بين الجانبين: الرأسيّ المتمثل في الرابطة بين العبد وربه، والأفقيّ الكائن في الصلة بين الإنسان والعالم.

★ ★ ★

يمثل هذا الكتاب خلاصة رحلتين، الرحلة الاولى هي المعراج الروحي الذي يرتقي فيه الصوفي من الخلق إلى الحق، من عالم الفناء الدنيوي إلى عالم البقاء في الحضرة الإلهية، وهذه الرحلة عبورٌ متواصل لدرجات السلم الروحي، تلك الدرجات التي جاءت إشارات الإمام الجيلاني (محي الدين عبد القادر، المتوفى ٥٦١ هجرية) مشتتة بين ثنايا كتبه ومؤلفاته، فجمعنا عقدها في صعيد واحد يرسم ملامح (الطريق الصوفي) كما يراه الامام الجيلاني.

وبيان هذا الطريق يستغرق ثلاثة أبواب من الكتاب، يمثل كلٌّ منها مرحلة من مراحل الطريق.. فالباب الأول يتعرض لبدء السلوك، والثاني يستعرض علامات الطريق التي غالبًا ما يمر بها السالك في رحلة ارتقائه الروحي، والباب الثالث يتوقف عند منازل القرب والوصول، حيث تناولت فصوله معالم غايات الطريق الصوفي.

والرحلة السابقة لم نقطعها بالفعل، وإنما كان حديثنا عن مراحلها معتمدًا على ما كتبه الإمام وما أشار إليه.. لكننا قطعنا الرحلة الثانية خطوةً خطوة. فقد ارتحلنا عبر ربوع مصر لنرى ما انتهت إليه الطريقة القادرية وفروعها، فقدمنا للباب الرابع بفصل تمهيدي يتناول سبل انتشار القادرية في العالم الإسلامي، ثم تناولت الفصول الأربعة الباقية أربعة تفرعات للقادرية بمصر، هي آخر ما انتهى إليه سعينا وتفقدنا.

يوسف زيدان

الإسكندرية في اكتوبر ١٩٨٨

الباب الأول:

بداية السُّلوك

يَا زُهَّادَ الأَرْضِ .. تَقَدَّمُوا
خَرِّبُوا صَوَامِعَكُمْ وَاقْرَبُوا مِنِّي،
قَدْ قَعَدْتُمْ فِي خَلَوَاتِكُمْ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ
فَمَا وَقَعْتُمْ بِشَيْءٍ!
تَقَدَّمُوا وَالْقُطُوا ثِمَارَ الْحِكَمِ - رَحِمَكُمُ اللهُ ..
مَا أُرِيدُ مَجِيئَكُمْ لِي
بَلْ أُرِيدُهُ لَكُمْ!

الإمام الجيلاني

تمهيد:

الطريقُ عند الصوفيَّة، هو إقامةُ ناموس العبودية عبر الرحلة المُمتدة من الخلق إلى الحق.. وهو السبيل العارج من العالم الفاني إلى حَضْرة الباقي عزَّ وجلَّ. وقد استخدم القوم لفظة (السلوك) للإشارة إلى الطريق الصُّوفي، لما تحمله من دلالاتٍ خاصة بالخروج والدخول معًا[1].. فالطريق خروجٌ من وَهْمِ الغفلة وحُبِّ الدُّنيا، ودخولٌ في طاعة المولى ومحبته.

ويتفق الصوفية على أن غايات الطريق ونهاياته، لا تصح إلاَّ بصحة البداية[2]. وأكدوا منذ وقتٍ مبكرٍ، على أن أكثر موانع الطريق وعوائقه، انما تكون ـ كما قال الجُنيد[3] ـ من فساد الابتداء! ومن هنا اهتم أقطاب التَّصوُّف الّذين تصدروا لتربية المريدين، بتصحيح بدايات السالكين، وتوضيح الأُسس التي يقوم عليها الطريق.. لأن البداية، كلما كانت أحْكَم، كانت النهاية أتَم[4].

---

(١) يقال في اللغة: سلك من، إذا خرج ـ وسلك في، إذا دخل.. (انظر، ابن منظور، لسان العرب ـ بيروت المجلد الثاني ص ١٨٨).

(٢) الهروي الأنصاري: منازل السائرين (البابي الحلبي ـ الطبعة الثانية ١٩٦٦) ص ٤.

(٣) أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري، المتوفى ٢٩٧ هجرية.. انظر ترجمته الوافية وأقواله الصوفية في (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لابي نعيم الأصفهاني ـ بيروت ـ المجلد العاشر ص ٢٥٥ ـ ٢٨٧).

(٤) السهروردي: عوارف المعارف (المجلد الخامس من احياء علوم الدين ـ بيروت) ص ٢٥٢.

وتتشكل بداية الطريق من ثلاثة مواقف رئيسية، لا يسع السالك تجاوزها في سيره إلى الله. أولها موقف الشرع والعلم والعمل بقواعد الشريعة، ثم مرحلة الانتباه وتصحيح المسار من خلال موقف التوبة، وأخيرًا يأتي موقف التلقي عن الشيخ المُربي الذي يتولى تهذيب نفس السالك وإعداده لهذا السفر الروحي.. وحول هذه المواقف الثلاثة (الشَّريعة ـ التَّوبة ـ الشَّيخ) تدور الفصول التالية، في محاولة لوضع التصور المتكامل لبداية السلوك الصوفي، على النحو الذي يراه الإمام عبد القادر الجيلاني.

والله الموفق

الفصل الأول

الشريعة

يؤكد الإمام الجيلاني في أقواله وأفعاله، على حقيقة جوهرية تقول إنه لا سبيل إلى دخول ميدان التصوف، إلاّ من باب الشرع. فحدود الشريعة وعقيدة السلف، عند الإمام الجيلاني، هي بعينها حدود التصوف وآفاقه.. فلا شيء لديه يخرج عن شريعة الإسلام وما التصوف عنده إلاّ: إسلام بذوق.

وكان الإمام دائم التنبيه لهذه القاعدة، فهو لا يفتأ يذكّرنا أنه: لا يكون في الطريقة، ولا في علم الحقيقة، شيء يخالف آداب الشريعة[1]. وهذه الشريعة تقتضي: عقيدة صحيحة قائمة على الكتاب والسنة، وعلم بحدود الشرع، ثم عمل بالعلم.

العقيدة:

كما أن النية هي أول الشروع في العمل، فالعقيدة كذلك، أول مقتضيات السلوك.. ولما كان الإسلام هو عقيدة التوحيد، فإن بدء الإنابة إلى الله يكون باليقين في وحدانيته تعالى، ثم بتجريد يقين التوحيد من أفكار الخائضين

(١) الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق ٣/ ١٣١٧.

في ذات الله، كالمتكلمين وأهل الأهواء والملل[1]، بحيث يقف العبد بتوحيده عند أعتقاد السلف، ومذهب أهل السنة، بلا تشبيه وتجسيم، وبلا مغالاة في التنزيه.. فهو تعالى ـ بذاته وصفاته ـ كما أخبر عن نفسه في القرآن الكريم، دون تأويل.

وقد اهتم الإمام الجيلاني برد دعاوى الفرق الضالة، فأفرد من (الغُنْية) فصولاً طوالاً لتفنيد أقوالهم[2]، وأعلن في (العقيدة) رفضه التام لمزاعمهم في الذات الالهية[3].. بل انه حذَّر المريدين من الدخول في خوض المتكلمين، ومنعهم من مطالعة كتب الكلام، وحكايته مع السهروردي في ذلك مشهورة[4].

وبعد هذا المحو، يأتي الإثبات.. فيعتقد العبد اعتقاد السلف في الله، فيعرف ربه عز وجل بالآيات والدلالات، ويؤمن بصفاته تعالى دون سؤال: كَيْفَ.. ولِمَ[5]! ويعتقد أن القرآن كلام الله، وأن لله تعالى تسعة وتسعين

---

(١) يقول القشيري: اعلموا ـ رحمكم الله ـ أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة من التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل (الرسالة القشيرية ص ٣) ولهذا نرى معظم أمهات كتب التصوف، كالتَّعرُّف والقُوت والغُنية، تفرد في بدايتها أبوابًا للتوحيد والعقيدة.

(٢) الجيلاني: الغنية ١/٣٨٦ ـ فتوح الغيب ص٧، ١٣٣.

(٣) الجيلاني: عقيدة الباز الأشهب (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٤) يحكي شهابُ الدين عمر السهروردي (صاحب العوارف) عن نفسه، فيقول: اشتغلت بعلم الكلام وأنا شاب، وحفظت فيه كتبًا، وكان عمي يزجرني عنه ولا أزدجر. فدخلنا يومًا على الشيخ عبد القادر، فلما جلسنا إليه قال عمي: يا سيدي هذا ابن أخي مشتغلٌ بعلم الكلام، وقد نهيته فلم ينته. فقال لي الشيخ عبد القادر: يا عمر، أي كتاب حفظته فيه؟ قلت الكتاب الفلاني والكتاب الفلاني.. فمر بيده على صدري فوالله ما نزعها وأنا أحفظ من تلك الكتب لفظة، وأنساني الله جميع مسائلها، ووقر في قلبي العلم اللَّدني! وقال لي: يا عمر، أنت آخر المشهورين بالعراق (بهجة الأسرار ص٣٢، ٣٣).

(٥) الجيلاني: الغنية ١/٢٦٦.

اسمًا، وأن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان، وأن الجنة والنار مخلوقتان، وأن أهل الإسلام هم خير الأمم[1].. إلى آخر هذه العقائد التي وردت في كتب السنة، واعتقد فيها السلف.

وأشد ما يخشاه الإمام على العباد، البدعة في أمور الاعتقاد، والخروج بالعقيدة عن سياج الكتاب والسنة ومذهب السلف. ولذا نراه يُنادي في الخلق قائلاً:

يَا عِبَادَ اللهِ.. يَا مُرِيدِين
عَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ[2].
إِتَّبِعُوا وَلاَ تَبْتَدِعُوا..
أَطِيعُوا وَلاَ تَمْرُقوا
وَحِّدُوا وَلاَ تُشْرِكُوا[3]

فإذا صحت عقيدة العبد، وحسن إسلامه بالاقتداء بمذهب المتقدمين من السلف الصالح، بقي عليه إقامة أول فروض الله تعالى على العباد:

العلم:

اتفق الصوفية على أن العلم هو أول فرض افترضه الله على عباده[4] ـ واستدلوا على ذلك بقول رويم البغدادي ـ المتوفى ٣٠٣ هجرية ـ حين سُئل عن أول ما افترضه الله على خلقه فقال: المعرفة، لقوله عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[5] قال ابن عباس: إلا ليعرفون[6]..

---

(١) الجيلاني: الغنية ١/٣٥٣

(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار ص٥٥.

(٣) الجيلاني: فتوح الغيب (البابي الحلبي ـ الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ) ص٧.

(٤) السُّلمي: المقدمة في التصوف (تحقيق يوسف زيدان ـ مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٧ هـ) ص٣٦.

(٥) سورة الذاريات، آية ٥٦.

(٦) القُشيري: الرسالة القُشيرية (البابي الحلبي ـ مصر ١٣٧٩ هـ) ص٤.

ويشرح الترمذي الحكيم - المتوفى ٣٢٠ هجرية - سرّ كون العلم هو أول عبادة الرب بقوله: إنك إذا علمت عرفت، وإذا عرفت عبدت[١].

وبجانب الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في شأن العلم وفضله[٢]، فهناك أثر معين كان له تأثيره الواسع في أهل الإسلام، وهو الحديث الشريف «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[٣] فقد تساءلوا عن هذا العلم الذي هو (فريضة) وهل هو فرض (عين) يلزم كل فرد، أم هو فرض (كفاية) يكفي الجماعة علم بعض أفرادها به.. وقد انتهى الصوفية إلى تحديد مفهوم العلم - الذي هو فرض عين - بمعارف الشرع والدين، وهو المراد من الحديث الشريف[٤]. أما مطلق كلمة (علم) فذلك هو فرض الكفاية الذي لا يستغنى عنه في أمور الدنيا، كالطب والحساب، فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها، حَرِجَ أهلُ البلد[٥].. وأخيرًا فهناك علم لا ينتفع، بل وقد يضر - كالسحر والتنجيم - وهو الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي شَرَّ عِلْمٍ لاَ يُنْتَفَعُ بِهِ»[٦].

---

(١) الحكيم الترمذي: المسائل المكنونة (تحقيق د/ محمد ابراهيم الجيوشي - دار التراث العربي ١٤٠٠ هـ) ص ١٢٤.

(٢) انظر فيما يتعلق بمواضع هذه الآيات والأحاديث النبوية:

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (وضعه فؤاد عبد الباقي - دار الحديث ١٤٠٧ هـ) ص٤٦٩ - ٤٨٠.

- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (وضعه ونسنك وآخرين - ليدن ١٩٦٢) ٣١٣/٤ - ٣٣٩.

وقد جمع الغزالي معظم هذه الآيات والآثار النبوية في كتاب العلم، الذي ابتدأ به موسوعته: احياء علوم الدين.

(٣) رواه الدارمي في المقدمة/ ١٧ - وذكره الغزالي في الإحياء، فقال العراقي: رواه ابن ماجه من حديث أنس، وضعفه أحمد والبيهقي وغيرهما.

(٤) أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب (البابي الحلبي ١٣١٠ هـ) ١٣١/١.

(٥) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين (دار الندوة الجديدة - بيروت) ١٦/١.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الدعاء/٣ - وابن حنبل في المسند ٢٩٤/٦، ٣٠٥، ٣١٨، ٣٢٢.

ولم يخرج الإمام الجيلاني عن هذا المفهوم الواضح للعلم، إلا أننا نجد في كلامه هذه التفرقة الصوفية بين العلم والمعرفة.. فالعلم، هو معرفة الظاهر من أمور الشريعة ـ كالفقه والحديث والتفسير ـ والمعرفة، هي العلم اللّدني بدقائق الحقيقة التي تتجلى لأهل القرب، وهذا هو ما أشار إليه الصوفية بقولهم إن العلم علمان؛ الأول ببذل المجهود، والآخر من عين الجود.. يريدون بذلك (العلم الأول) علوم الشريعة التي تستلزم المجاهدة في تحصيلها، وأما (العلم الثاني) فهو يُلقى في القلب إلهامًا ومكاشفةً! ولما كنا قد أرجأنا الكلام عن علوم الإلهام والمكاشفة، لحين تناول المراحل الأخيرة في الطريق الصوفي، فإن الذي يعنينا هنا هو العلم الأول، أو ما يسمى بمعرفة الظاهر من الشريعة.

ويرى الإمام الجيلاني أن العلم الأول المفروض على العباد، وهو ما يسميه: معرفة العامة ـ التي لا تنعقد شرائط اليقين إلاّ بها[1] ـ على ثلاثة أركان[2]: الركن الأول، إثبات الصفات الإلهية باسمها، دون تشبيه بصفات الخلق، فهو تعالى سميعٌ بصيرٌ لا كسمع الخلق وبصرهم، وإنما كما أخبر عن نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[3].

والركن الثاني، هو نفي التشبيه دون تعطيل! فلا يقع العبد في المحظور الذي سقط فيه المُعطّلة حين أرادوا تنزيه الله، فعطلوا الصفات الإلهية. أما الركن الثالث الأخير، فهو الوقوف على شاطئ بحر التأويل الذي غرق فيه المتعمقون الذين اشتغلوا عن العلم النافع المفروض، بعلم لم يؤمروا به، ولم يصل بهم إلاّ لاستهلاك العقل والدين. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ، وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[4].

---

(١) الجيلاني: الغنية ١/٢٥٥ وما بعدها.
(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار، ص٧٩.
(٣) سورة الشورى، آية ١١.
(٤) سورة آل عمران، آية ٧.

فإذا استكمل العبد الأركان التي يقوم عليها العلم، مضى في إقامة جدرانه بتحصيل المعارف الدينية والجد في طلبها، فيأخذها من علماء الشرع والفقهاء وأهل الحديث والتفسير، أولئك الذين يدعوهم الإمام الجيلاني «أطباء الدين الجابرون لكسره»[1] فمنهم ينال العبد مصباح شرع ربه، فيستضيء به في عبادته ومعاملته مع الخلق والخالق.

وتحصيل العلم يقتضي الصبر وبذل المجهود، فكما يروي الإمام الجيلاني، قيل لبعض العلماء: بِمَ نلت هذا العلم الذي معك؟ فقال: بباكورة الغراب، وبصبر الجمل، وبحرص الخنزير، وبتملق الكلب.. كنت أبكر على أبواب العلماء كما يبكر الغراب إلى الطيران، وكنت أصبر على أثقالهم كصبر الجمال على الأحمال، وكنت أحرص على طلب العلم كحرص الخنزير على شيء يأكله، وكنت أتملق للأستاذ كتملق الكلب بباب دار صاحبه حتى يطعمه شيئًا[2].

وتشير حكاية الإمام إلى أمور؛ أولها علو الهمة في طلب العلم، ثم الصبر على مشقة الدرس والتحصيل، وأخيرًا تبجيل العلماء وتصاغر طالب العلم لهم.. فبهذه الشروط يحصل العلم لدى طالبه.

ولتحصيل هذا العلم النافع بقية شروط، تدخل جميعًا تحت اجتناب المحارم والصدق في طلب الاستقامة، فالعبد الواقع في المعصية، المقبل على الشبهات وتتبع الرخص وركوب التأويلات لترضية مطالب النفس.. فإن العلم النافع بعيد عنه، بعد ا بين السماء والأرض!

فأما من استغنى عن العلم، فذلك الذي مضى في الطريق كحاطب ليل ضلَّ وجهته، وكان الإمام الجيلاني كثيرًا ما يستشهد بالحديث الشريف «مَنْ عَبَدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى جَهْلٍ، كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ»[3] وكان

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني (البابي الحلبي ـ الطبعة الأخيرة!) ص٩٥.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٣٣.

(٣) أخرجه الدارمي في المقدمة/ ٢٩.

كثيرًا ما يقول لأهل مجلسه: «الجَاهِلُ لاَ يُبَالَى بِهِ، إِذَا أَفْلَحَ وَعَبَدَ اللهَ، كَانَتْ عِبَادَتُه مَرْدُودَةٌ عَلَيْه، لأَنَّها عِبَادَةٌ مَقْرُوْنَةٌ بِالْجَهْلِ، وَالْجَهْلُ كُلُّهُ مَفْسَدَةٌ»[1].

ولا ينبغي للمبتدئ في طريق الله، أن يطمع في كشف كل الأمور بعلمه. فما لعلمه غاية إلاَّ إقامة العبادة على الوجه الصحيح من الدين، وثمة أمور باطنة وراء ذلك، لن تنكشف، إلاَّ بعد الوصول إلى قرب الحق[2].. كذلك فلا ينبغي له تعجل الفتح والتعلق برياضات أهل التمكين وأحوالهم ومعارفهم، فهو لم يتهيأ لذلك بعد! وما عليه في حال بدايته إلا حُسن الظن بهم، والوقوف معهم عند حد الأدب.

ولم يكن تأكيد الإمام الجيلاني على ضرورة العلم مجرد أقوال، بل كانت سيرته الذاتية ترجمة لهذا المعنى، فقد ابتدأ السلوك بالاجتهاد في تحصيل فروع العلم وأصوله، وقصد شيوخ الأئمة من علماء الدين ببغداد، وأخذ الفقه والحديث عن غير واحد منهم، وكان مع شيوخه على غاية ما يكون أدب الطالب وامتثاله لنيل العلم[3].

وبعدما يحصل المبتدئ معارف الدين من علماء الشرع، ويتعرف على آداب الشريعة من سيرة النبي وصحابته وتابعيه يكون بذلك قد أتم الجانب النظري للبداية، وبقي عليه استكمال الدائرة! أعني العمل بما تعلمه.. حتى يرث ما لم يكن يعلمه[4].

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني، ص١٢٨.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني، ص٢١٧.

(٣) انظر الفصل الخاص بشيوخ الإمام الجيلاني في: عبد القادر الجيلاني: باز الله الأشهب.

(٤) الحديث: «من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لا يعلم..» (حديث مشهور يستند إليه الصوفية كثيرًا في قولهم بالعلم الوهبي - راجع الأسانيد والروايات المتعددة في هذا الباب، في: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٤/٣١٣ وما بعدها).

العمل:

يقول الإمام الجيلاني «وَيْلٌ واحِدٌ لِلْجَاهِلِ، كَيْفَ لَمْ يَعْلَمْ.. وَوَيْلٌ لِلْعَالِمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، لأَنَّهُ عَلِمَ وَمَا عَمِلَ، فَٱرْتَفَعَتْ عَنْهُ بَرَكَةُ العِلْمِ، وَبَقِيتْ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ»[1] فالعمل عند الإمام هو لُب العلم، فبدونه يبقى العلم قشراً لا نفع فيه.. وسرعان ما تذروه الرياح، ثم تبقى على العبد الحجة! فالعلم ينادي صاحبه: «أَنَا حُجَّةٌ عَلَيْكَ إنْ لَمْ تَعْمَلْ بِي، وَحُجَّةٌ لَكَ إنْ عَمِلْتَ بِي». ولا يزال العلم ينادي بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل.. ترتحل بركته، وتبقى محنته[2].

ويصنف الإمام الجيلاني الرجال - بصدد العلم والعمل - إلى أربعة[3]: رجلٌ عاصٍ بلا علم ولا عمل، ليس له لسان ولا قلب، فهو وأمثاله الحثالة التي لا وزن لها، إلى أن يعمهم الله برحمته. ورجلٌ ثانٍ هو لسان بلا قلب، ينطق بالحكمة ويدعو إليها، ثم لا يعمل بها، ويفرّ من طاعة مولاه وعبادته - وعلامته كما يقول الإمام: يستقبح عيب غيره، ويدوم هو على مثله في نفسه[4] - وهذا هو الذي أشار النبي - صلى الله عليه وسلم - إليه بقوله: «أَخْوَفُ ما أخافُ على أمتي، من كل منافقٍ عليم اللسان» - وقوله: «أخوفُ ما أخافُ على أمتي، من علماء السوء»[5].

والثالث، رجل مؤمن ستره الله عن خلقه، فهو قلبٌ بلا لسان.. علامته الصمت والانزواء والانفراد، وهذا الرجل لا سبيل لمعرفته والأخذ عنه! ثم

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني، ص٥٠.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني، ص ١٤، ١٧.

(٣) الجيلاني: فتوح الغيب، ص٧٧ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق، ص٧٩.

(٥) رواهما: الترمذي في الحدود/ ٢٤ والفتن/ ٥٩ والزهد/ ٢١ - وابن ماجة في الحدود/ ١٢ والزهد/ ٢١ - وابن حنبل في المسند ١/ ٢٢، ٤٤- ٣/ ٧، ٣٠، ٣٨٢ - ٤/ ١٢٦ - ٥/ ٤٢٨، ٤٣٦.

الرجل الرابع الأخير، وهو العالم العامل المدعو بالعظيم، كما جاء في الحديث الشريف «مَنْ تَعَلَّمَ وَعَلِمَ وعَمِلَ، دُعِيَ فِي الْمَلَكُوتِ عَظِيمًا»[1] فهذا الرجل الأخير وطبقته، آخر المنازل وأشرفها.. وهم ورثة الأنبياء.

وللعمل بمقتضى العلم منهجٌ وترتيب، فينبغي للعبد الاشتغال بالفرائض أولاً، فإذا فرغ منها اشتغل بالسنن. فالاشتغال بالسنن قبل الفراغ من الفرائض ـ كما يقول الإمام[2] ـ حمقٌ ورعونةٌ.. ثم يشتغل العبد بعد ذلك بالنوافل وفضائل الأعمال، فإن انتهى من ذلك، فعليه مراعاة الآداب الشرعية في جميع أحواله[3]. فبهذا يكون العبد قد أحكم الحصون الخمسة للإيمان؛ فمثل الإيمان كبلدةٍ لها خمسة حصون، الأول من ذهب (اليقين) والثاني من فضة (الإخلاص) والثالث من حديد (الفرائض) والرابع من آجر (النوافل) والخامس من لَبِن (الآداب) فما دام أهل الحصون الخمسة يتعاهدون الحصن الخامس، فالعدو لا يطمع فيه، فإن أهملوه.. سقطت كل الحصون! فكذلك العبد إن ترك الأدب، طمع الشيطان في السنن، ثم في الفرائض، ثم في الإخلاص، ثم في اليقين[4].

وعلى هذا النحو السابق، تكتمل دائرة الشرع، فبالعقيدة الصحيحة يكون العبد موقنًا، وبطلبه العلم للعمل يكون مخلصًا، وبامتثال الأمر في العبادات يصير مسلمًا، وبالتأدب بآداب الشرع يصبح تابعًا للسنة.. ولهذا، فلا يصح التفريط في أدب من السنة، وإنما ينبغي حفظ الآداب في جميع الأمور. والإمام الجيلاني يذكرنا هنا بالقصة المشهورة لأبي يزيد البسطامي (المتوفى

---

(١) ذكره الإمام الجيلاني بهذا اللفظ (فتوح الغيب ص٨٠) ورواه الترمذي في كتاب العلم/ ١٩، بلفظ: عالم عامل معلم يُدعى كبيرًا في ملكوت السموات.

(٢) الجيلاني: فتوح الغيب، ص١١٣.

(٣) أفرد الإمام الجيلاني في الغنية فصولاً لآداب الأكل والشرب والملبس والنوم والسفر واللباس.. الخ (الغنية ١/١٥٦ وما بعدها).

(٤) الجيلاني: الغنية ١/٢٥١.

٥٣٤ هجرية) حين سمع برجل اشتهر بالولاية، فقال لبعض اخوانه: قُمْ بنا إليه نزوره.. فدخلا على الرجل في المسجد، فوجده البسطامي يلقي بصاقه تجاه القبلة! فرجع أبو يزيد، وقال لصاحبه: إمْضِ بِنَا، فَهَذَا الرَّجُلُ غَيْرُ مَأْمُونٍ عَلَى أَدَبٍ مِنْ آدَابِ الشَّرِيْعَةِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَأْمُونًا عَلَى مَا يَدَّعِيهِ مِنَ الوِلاَيَةِ[1]؟!

★ ★ ★

وبعدما يتزود السالك بالزاد الشرعي، ويصحح أوقاته بالعبادات.. يتفكر فيما مرَّ عليه من الأوقات التي كان فيها غارقًا في بحر الغفلة، فيتكرر صفو وقوفه بين يدي الحق تعالى فيخطو نحو الموقف الثاني من مواقف البداية..

(١) سِبْط بن الجوزي: مرآة الزمان (ضمن: شطحات الصوفية ـ بيروت) ص ٢٠٥ السَهْلجي: النور من كلمات ابي طيفور (ضمن: شطحات الصوفية) ص ٨٥.

التوبة

إذا كانت الشريعة هي الأساس الذي يقوم عليه الطريق الصوفي.. فإن التوبة هي أول مراتب السالكين لهذا الطريق، ولهذا فقد ابتدأ بها الكلاباذي كلامه عن مقامات القوم[1]، وقال عنها القشيري: «التوبة أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين»[2] ورأى فيها السراج: «أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله»[3] ويقول المكي: «التوبة أول أصول مقامات اليقين التي ترد إليها أحوال المتقين»[4] وهي عند الغزالي: «مبدأ طريق السالكين.. وأول أقدام المريدين»[5].

وهكذا اتفق أئمة التصوف وأقطابه على أولية التوبة في الطريق الصوفي. ولم يخرج الإمام الجيلاني على هذا الإجماع، بل أضاف إليه أن التوبة: أصل كل

(١) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف (مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ١٤٠٠ هـ) ص١١٠.

(٢) القشيري: الرسالة القشيرية، ص٤٩.

(٣) السراج الطوسي: اللمع في التصوف (تحقيق عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور ـ دار الكتب العربية) ص٦٨.

(٤) المكي: قوت القلوب ١/١٧٥.

(٥) الغزالي: احياء علوم الدين ٤/٢.

خير وفرعه، وهي مفتاح التقوى، والثبات عليها مفتاح القرب من الله[1]..
ولهذا نادى الإمام في الخلق نداءه الذي وصلنا عبر القرون:

يَا خَلْقَ اللهِ.. تُوبُوا
صَالِحُوا رَبَّكُمْ بِوَاسِطَةِ التَّوْبَةِ
مَا مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى تَوْبَةٍ!

عمومية التوبة:

التوبة عند الإمام الجيلاني (فرض عين) في عموم البشر، فلا يستغني عنها مخلوق من بني آدم[2]. فكل ابن آدم خطاء، فهو إن خلا من معاصي الجوارح لا يخلو من هم الذنب بالقلب، ولا من الخواطر الشيطانية، فإن خلا منها فلا يخلو عن غفلة وتقصير في العلم بالله والعمل له.. ولهذا جاء خطاب الحق تعالى لعموم البشر ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا﴾[3].

من هنا يقرر الإمام الجيلاني أن الخاص والعام من العباد، لا يخلو مما يستوجب التوبة، فآدم نسي أمر ربه ووقع في مكيدة الشيطان بالأكل من الشجرة فلم يزل حسيرًا نادمًا حتى ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ من ربِّهِ كلماتٍ فتابَ عليه﴾[4]. ونوح وابراهيم ويونس وداود وسليمان سلام الله عليهم، تابوا إلى الله جميعًا[5]، وحتى خاتم النبيين ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يخرج عما يستوجب التوبة، ومن هنا قال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ

---

(١) الجيلاني: جلاء الخاطر في الظاهر والباطن (مخطوط المكتبة المركزية لجامعة القاهرة، رقم ١٥٧٤١/ تصوف) ورقة ٦أ.
(٢) الجيلاني: الغنية ٢/٥٤٤.
(٣) سورة النور، آية ٣١.
(٤) سورة البقرة، آية ٣٧.
(٥) انظر فيما يتعلق بتوبة الأنبياء، الغنية ٢/٥٤٥ وما بعدها.

وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً[1] .. فإذا كان الأنبياء ـ رضعاء عناية الأزل ـ مفتقرين إلى التوبة، فما بال الأمر بمن تحتهم من بني البشر! يقول الإمام الجيلاني:

فَإِذَا كَانَ هَؤُلاءِ السَّادَاتُ الكُبَرَاءُ وَلاَةُ الخَلْقِ وَالشَّرْعِ وَخُلَفَاءُ الله فِي خَلْقِهِ، حَالُهُمْ كَذَلِكَ.. فَمَا حَالُكَ يَا مِسْكِينُ، وَأَنْتَ فِي دَارِ الْغُرُورِ، فِي إِقْطَاعِ الشَّيَاطِينِ، مُحِيطٌ بِكَ جُنُودُ الأَعْدَاءِ مِنَ الْخَلْقِ وَالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّهَوَاتِ وَالْوَسَاوِسِ وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ وَالاغْتِرَارِ بِالْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ[2].

ولم يترك الإمام الجيلاني نصًا من الكتاب والسنة، حول ضرورة التوبة والمسارعة إليها، إلاّ واستشهد به، سواء في الفصول التي عقدها لذلك في الغُنية، أو في مجالسه وكلامه لمريديه. بل ان الإمام الجيلاني لم يرَ بأسًا ـ كما فعل القشيري والمكي والغزالي من قبل ـ في الاستشهاد ببعض الإسرائيليات التي تشير إلى فضل التوبة[3].

حقيقة التوبة وشروطها:

يأخذ الإمام الجيلاني بيد السالك المبتدئ، ليعرفه بحقيقة التوبة وحدودها ومراتبها، فيقول: حقيقة التوبة في اللغة (الرجوع) يقال تاب فلان من كذا، أي رجع عنه.. فالتوبة هي الرجوع عما هو مذمومٌ في الشرع، إلى ما هو

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٨، الغنية ٢/٥٤٥ ـ والحديث مشهور رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن حنبل والسيوطي والعراقي (انظر المعجم المفهرس ٥/٣٨).

(٢) الجيلاني: الغنية ٢/٥٥٠.

(٣) الإسرائيليات، مجموعة من القصص المشوق والأخبار السالفة، كان أحبار اليهود ـ مثل وهب بن منبه وكعب الأحبار ـ يقصونها على الصحابة والتابعين في صدر الإسلام، بهدف التسلية والوعظ والاعتبار بسيرة أنبياء اليهود.. ثم بقيت هذه الإسرائيليات في المحيط الفكري الإسلامي لمئات السنين.

وبرغم ما تحمله الإسرائيليات من آفات كامنة، فإن بعض أئمة التصوف قد استشهدوا بها في مؤلفاتهم (انظر على سبيل المثال: الغنية ٢/٦١٩ ـ الفتح الرباني ص٢٥٥) فنجدها محتشدة في قوت القلوب وفي الرسالة القشيرية، وحتى في احياء علوم الدين!

محمودٌ فيه. وهي العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكاتٌ مبعداتٌ من الله، وتركها مقرب إليه[1].

ثم يعمق الإمام الجيلاني مفهوم التوبة، حتى تصبح - وفقًا لتعبير الإمام - قَلْبَ دَوْلَةٍ[2].. فهي انقلاب شامل في دولة النفس والهوى والشيطان، حيث تزول العادة وتحل العبادة، وتُهجر المعاصي وتُقام الطاعات. وهنا لا بد للسالك أن يعرف معنى الحديث الشريف: «الدواوين ثلاثة، ديوانٌ يغفره الله تعالى، وديوانٌ لا يغفره الله، وديوانٌ لا يُترك منه شيء»[3].. فما لا يغفره الله أبدًا فهو الشرك به، وما يغفره هو ظلم العبد لنفسه فيما بينه وبين ربه، وما لا يُترك منه شيء هو ظلم العباد بعضهم بعضًا! فعلى ذلك تكون التوبة توبتان.. الأولى في حق الله، والثانية في حق العباد.

فأما التوبة فيما هو بين العبد والحق تعالى، فتكون بقضاء ما عسى أن يكون التائب قد فرَّط فيه من فروض العبادة، والتكفير عن المعاصي السابقة، ودوام الاستغفار باللسان والندم بالقلب، وتصحيح النية وتكثير الحسنات التي تذهب بالسيئات.. هذا في الأولى، أما في التوبة الثانية التي هي توبةٌ عن مظالم العباد التي لا يُترك منها شيء، فهذه المظالم تكون في النفوس أو الأموال أو الأعراض.. فإن كانت المظلمة في النفوس، فالتوبة بتسليم الديَّة إن كان القتل خطأً، فإن كان عمدًا فتوبته القصاص، إلاَّ أن يعفو أهل القتيل؛ وأما الأموال فالتوبة من مظالمها تكون بردها لأهلها وتصفية مال التائب من الشبهات. ثم يقول الإمام الجيلاني: «وكذلك إن كان قد زنى أو باشر امرأة، فإنه لا يلزمه في صحة توبته أن يفتضح ويهتك سره، بل يستتر بستر

---

(١) الجيلاني: الغنية ٢/٥٣٧.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٨٤، ١٦٣.

(٣) في هامش تحقيق الغنية - ٢/٥٧٢: حديث (الدواوين ثلاثة..) في الدر المنثور ٢/١٧٠ حديث عائشة بأطول من الغنية، أخرجه أحمد وابن المنذر وابن ابي حاتم والحاكم، وصححه، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

الله، ويتوب إلى ربه ويشتغل بأنواع المجاهدات من صوم وقيام الليل وقراءة القرآن وكثرة التسبيح.. فإن خالف ما قلناه، ورفع أمره إلى الوالي فأقام عليه الحد: «وَقَعَ مَوْقِعَهُ، وَصَحَّتْ تَوْبَتُهُ، وَتَكُونُ مَقْبُولَةً عِنْدَ اللهِ»(١). وإن كان العبد هنا ـ بطبيعة الحال ـ لن يتسنى له مواصلة سلوك طريق القوم، بدخوله في حكم الله!

وأخيرًا، فإن كانت مظلمة التائب للعباد في عِرْضٍ أو سِبَابٍ أو غِيْبَةٍ، فتدارك ذلك يكون بطلب الصفح ممن جنى عليهم بذلك من الناس. ثم بتكثير الحسنات، ليجزي بها التائب جنايته يوم القيامة ـ خاصةً إن كان طلب التائب للصفح، من شأنه أذية من ظلمهم! كأن يكون قد زنى بجارية رجلٍ أو بأهله، أو يكون قد ذكر شخصًا بعيبٍ خفيٍّ فيه.. فإن استحلاله لهم من شأنه أن يعظم الأذى ويصل بالألم إلى نفوسهم، فلا طريق آنذاك إلا تكثير الحسنات ليُبرئ بها التائب نفسه يوم القيامة(٢).

فعلى هذا النحو السابق، تكون توبة السالك تحولاً جذريًا من التخبط في دهليز الدنايا، إلى السير في طرق الأخيار. وتكون توبته بذلك هي التوبة النصوح الواردة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾(٣) يقول الإمام الجيلاني: النَّصوحُ.. الخالصُ لله تعالى، الخالي من الشوائب(٤).

ولهذه التوبة النصوح الخالصة شروط، كان الصوفية قد أفاضوا في الكلام عنها ـ قبل الإمام الجيلاني وبعده(٥)ـ أما هو فقد حدد شرائطها، بثلاثة من

---

(١) الجيلاني: الغنية ٢/٥٨٢.
(٢) الجيلاني: الغنية ٢/٥٦٥.
(٣) سورة التحريم، آية ٨.
(٤) الجيلاني: الغنية ٢/٥٣٨.
(٥) انظر على سبيل المثال: كتاب التوبة للمحاسبي ص ٣٦ ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ص١١١ ـ اللمع في التصوف ص٦٩ ـ الرسالة القشيرية ص٥٠ ـ قوت القلوب ١/١٧٧ ـ =

الشروط التي تنعقد بها صحة التوبة، واعتبر هذه الشروط الثلاثة شهادة على كون التوبة نصوحًا.. وهي:

(١) الندم

الندم هو توجع القلب عند علمه بفوات محبوبه[١].. وهو أول شروط التوبة النصوح، حيث يكون حصول الندم والتأسف بقلب العبد إيذانًا بتوبته التوبة الخالصة، للخلاص من وطأة ألم الندم، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[٢].. ولصدق هذا الندم عند الإمام الجيلاني علامات، منها: رقة القلب، غزارة الدمع، طول التحسر والتأسف على ما فرط العبد في جنب الله.

(٢) ترك الزلات

إن من تاب ولم يغير ما كان عليه قبل التوبة، كاذبٌ في توبته[٣].. فليس التائب مَنْ يصر على المعصية ويتعرض لمهاوي الزلل، وإنما التائب من يترك الذنب (لله) خالصًا، كما ارتكبه (للهوى) خالصًا! وهنا يستشهد الإمام الجيلاني بعبارة يحيى بن معاذ الرازي: زلة واحدة بعد التوبة، أقبح من سبعين قبلها[٤].

= منازل السائرين ص٧ - إحياء علوم الدين ٣٤/٤ - عوارف المعارف ص٢٣٢ - قوانين حكم الإشراق ص٢٠.

(١) الجيلاني: الغنية ٥٥٨/٢ (ويلاحظ هنا أن الإمام الجيلاني ينقل تعريف الورع من إحياء علوم الدين - الجزء الرابع ص٣٤ - كما أنه نقل عن القشيري الشروط الثلاثة للتوبة - الرسالة ص٤٩).

(٢) في هامش تحقيق الغنية ٥٥٦/٢: حديث «الندم توبة» في الجامع الصغير ٣٣٣/٢ رواه الإمام أحمد في المسند والبخاري في التاريخ ورواه ابن ماجة والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود، والبيهقي في شعب الإيمان عن انس وهو صحيح.. انظر أيضاً: المغني عن حمل الأسفار ٣١٤، ذخائر المواريث ١٩٦/٢ كشف الخفاء ٣١٥/٢، مجمع الزوائد ١٩٩/١٠.

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني، ص١٦٠.

(٤) الجيلاني: الغنية ٦٢٨/٢.

(٣) العزم

المراد بالعزم هنا، هو نية العبد ألاّ يعود إلى مثل ما تاب عنه، فلا يبقى على التائب أثرٌ من المعصية، لا سرًا ولا جهرًا.. ثم يصبر على دواعي النفس للمعاودة إلى ما اقترف قبلاً. وقد عبرت الغوثية عن ذلك حين تقول: «إذَا أَرَدْتَ التَّوْبَةَ، فَعَلَيْكَ بِإِخْرَاجِ هَمِّ الذَّنْبِ عَنِ النَّفْسِ، ثُمَّ بِإِخْرَاجِ خَطَرَاتِهِ عَنِ الْقَلْبِ.. وَاصْبِرْ، فَإِنْ لَمْ تَصْبِرْ، فَأَنْتَ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ»[١].

فإذا تمت للتوبة هذه الشروط، صحت وصارت نصوحًا. وغدا للتائب أربعة شهود عدول يشهدون بصدق توبته: (الأول) أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب، (الثاني) أن لا يرى لأحد في قلبه حسدًا ولا عداوةً، (الثالث) أن يفارق إخوان السوء وصحبة المعصية الذين يشوشون صحة العزم، (الرابع) أن يكون مستعدًا للموت مستغفرًا من ذنوبه مجتهدًا في طاعة ربه.

ويضيف الإمام فيقول: وعلامات كونه مقبول التوبة أربع: (أولها) الانقطاع عن أصحاب الفسق ومخالطة الصالحين، (الثاني) أن ينقطع عن كل ذنب ويقبل على جميع الطاعات، (الثالث) أن يذهب فرح الدنيا من قلبه، ويبقى حزن الآخرة، (الرابع) أن يرى نفسه فارغًا عما ضمن الله له من الرزق، فيُسقط التدبير ويشتغل بما أمر الله به[٢].. فمن وُجدت فيه هذه الأربعة، وشهدت له الأربعة الأولى؛ كان من الذين قال الله تعالى في حقهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٣] فلا يبقى عليه لإحكام هذا الأمر غير التطهر بالورع ومحاسبة النفس.

---

(١) الجيلاني: الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٢) الجيلاني: الغنية ٢/٦٢٣.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٢٢.

(٤) الورع

التائب في هذه المرحلة يكون في نقاهةٍ من داء المعصية.. وهو لم يزل بعد قريبًا من أرض الغفلة التي هجرها لتوّه، فيُخشى عليه الانتكاس، كما يُخشى على كل جديد عهد بالشفاء! ومن ثَمّ، لزم عليه السكون تحت ظلال الورع.

وللورع في الإسلام مفهوم بسيط محدد، فهو: ترك الشبهات خوفًا من الوقوع في المحرمات.. فإذا كانت التوبة ـ عند الإمام الجيلاني ـ عرش الإيمان[١]، فإن الورع عنده: ملاكُ الدين[٢]، الحارسُ لأهل الإيمان من مُقاربة حمى الله وحدوده التي أخبر عنها الشرع. وقد جمع الإمام جملة أحاديث نبوية في معنى الورع وفضل الورعين[٣]، واستشهد بأحوال الصحابة وعباراتهم في الورع ـ مثل عبارة أبي بكر الصديق: كنا نترك سبعين بابًا من المباح، مخافة أن نقع في الجناح.. وقول عمر بن الخطاب: كنا نترك تسعة أعشار الحلال، مخافة أن نقع في الحرام ـ يقول الإمام الجيلاني: فعلوا ذلك تورعًا من مقاربة الحرام[٤].. فإن من وقف على الرخص ولم يتقدم إلى العزيمة، سُلِبَ عنه التوفيق، فغلب عليه الهوى وشهوات النفس.

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص٩٤.

(٢) الجيلاني: فتوح الغيب ص٨٥.

(٣) من الأحاديث الشريفة التي ذكرها الإمام في الغنية (الجزء الأول ص٣٧٥ ـ المجلد الثاني، ص٥٨٢ وما بعدها) ما يلي:
- «المؤمن فتّاش».
- «المؤمن وقّاف، والمنافق لقّاف».
- «حاسبوا انفسكم قبل أن تُحاسَبُوا عليها».
- «إن الله يستحي أن يحاسب الورعين يوم القيامة».
- «كن ورعًا تكن من أعبد الناس».
- «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

(٤) الجيلاني: فتوح الغيب ص٨٥.

ثم يستشهد الإمام بسيرة الصوفية وأخبار الورعين[١]، ومن بينها تلك القصة المشهورة عن أخت الصوفي بشر بن الحارث الحافي (المتوفى ٢٢٧ هجرية) حين أتت الإمام أحمد بن حنبل وسألته: يا إمام، إنا نغزل على سطوحنا، فتمر بنا المشاعل، فيقع الشعاع علينا.. فهل يجوز لنا الغزل على شعاعها؟ فقال: من أنت عافاك الله؟ قالت: أنا أخت بشر بن الحارث. فبكى الإمام ابن حنبل، وقال لها: من بيتكم يخرج الورع؛ لا تغزلي في شعاعها[٢].

ولأهل الورع بشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهم في الدنيا بمأمنٍ من الذنوب، وفي الآخرة يُخفف عنهم العذاب.. يقول الإمام الجيلاني: إن من حاسب نفسه في الدنيا وأخذ من الخلق ما يستحقه، وأعرض عما ليس له، وخاف من طول الحساب يوم القيامة، فعلى أي شيء يُحاسب[٣].

وهناك عشر خصال، لا يتم الورع للعبد إلاَّ إذا جعلها فريضة على نفسه. وهي خصال استمدها الإمام الجيلاني بشكل مباشر من آيات القرآن، فهذه الخصال وأصولها القرآنية هي على الترتيب[٤]:

- حفظ اللسان عن الغيبة.. ﴿ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً﴾[٥].
- اجتناب سوء الظن.. ﴿اجتَنِبُوا كثيرًا من الظنِّ إنّ بَعْضَ الظنِّ إثمٌ﴾[٦].

---

(١) الجيلاني: الغنية ٢/٥٨٨.

(٢) الغنية ٢/٥٩٠ (وقد استشهد العديد من رجال التصوف بهذه القصة في معرض كلامهم عن الورع).

(٣) الإشارة هنا للحديث الشريف: «إن الله يستحي أن يحاسب الورعين».

(٤) الغنية ٢/٥٩٩، ٥٦١.

(٥) سورة الحجرات، آية ١٢.

(٦) المصدر السابق.

- اجتناب السخرية.. ﴿لا يَسخَرْ قومٌ من قومٍ﴾[1].
- غضُّ البصر.. ﴿قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبْصَارِهِم﴾[2].
- صدق اللسان.. ﴿وإذا قُلْتُم فاعْدِلوا﴾[3].
- معرفة منّة الله.. ﴿بل اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَداكم للإيمان﴾[4].

- إنفاق المال بالحق.. ﴿والذين إذا أنفَقُوا لم يُسْرِفُوا ولم يَقْتُروا﴾[5].

- البُعد عن طلب الرياسة والعلو.. ﴿تلك الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُها لِلَّذين لا يُريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فَسادًا﴾[6].

- المحافظة على الصلوات الخمس في مواقيتها.. ﴿حافِظُوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى﴾[7].

- الاستقامة على السنة والجماعة.. ﴿وأنَّ هذا صِراطي مستقيمًا فاتَّبِعُوه ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّق بكم عن سبيله﴾[8].

وهناك صفة يمكن أن نلحقها بخصال الورع العشرة التي ذكرها الإمام، خاصةً أنها من أهم مستلزمات الورع - إن لم تكن أهمها على الإطلاق - وهي: ترك صاحب الورع ما لا يعنيه، وانشغاله بإصلاح أمر نفسه.. فهذه الصفة قد أشار إليها الإمام الجيلاني ضمنًا عند استشهاده بالحديث الشريف:

---

(١) سورة الحجرات، آية ١١.
(٢) سورة النور، آية ٣٠.
(٣) سورة الأنعام، آية ١٥٢.
(٤) سورة الحجرات، آية ١٧.
(٥) سورة الفرقان، آية ٦٧.
(٦) سورة القصص، آية ٨٣.
(٧) سورة البقرة، آية ٢٣٨.
(٨) سورة الأنعام، آية ١٥٣.

« مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ[1] » لكنه لم يذكرها ضمن الخصال العشرة، برغم اهتمام الصوفية بالتنبيه عليها ــ فقد ذكر السُّلَمي عن أبي سعيد الخَرَّاز (المتوفى ٢٧٩ هجرية) قوله: صحبت الصوفية خمسين سنة، فما وقع بيني وبينهم خلاف، لأني كنت على نفسي[2].. وذكر السُّهروردي عن ابن أبي سِنَّان (المتوفى ٣١١ هجرية) أنه قال ذات يوم لمن معه: لِمَنْ هذه الدار..؟ ثم رجع إلى نفسه قائلا: « ما لي وهذا السؤال، وهل سؤالي غير كلمة لا تعنيني، وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أدبها! » وآلى على نفسه أن يصوم سنة، كفارة لهذه الكلمة[3].

* * *

وبعد.. فإذا كان السالك لطريق الحق قد أحكم هذه التوبة النصوح، وأتمها بهذا الورع الشافي ــ وقد قام من قبل بواجبات الاعتقاد والعلم والعمل ــ فإنه بذلك يكون قد استوفى الخطوط العريضة للشريعة، وبقيت عليه معرفة الدقائق.. ومعرفة حقائق النفس.. ومعرفة دقائق بقية مراحل الطريق. وهذا كله يخفى على المبتدئ، ولا سبيل للوصول إليه من نفسه، وإنما السبيل الوحيد لذلك هو: صحبة الشيخ.

---

(١) حديث صحيح مشهور، أخرجه الترمذي في الزهد/ ١١ ــ وابن ماجه في الفتن/ ١٣ ــ ومالك في الموطأ، حسن الخلق/ ٣ ــ وابن حنبل في المسند ١/ ٢٠١.

(٢) السُّلَمي: المقدمة في التصوف ص٢٧ (وذكر الإمام الجيلاني في الغنية ٢/ ٧٥٠ عبارة مشابهة، نسبها إلى ابي سعد بن احمد بن عيسى).

(٣) السهروردي: عوارف المعارف ص٢٥٤.

الفصل الثالث

الشيخ

على أطراف صحارى الخلق، وعند حدود دروب الدنيا.. يضرب الشيوخ خيامهم، ليدلوا السالكين على سبيل العروج إلى الخالق، ويرشدوا التائبين التائهين إلى منارات طريق الآخرة. فالشيوخ هم الأدلاء، وهم العارفون بمسالك القرب إلى الله، لهم فراسة فيمن تهيأ للرقي، ولهم معرفة بالغارقين في بحر الغفلات.. فما تُخطئ نظرتهم فيمن أقبل عليهم أو مَرَّ بهم، وكيف تُخطئ؟ وهم الناظرون بنور الله، المتنعمون بعنايته الأزلية السابقة فيهم؟!

وكان الصوفية قد أفردوا الصفحات الطوال للكلام عن شيوخ الطريق، وعن علو مقاماتهم، وعن أهمية دورهم[١].. حتى جاء مولانا جلال الدين، وعبر عن هذه الافكار شعرًا، ففي إحدى قصائد المثنوي[٢] الرمزية التي بلغت حد الروعة، يقول:

«إِنَّ الشُّيُوخَ.. هُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ - قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ هَذَا الْعَالَمُ - كَانَتْ أَرْوَاحُهُمْ غَرْقَى فِي بَحْرِ الْجُودِ!

(١) انظر الفصول التي عقدها أئمة التصوف حول هذا الموضوع في المؤلفات التالية: الرسالة القشيرية - قوت القلوب - اللمع - إحياء علوم الدين - عوارف المعارف - الكوكب الشاهق للشعراني - مدارج الحقيقة للشيخ ابراهيم حلمي القادري.

(٢) يعتبر المثنوي أهم أثر صوفي في اللغة الفارسية، وهو منظومة مطولة تقع فيما يقرب من خمسة وعشرين ألف بيت من روائع الشعر الصوفي الفارسي.

وَحِينَ اعْتَرَضَ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى ذَلِكَ الْخَلْقِ ، أَخَذُوا يَسْخَرُونَ فِي الْخَفَاءِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ .

إِنَّ الشُّيُوخَ قَدْ أَبْصَرُوا الشِّتَاءَ إِبَّانَ الصَّيْفِ اللاَّهِبِ ، وَشَاهَدُوا الظِّلاَلَ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ ؛ فَالسَّمَاءُ نَشْوَى بِمَا يُدَارُ فِي كَأْسِهِمْ مِنْ شَرَابٍ ، والشَّمْسُ مِنْ جُودِهِمْ تَرْفُلُ فِي وَشْيِ الذَّهَبِ ...[1] » .

وحينما يتهيأ السالك للدخول في حرم الشيخ المربي ، يُسمى آنذاك ـ بلغة القوم ـ مريدًا .. وهي تسميةٌ مشتقةٌ من (الإرادة) التي هي ترك ما جرت عليه العادة ، ومفارقة حظوظ النفس ، ونهوض القلب في طلب الحق[2] . فبهذه الإرادة يتجه المريد إلى صحبة شيخ الطريق .

مفهوم الشيخ وأهميته :

الشيخ هو المرشد الروحي الذي سلك طريق الحق ، وعرف المخاوف والمهالك والحدود ، فتولى تربية المريدين والإشارة إليهم بمستلزمات السلوك ، ومقتضيات الوصول إلى قرب الخالق عز وجل .. ولا بد أن يكون الشيخ قد أخذ الطريق عن شيخٍ سابقٍ ، بحيث تتسلسل متابعته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكون قد ذاق حقائق الطريق وتخلق بأخلاق النبي عليه السلام[3] . وبالجملة ، فالشيخ ـ كما يقول القاشاني ـ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة ، البالغ حَدَّ التكميل فيها ، لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها ، ومعرفته بدوائها ، وقدرته على شفائها والقيام

---

(١) جلال الدين الرومي : المثنوي (ترجمة الدكتور محمد عبد السلام كفافي ـ المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٧) المجلد الثاني ، ص٣٤ ، ٣٥ .

(٢) الجيلاني : الغنية ٣/١٢٦٦ .

(٣) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون (تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧) الجزء الرابع ص٩٥ ، ٩٦ .

بهداها إن استعدت ووفقت لاهتدائها[1].

ويرى الإمام الجيلاني ـ وسائر الصوفية ـ أنه لا بد لكل مريدٍ لله من شيخ، فالمشايخ هم الطريق إلى الله، والادلاَّء عليه، والباب الذي يُدخل منه إليه[2].. فالمريد إذا جاء وقت إرادته، وانفرد برأيه ولم يصحب شيخًا، ضَلَّ، وكان الشيطان له قائدًا وشيخًا[3]! وهنا يستند الإمام الجيلاني للحديث الشريف «اسْتَعِينُوا عَلَى كُلِّ صَنْعَةٍ بِصَالِحِ أَهْلِهَا» ليتوجه به توجهًا ذوقيًا، مفاده أن الشيخ هو صالح أهل الطريق إلى الحق، فلا محالة من الاستعانة به على هذه الصنعة (السلوك).

ويشير الإمام إلى أن الله تعالى قد يصطفي بعض عباده، فيتولى تربيتهم وايصالهم إليه من غير مرشد، كإبراهيم ومحمد من الأنبياء، وأويس القَرَنِيّ[4] من الأولياء.. إلا أن تلك الحالات استثناء من القاعدة، فالأغلب الأعم هو ما جرت به سنة الله بأن يكون في الأرض شيخٌ ومريدٌ، تابعٌ ومتبوعٌ. بل ان الإمام الجيلاني يجعل هذه السُّنَّة تبدأ بآدم، فقد كان آدم كالتلميذ حين تعلم من ربه الأسماء كلها، ثم كان شيخًا للملائكة حينا ظهر عجزهم وعدم علمهم

---

(١) القاشاني: اصطلاحات الصوفية (تحقيق الدكتور محمد كمال جعفر ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٨١) ص١٥٤.

(٢) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٦٩.

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٢٩.

(٤) أويس القَرَنِيّ، شخصية لها دلالة صوفية عميقة.. فهو خير التابعين بشهادة سيد المرسلين، أدرك زمان النبي ولم يره، منعه من ذلك بره بأمه العجوز التي أشفق أن يتركها! أنظر ترجمته والأخبار الواردة في وفاته، والأحاديث النبوية في شأنه وفضله في:

ـ طبقات الخواص، للشرجي (الدار اليمنية ـ صنعاء ١٤٠٦ هـ) ص١٠٩ وما بعدها.

ـ سير اعلام النبلاء، للذهبي (دار الرسالة ـ بيروت ١٤٠١ هـ) المجلد الرابع، ص١٩ وما بعدها.

ـ المعدن العدني في فضل أويس القرني، للقاري (مخطوط بلدية الاسكندرية رقم ١٦٧٨/ب).

بقولهم ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾[1] فأنبئهم آدم بالأسماء! ثم عاد آدم ـ بعد هبوطه إلى الأرض ـ واحتاج إلى معلمٍ ومرشدٍ ودليلٍ ، فبعث الله له جبريل ليعرّفه ما يُشكل عليه.. فصار آدم تلميذاً لجبريل، وجبريل أستاذه وشيخه ، بعد أن كان آدم شيخه وشيخ الملائكة أجمع[2].

ثم يعود الإمام الجيلاني إلى الشيخ في مفهومه الصوفي، فيقرر أن الشيخ يختلف عن علماء الظاهر الذين يأخذ المُبتدئ منهم علوم الشرع ، حيث يمكن للسالك تلقي علوم وفنون الشريعة من جلة علماء ، أما دقائق الطريقة فلا يدركها السالك إلا بصحبة شيخٍ واحدٍ ، فلا يصح أن يتولى تربية المريد غير شيخٍ واحدٍ في نفس الوقت.. وقد كان سلوك الإمام الجيلاني ترجمة لهذا المعنى ، فبرغم أنه تلقى فروع العلم ممن لا حصر لهم من علماء الظاهر ، وكانوا شيوخه في هذه الفروع ، إلا أنه حين أخذ الطريق ، لم يصحب غير شيخه حماد الدبَّاس.. وحين لبس الخرقة ، لم يلبسها إلاَّ من يد شيخه المخرمي[3]. ولأهمية الشيخ في الطريق الصوفي ، باعتباره حاجب باب الحق تعالى ؛ ولعمق أثره في نفوس السالكين المبتدئين ـ أولئك الذين تكون بواطنهم كالشمع ، تقبل كل نقش[4] ـ ولوجوب اقتداء المريد بالشيخ والتأسي به ، فإن الإمام الجيلاني يشترط في هذا الشيخ سمات خاصة وخصالاً ، من شأنها أن ترفعه هذا المقام ، وتوجب له هذا التقدير العميق لمشايخ الطريق.

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣٢.

(٢) الجيلاني : الغنية ٣/١٢٨١ وما بعدها.

(٣) خفيت هذه النقطة على بعض الدارسين للتصوف. فمن ذلك ما يذهب إليه الزميل محمد المحمدي سليمان حين يقول ان بعض أقطاب التصوف ـ كالشاذلي ـ أكدوا على ضرورة أن يأخذ المريد من كل شيخ يقابله (دراسة شرح ابن عجيبة على الحكم العطائية ـ رسالة ماجستير بإشراف الدكتور محمد علي أبو ريان ، كلية الآداب/ جامعة الاسكندرية ، ص٩٠) ومع ذلك ، فقد أكد أئمة التصوف على أن المريد لا ينبغي له أن يتخذ إلا شيخاً واحداً.. لأن ذلك ـ كما يقول ابن عربي والشعراني ـ أعون له على سلوك الطريق (الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ، للشعراني ١/٦٤).

(٤) السهروردي : عوارف المعارف ، ص٢٥٣.

سمات الشيخ وخصاله:

إن أول ما يشترطه الإمام الجيلاني في الشيخ المتصدر لتسليك المريدين، هو معرفة العلوم الشرعية وإشارات الصوفية، بحيث يجمع بين الشريعة والحقيقة. وهنا يستشهد الإمام بعبارة الجنيد الشهيرة: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الحديث ويكتبه، ويحفظ الكتاب العزيز، ويتفقه في الدين ومصطلح الصوفية، وإلاَّ لا يُقتدى به[1].

ثم يجمع الإمام خصال الشيخ حين يقول: ولا يجوز لشيخ أن يجلس على سجادة النهاية ويتقلد بسيف العناية، حتى تكمل فيه اثنتا عشرة خصلة: خصلتان من الله (يكون ستَّارًا غفارًا) وخصلتان من النبي (يكون شفيقًا رفيقًا) وخصلتان من أبي بكر (يكون صادقًا متصدقًا) وخصلتان من عمر (يكون أمارًا نهاءً) وخصلتان من عثمان (يكون طعَّامًا للطعام مصليًا والناس نيام) وخصلتان من علي (يكون عالمًا شجاعًا)[2].

ولا بد للشيخ - كما يرى الإمام الجيلاني - أن يكون مُستراحًا لمريديه وكهفًا لهم وملاذًا، وخزانةً وحرزًا لأسرارهم.. ولا يغتاب، ولا يذكر المساوئ ويفشي الأسرار فتنفر القلوب من مصاحبته، ويصير تهمة في أهل التصوف! يقول الإمام: فإن غلبت عليه هذه الأمور، ولم يمكنه تداركها، فليعزل نفسه عن هذه المنصبة والولاية، ولينفرد عن المريدين ويشتغل بمجاهدة

---

(١) انظر استشهاد الإمام الجيلاني بهذه العبارة في (قلائد الجواهر ص١٧) وقد وردت العبارة في معظم ترجمات الجنيد مع اختلاف طفيف في اللفظ.

(٢) التادفي: قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر (المطبعة العثمانية - القاهرة ١٣٠٣هـ) ص١٧ - وقد نسب التادفي للإمام الجيلاني أبياتا شعرية في وصف الشيخ وسماته، تقول:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الشَّيْخِ خَمْسُ فَوَائِدٍ ... وَإِلاَّ فَدَجَّالٌ يَقُودُ إِلَى الْجَهْلِ
عَلِيمٌ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا ... وَيَبْحَثُ فِي عِلْمِ الْحَقِيقَةِ عَنْ أَصْلِ
وَيَظْهَرُ لِلوُرَّادِ بِالْبِشْرِ وَالْقِرَى ... وَيَخْضَعُ لِلْمِسْكِينِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ
فَذَاكَ هُوَ الشَّيْخُ الْمُعَظَّمُ قَدْرُهُ ... عَلِيمٌ بِأَحْكَامِ الْحَرَامِ مِنَ الْحِلِّ
يُهَذِّبُ طُلاَّبَ الطَّرِيقِ وَنَفْسُهُ ... مُهَذَّبَةٌ مِنْ قَبْلِ ذُو كَرَمٍ كُلِّي

نفسه ورياضتها، ويطلب شيخًا يؤدبه ويقومه ويهذبه، فلا يصلح أن يكون شيخًا مع هذه الدواهي؛ فلا يقطع على المريدين طريقتهم إلى الله عز وجل[1].

وكان الإمام الجيلاني كثير التنبيه على خطر مدعي المشيخة الذين رفعوا أنفسهم لمرتبة الشيخ، وهم ليسوا أهلًا لذلك. فهو يتساءل متعجبًا: كيف يمسّ الواحد منهم الحيّات (يعني نفوس المبتدئين غير المهذبة) ويُقلّبها، وهو لم يأخذ الترياق؟ وكيف يُقدّم الناس إلى باب الملك، من ليس بحاجب[2].. ثم يتوجه لهذا الشيخ الدعيّ فيقول: أنت يا مَنْ تمشيخ وتصدر وزاحم الشيوخ المخلصين في أحوالهم، ما دمت تطلب الدنيا بنفسك وهواك فأنت صبيٌّ.. يا غافل، تبارز الحق عز وجل بالمعصية والمخالفة ثم تأمنه، عن قريب ينقلب أمنك خوفًا[3].. وهنا يبدو الإمام كما لو كان يوجه الكلام إلى بعض شيوخ التصوف المعاصرين لنا اليوم، هؤلاء الشيوخ الأدعياء الذين أساءوا للتصوف أبلغ إساءة!

ثم يقول الإمام للمبتدئ: يا غلام، اصحب من يعاونك على جهاد نفسك لا من يعاونها عليك، إذا صحبت شيخًا جاهلاً منافقًا صاحب طبعٍ وهوى، كان معاونًا لها عليك؛ الشيوخ لا يُصحبون للدنيا بل يُصحبون للآخرة، إذا كان الشيخ صاحبَ طبعٍ صُحِبَ للدنيا.. وإذا كان صاحبَ قلْبٍ، صُحِبَ للآخرة، وإذا كان صاحب سِرٍّ صُحِبَ للمولى عزل وجل[4].

رابطة الشيخ والمريد:

تعد الرابطة بين الشيخ والمريد، المظهر الأتم للتربية الإسلامية في مفهومها العميق، فهي اجتماع تربويّ ليس فيه من الحظ الدنيوي نصيب، فلا يعتمد

(١) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٩١

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٢٦.

(٣) المرجع السابق ص١٦١.

(٤) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٦٠.

على زخرف قولٍ أو نظرية منمقةٍ، وإنما يعتمد على الصدق والإخلاص في طلب العلم والهداية والتقرب إلى الله بأقدام الأدب.. وتشتمل هذه الرابطة على علاقاتٍ ثلاثٍ بها تكتمل أركانها: الأولى علاقة الشيخ بمريديه، أو ما نسميه (مهام الشيخ)، والثانية علاقة المريد بشيخه (أخلاق المريد)، والثالثة الأخيرة علاقة المريد بغيره من مريدي شيخه (آداب الإخوان). فبصحة هذه العلاقات، تصح رابطة الشيخ والمريد.. ونرى أن نقف على هذه العلاقات بشيء من تفصيل القول، لنرى كيف تقررها الطريقة القادرية، وكيف حددها الإمام عبد القادر الجيلاني في أقواله وأفعاله:

(١) مهام الشيخ

أول ما ينبغي على الشيخ تجاه المريد، أن يكون قبوله له لله عزل وجل، لا لنفسه[١]. فما دام الشيخ زاهدًا في المريدين وفي انتفاعه بهم، وليس له من تربيتهم إلاَّ القيام بأمر الله، فهم لا محالة ينتفعون بكلامه.. فإن طمع الشيخ فيهم، كان كلامه لهم قشرًا لا لُبَّ فيه[٢]! يقول الإمام: ولا ينبغي للشيخ أن يأمل من الله عوضًا في تأديب المريد، بل يؤدبه ويربيه موافقةً لله وأداءً لأمره وقبولاً لهديته.. فالمريد الذي جاء للشيخ من غير تخيّر ولا استجلاب، هو هدية من الله.. فعليه قبوله والإحسان إليه بتربيته[٣].

ويبدأ الشيخ تربيته للمريد بحكم النصيحة ويرعاه بعين الشفقة، فلا يأخذه أول الأمر بما لا طاقة له به من عزائم الأمور، وإنما يبدؤه بالرفق.. فإن الرفق يؤنسه[٤]، فإن أنس الشيخ فيه إقبالاً وهمةً، أمره بالأشد من الأمور. فيأمره أولاً بترك متابعة الطبع والهوى ثم ينتقل به من الرخص الشرعية إلى

(١) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٨٩.
(٢) الجيلاني: جلاء الخاطر (مخطوط) ورقة ٢ب.
(٣) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٩٠.
(٤) الجيلاني: الوصية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

عزائم الأمور شيئًا بعد شيء، فيمحو خصلة من الرخص ويثبت مكانها خصلة من العزيمة[1].

ويتفرس الشيخ في مريده، ويتعرف على مواطن الآفات من نفسه ـ وآفات النفوس كثيرة ـ فيدله على الرياضات الروحية التي بها تبرأ النفس من أمراضها.. فإن كان في نفس المريد حدةٌ وإقبالٌ على الدنيا، حمله الشيخ على الخمود والذلة والانكسار، وراض نفسه برياضات الجوع والسهر. وإن كانت نفس المريد تواقة إلى الشهرة والرياسة والفخر، دلَّه الشيخ على رياضات العزلة والخلوة والصمت. وإن بدا في المريد جهلٌ ورعونةٌ، ساسه الشيخ بسياسة العلم والأدب.. وهكذا يتعقب الشيخ ما يجده من آفات نفسية بالمريد، فيعالجها بأضدادها[2].

وحينما يرى الشيخ في المريد خروجًا من آفات النفس، وصدقًا في المجاهدة، وعزمًا على العروج إلى المقامات العالية.. فحينئذٍ لا يسامحه في شيء، ويأخذه بأشد الرياضات والاختبارات ـ كما كان الشيخ الدبَّاس يفعل مع الإمام الجيلاني ـ فقد ثبت عند الشيخ بالإلهام الإلهي، أن هذا المريد مخلوقٌ لذلك وجديرٌ به، فلا ينبغي آنذاك أن يخونه بالتهوين عليه[3].

وأخيرًا، فللشيخ عناية باطنة بالمريد، بالغ الإمام الجيلاني ـ حسبما روي عنه ـ في التأكيد عليها، حتى أنه دعا الله أن لا يميت مريدًا له إلاّ على

---

(١) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٩٠.

(٢) راجع البحث القيم الذي وضعه أستاذنا الدكتور حسن الشرقاوي في كيفية معالجة أمراض النفس، استنادًا لما قرره أئمة الإسلام من العلاج بالاضداد (الشريعة والحقيقة ص ٢١٠ وما بعدها) ونود هنا أن نشير إلى أن المبدأ القائل: الضد للضد شفاء.. هو مبدأ طبي قديم وضعه جالينوس (انظر: كتاب جالينوس إلى غلوقن في التأتي لشفاء الامراض، تحقيق محمد سليم سالم، ص٩٦ وما بعدها) أما الجديد عند صوفية الإسلام، فهو تطبيق هذا المبدأ في المجال السيكولوجي ومعالجة آفات النفوس بمقتضاه.

(٣) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٩١.

توبة[1].. يقول الإمام الجيلاني ـ شَيْخُ الكُلِّ ـ وهو على قدم التمكين: أنا كافل لمريدي، فلو انكشفت عورة لمريد بالمغرب، وأنا بالمشرق، لسترتها.. إن لم يكن مريدي جيدًا، فأنا جيد[2]! ومن هنا قال الإمام:

أَنَا لِمُرِيدِي حَافِظٌ مَا يَخَافُهُ ... وَأَحْرُسُهُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةِ
مُرِيدِي إِذَا مَا كَانَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا ... أُغِثْهُ إِذَا مَا سَارَ فِي أَيِّ بَلْدَةِ[3]

(٢) أخلاق المريد

أول ما ينبغي على المريد حين يقصد شيخًا للتأدب به والتلقي منه والتربي على يديه، أن يكون له ايمانٌ وتصديقٌ واعتقادٌ، بأنه لا أحد في تلك الديار أولى من هذا الشيخ للانتفاع به[4].. فإذا صاحبه، لم يلتفت لغيره من المشايخ، فإن تفرق نظر المريد بين عدة مشايخ للطريق، من شأنه أن يبعده عن الاستفادة الكاملة من شيخه.

ويرى الصوفية أن المريد لا ينبغي له أن يعتقد في شيخه العصمة[5]، لكنه يتعين عليه الإيمان بأن الخير الكثير، ومواصلة السلوك، إنما يتيسر بحسن مصاحبة هذا الشيخ، واتباع جملة آداب تدخل جميعًا تحت طاعة الشيخ وتوقيره. وقد جمع الإمام الجيلاني أخلاقيات المريد مع شيخه، فيما يمكن أن نعدده بالآتي[6]:

(★) الطاعة الظاهرة والباطنة، بمعنى أن يمتثل المريد لرأي شيخه في الظاهر، ولا يعترض عليه في الباطن ـ إذا رأى منه ما لا يقدر على فهم

---

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص٩٩.
(٢) التادفي: قلائد الجواهر ص١٨، ١٩، ٢٠.
(٣) الجيلاني: القصيدة الشريفة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ٢٨، ٢٩.
(٤) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٨٨.
(٥) السهروردي: عوارف المعارف ص١٩٨ وما بعدها.
(٦) لم يذكر الإمام الجيلاني أخلاقيات المريد على نفس المنوال الوارد هنا، وإنما استفدنا هذا التعداد من جملة كلام الإمام.

مرماه - ويتخذ من قصة موسى والعبد الصالح، مثالاً واجب الاتباع[1].. يقول الإمام: مُخَالَفَةُ الشُّيُوخِ سُمٌّ قَاتِلٌ[2].

(★) الجلوس مع الشيخ على بساط الأدب؛ فلا يتكلم بين يديه إلا في الضرورة، ولا يقاطع كلام شيخه ليقول رأيه هو.. ومهما رأى في كلام الشيخ نقصانًا وقصورًا، فلا يهم بمعارضته في الرأي. فكما يقول القوم: مَنْ قَالَ لِشَيْخِهِ لاَ.. لاَ يُفْلِح[3]! يقول الإمام لمريده: إذا دخلت عندي، فاطو علمك ورؤية نفسك، ادخل مفلسًا بلا شيء.. إذا جئت وأنت ترى علمك ونفسك، حُجبت عن هذا الأمر الذي أُشير إليه[4].

(★) إطلاعُ الشيخ على أحواله؛ فلا يكتم عن شيخه شيئًا - وإن بدا فيه العيب والتقصير - حتى يتسنى للشيخ هَدْيه للصواب، وتصحيح ما بدر منه، ويدعو له بالتوفيق والفلاح.. فربما يُصلح الله حال المريد، ببركة شيخه[5].

(★) عدم اتهام الشيخ باساءةٍ قلبيةٍ، مهما رأى فيه من أحوال؛ فقد تكون التهمة لقصور فهم المريد بحقيقة الحال. فالواجب على المريد حسن الظن بشيخه، فإن رأى فيه ما يستوجب التهمة، قال في نفسه: ربما كان ذلك لجهلي وقلة علمي.. يقول الإمام: إذا اتهمت شيخك فلا تصحبه، فالمريض إذا اتهم الطبيب لم يبرأ بمداواته[6].

(★) التهيؤ الدائم لخدمة الشيخ[7]؛ فلا يرد له طلبًا، بل يسارع إلى تلبية ما يريده الشيخ.. ولا يتعلل المريد بقضاء حاجاته الخاصة، فليس للمريد

---

(١) راجع قصة موسى والعبد الصالح (الخضر) في سورة الكهف، آية ٥٢ وما بعدها.
(٢) الجيلاني: الغنية ١٢٨٨/٣.
(٣) السهروردي: عوارف المعارف ص٢٠٢.
(٤) الجيلاني: جلاء الخاطر، ورقة ٤ب.
(٥) الجيلاني: الغنية ٣/ ١٢٨٩.
(٦) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٣٤.
(٧) الجيلاني: الغنية ١٢٨١/٣.

الصادق همٌّ ولا ذهبٌ ولا مالٌ، بالإضافة إلى شيخه[1].

(★) الصدق في الصحبة لله، فلا يكون المريد مع شيخه وقلبه مشغول بأهل الدنيا.. فإن شرط الإرادة للخالق، خروج المخلوقين من القلب[2].

وأخيرًا فإن أهم ما يتخلق به المريد مع شيخه عند الإمام الجيلاني، هو الصبر على خشونة الشيخ. فقد رأى الإمام أن المريد لا يتعلم إلاّ بالخشونة[3] ـ لأن نفسه لم تزل بعد غير مهذَّبة ـ ولأن كف القيِّم إن لم تكن خشنة، لم تصلح حال النفس الخارجة لتوها من هوس المطالب وبهرجة الشهوات والأهواء! لذلك فالإمام يؤكد عند كل مناسبة، على ضرورة الصبر على خشونة المشايخ، ويشير إلى أنه قد تربى في طريق الله على خشونة مشايخه وخشونة الغربة والفقر والصدق في الطلب، فما كان يهرب من كلام شيوخه ويتَّبع الرخص.. ومن هنا قال الإمام لمريديه: لاَ تَهْرُبُوا مِنْ خُشُونَةِ كَلاَمِي، فَمَا رَبَّانِي إلاَّ الْخَشِنُ[4].

(٣) آداب الإخوان

بجانب أخلاق المريد من شيخه، فإن له آدابًا مع إخوانه من مريدي الشيخ، لا تلبث بالمداومة أن تصبح أدبًا مع سائر الناس.. فالطريق الصوفي له خطان: الأول رأسيٌّ، ويكون بمعاملة الخالق عزَّ وجلَّ بالطاعة والصدق والإخلاص. والآخر أفقيٌّ، ويكون بمعاملة الخلق بالأدب! ومن هنا يقال: التَّصوُّفُ كُلُّهُ أَدَبٌ.. إذ ان معاملة الخالق هي ـ في حقيقة الأمر ـ القيام معه بآداب العبودية.

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٣٤.

(٢) الجيلاني: الغنية ١٢٦٦/٣.

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص٤٣٦.

(٤) انظر على سبيل المثال: الفتح الرباني، ص١٥، ١٢٥، ١٨٤.

وننظر في آداب المريد مع إخوانه عند الإمام الجيلاني، فنراه يذكر من هذه الآداب:

(★) الفتوة[1] والإيثار والصفح عن العثرات[2].

(★) التواضع والموافقة للإخوان وترك مخالفتهم ومنافرتهم، والبُعد عن المجادلة معهم.

(★) التعامي عن عيوبهم، وحفظ قلوبهم باجتناب فعل ما يكرهونه.

(★) المحبة لهم والشفقة عليهم.. فإن وجد في قلبه وحشة من أحدهم، فلا يُظهر له ذلك، ويظل على نفسه حتى تزول هذه الوحشة.

(★) أن لا يرى المريد لنفسه حقًا على واحدٍ من إخوانه، ولا يطالب أحدهم بحقٍّ، بل يرى لهم الحقوق عليه، فلا يقصر في القيام بحق الأخوة فيهم.

ويبدو أن الإمام الجيلاني قد اكتفى بهذه الإشارات لآداب المريد مع إخوانه[3]، نظرًا لاشتهار هذه الآداب عند الصوفية واستفاضة السابقين عليه في الكلام عنها.. إلاَّ أنه لم يغفل أيضًا الإشارة إلى غيرها من آداب الصحبة، مع الأجانب والأغنياء، ومع الفقراء من أهل الطريق[4].

وبهذه الآداب تكتمل رابطة الشيخ والمريد، تلك الرابطة التي أكّد الصوفية دومًا على ضرورتها، بحيث يصعب وضع تصور متكامل للطريق الصوفي دون

---

(١) الفتوة هي مجموعة الفضائل الأخلاقية التي يتحلى بها المريد، وهي مستقاة بشكلٍ مباشرٍ من أخلاق الأنبياء والصحابة، فمنها الكرم والنجدة والشفقة.. الخ.

(٢) الغنية ١٢٩٢/٣ وما بعدها.

(٣) أفرد الإمام الغزالي لهذه الحقوق بابًا من الإحياء (المجلد الثاني ص١٧٣ وما بعدها) ثم اختصره الشعراني وزاد عليه في مؤلف مخطوط بعنوان: حقوق أخوة الإسلام. (مخطوط بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة).

(٤) الغنية ١٢٩٣/٣ ـ الوصية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

التوقف عندها.. فلا تزال هذه الرابطة القلبية تجمع بين المريد وشيخه، حتى يأتي وقت الافتراق.

مفارقة الشيخ:

لاَ رِضَاعَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ.. بهذه الإشارة الرمزية، ينبه الإمام الجيلاني على حقيقة من حقائق الطريق قلما نجدها عند غيره من أقطاب التصوف، وهي الحقيقة المتعلقة بأوان وجوب انقطاع المريد عن الشيخ.

يرى الإمام الجيلاني أن المريد متى صحت له الصحبة مع الشيخ، وتأدب بآداب العبودية عليه، حتى وصل إلى حال يمكنه معه مواصلة السير إلى قرب الحق.. آن له عندئذٍ أن يفارق الشيخ وينقطع عنه، حتى لا يكون في قلبه - بعد سقوط إرادته وتدبيره مع الله - غير همّ معاملة مولاه، دون الاشتغال عن ذلك بمراعاة أحدٍ من الخلق، ولو كان شيخ الطريق.

ولوقت المفارقة دلائلُ وإشاراتٌ، أولها فناء الهوى من قلب السالك، ثم هجره الدنيا بالكلية - فإن كان شيء منها بيده، لا يكون في قلبه - ثم صدق إقباله على الله، حتى يُقبل الله عليه ببعض أسراره.. حتى أنه قد يكون لهذا المريد سرٌّ لا يطلع عليه شيخه، كما أن للشيخ سرًّا لا يطلع عليه مريده[1]. ففي هذا الوقت يكون للمريد تعلقٌ بربه وسبيلٌ إليه، يخالف سبيل الشيخ وتعلقه بخالقه، فأنّى لهما - كما يقول الامام[2] - أن يجتمعا، وقد خُولِفَ بين طريقهما إلى الله! وهذا يذكرنا بالعبارة الصوفية الشهيرة التي تقول: السُّبُلُ إِلَى اللهِ عَلَى عَدَدِ أَنْفَاسِ الْبَشَرِ.

وحين يقف السالك على السبيل الذي يدلّه الحق تعالى ويهديه إليه، يكون المولى عزَّ وجلَّ قد أراد أن يفطمه عن الخلق جملةً، فحينئذٍ يُقطع عن الشيخ

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص٤١.

(٢) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٨٥.

قطعًا[1] .. وربما حُرِمَ عليه المرور على شيخه، اللّهم إلاّ إذا التقيا مصادفة، أو يكون اللقاء بإذنٍ إلهيٍّ! يقول الإمام: فصلوات الله على الشيخ، وعلى المريد الصادق الذي استغنى بربه عن الشيخ[2].

..وعند هذه النقطة، تبدأ التجربة الفردية الحقيقية للطريق الصوفي، ويبدأ السالك في معاملة المولى والتقرب إليه بمجاهدات خاصة؛ فيهديه الله تعالى لسبيله الخاص إليه، كما قال عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[3].

---

(١) انظر، الغنية ٣/١٢٨٤ ـ فتوح الغيب ص٤١، ٤٢.

(٢) الغنية ٣/١٢٨٥.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

علامات الطريق

تَعَلَّمُوا شَيْئًا، مَا عِنْدَكُمْ مِنْهُ خَبَرٌ.
ادْخُلُوا كِتَابِيَ حَتَّى أُعَلِّمَكُمْ شَيْئًا لاَ تَجِدُونَهُ عِنْدَكُمْ!
لِلْقُلُوبِ كِتَابٌ
وَلِلأَسْرَارِ كِتَابٌ
وَلِلنُّفُوسِ كِتَابٌ
وَلِلْجَوَارِحِ كِتَابٌ
هِيَ دَرَجَاتٌ وَمَقَامَاتٌ وَأَقْدَامٌ مَعْدُودَةٌ..

الإمام الجيلاني

تمهيد

حينما يتخرج السّالك في مدرسة الشيخ المربي، ويتهيأ لبلوغ مبلغ الرّجال، يكون أوانه قد حان للدخول في غمار التجربة الصوفية التي يتفرد فيها الخاصة من أهل الله.. فالسالك هنا يكون قد لمح أنوارًا في أُفُق قلبه، فعلى هَدْي هذا النور يعرج لنبع الإشراق.

وفي رحلة العروج لارتقاء السّلم الرُّوحي الممتد من الخلق إلى الحق، ما لا ينتهي من المشاهد الذوقية.. وما لا حصر له من الكشوفات؛ تلك المشاهد والكشوفات التي تتنزل بها التجليات الإلهية على السر المودع في النشأة الإنسانية: القلب.

ويمر السالك في رحلته بهذه العلامات، تحدو به الأشواق والمجاهدات، فكلما اجتاز بأجنحة الصدق مقامًا.. لقي في سمائه عوالم أخرى ومقامات، فلا يفتأ يترقى خارقًا الصفوف، ولا هَمَّ له غير لقاء المحبوب. فإذا تَمَّ عروجه، فما ثَمَّ غير الله.

ولم يكن الإمام الجيلاني ليتحدث عن (الطَّرِيقُ إِلَى اللهِ) دون الإلماح إلى العلامات التي يمر بها السالك فيما بين ابتدائه والمُنتهى، وإن كانت إلماحات الإمام قد جاءت مشتتة في غير موضع من مؤلفاته، فإننا هنا بصدد ترتيب العلامات وبيان تدرجها ـ وفقًا لما ورد في آثار الإمام.

وعلى ذلك فإن هذا الباب من البحث، استشرافٌ لثلاث علامات كبرى لا بد للسالك من اجتيازها:

فعلامة اجتيازه الأول (المُجَاهَدَةُ) يتخفف بها من أسْرِ الحسّ، ليبقى عليه ارتقاء (الأَحْوَالُ وَالْمَقَامَاتُ) فيخفق قلبه بدقات طبول القرب، وتتجلى له أسرار (الْمَحَبَّةُ) فيصير بذلك غريبًا من غرباء الدنيا، قريبًا من أهل الحضرة الإلهية.

وهذه العلامات الثلاث: المجاهدة - الأحوال والمقامات - المحبة.. هي عناوين فصول هذا الباب الذي يضع تصورًا لمراحل الرحلة إلى الله بعد الخروج من الأسْر!

والله الموفق.

الفصل الأول

المجاهدة

مهما تكن صحة حال السالك من حيث البداية، إلا أن وصوله بالسلوك إلى الغاية والنهاية لا يتسنى له، وهو بعد مُثقلٌ ببقيةٍ من آثار النفس. فلا بد من إسقاط تلك الآثار، وتوديع نفسه بالكلية، حتى يكون ـ كما يقول السراج ـ بِلاَ نَفْسٍ[1].

ومن أرق الحكايات الصوفية وأشهرها عند القوم، ما روي عن أبي يزيد البسطامي ـ المتوفى ٢٦١ هـ ـ حين رأى ربه عز وجل في المنام، فسأله: كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَيْكَ؟ فقال: اترك نفسك، وتعال[2].

حقيقة النفس الإنسانية:

للصوفية مفهومٌ خاصٌ للنفس الإنسانية، لا يستند إلى المعاني اللغوية والفلسفية المتعددة للكلمة، وإنما يستمد من جملة أصولٍ شرعيةٍ وردت في الآيات القرآنية والحديث الشريف، مثل قوله تعالى:

---

(١) السرّاج: اللُّمع في التصوف (تحقيق عبد الحليم محمود) ص٤٣٦.

(٢) السهْجلي: النُّور من كلمات أبي طيفور (تحقيق عبد الرحمن بدوي ـ شطحات الصوفية) ص١٢٤ ـ وكان الإمام الجيلاني كثير الاستشهاد بعبارة البسطامي.. انظر: فتوح الغيب ص٢٢٥.

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[1].
﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ..﴾[2].
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ..﴾[3].
﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي..﴾[4].
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ..﴾[5].
﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ..﴾[6].
﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ..﴾[7].

كما استشهد القوم بالعديد من الآثار النبوية القريبة المعنى مما أشارت له الآيات، لينتهوا من ذلك إلى القول بأن مطلق كلمة (النفس) أنما يُراد بها الطبيعة السيئة للنفس الأمارة، تلك النفس التي طُبِعَتْ ـ كما يقول الحكيم الترمذي[8] ـ على الغفلة والشك والشرك والرغبة والرهبة والشهوة والغضب؛ فهي نافرة ناشزة كارهة[9]، تستثقل العبادة والسير في طريق النجاة[10]، وتركن إلى الشهوات وتفرح بالمطالب والراحات فرحًا يظل يجري في العروق

---

(١) سورة النساء، آية ٧٩.

(٢) سورة يوسف، آية ٥٣.

(٣) سورة الرعد، آية ١١.

(٤) سورة طه، آية ٩٦.

(٥) سورة المائدة، آية ٣٠.

(٦) سورة النجم، آية ٢٣.

(٧) سورة البقرة، آية ٥٤.

(٨) الحكيم التِّرمذي: كتاب الرياضة (قام إبراهيم الجمل بجمعه مع كتاب أدب النفس للترمذي، ونشرهما معًا بعنوان من خياله: أسرار مجاهدة النفس ـ مكتبة السلام، بدون تاريخ) ص٢١٢.

(٩) الحارث المُحاسبي: بدء من أناب إلى الله (نشره عبد القادر عطا بعنوان: التوبة ـ دار الاعتصام) ص٢٣.

(١٠) الحارث المُحاسبي: المسائل في أعمال القلوب والجوارح (تحقيق عبد القادر عطا ـ عالم الكتب ١٩٦٩) ص١٤٨.

ـ كما يجري السم ـ حتى يميت القلب[1].

ولهذه النفس جبلاّت وأوصاف يذكرها المكي حين يقول: إن جبلات النفس أربع.. الضعف (وهو مقتضى فطرة التراب) والبخل (مقتضى جبلة الطين) والشهوة (مقتضى الحمأ المسنون) والجهل (مقتضى الصلصال) وأوصافها أيضًا أربعة.. معاني الربوبية (الكبر والعز وحب المرح) وأخلاق الشياطين (الخداع والحيلة والحسد) وطباع البهائم (حب الأكل والشرب والنكاح) وخصال العبيد (الخوف والذلة)[2].. فبهذا تكون النفس هي مصدر كل الفعال المذمومة من المعاصي والأخلاق الرديئة[3]، وهي ـ كما كان البسطامي يدعوها ـ موطن كلّ شرّ[4].

ويفرّق الصوفية بين النفس والروح، فإن كانت النفس هي محل الأوصاف المذمومة، فالروح هي نبع الأخلاق المحمودة[5].. ويفرقون كذلك بينها وبين الصدر والقلب والفؤاد واللُّب[6]، وغير ذلك من اللطائف المودعة في الإنسان، ليتوصلوا من هذه المقارنات والمباحث إلى تقرير حقيقة النفس الإنسانية، وضرورة مجاهداتها والترقي بها من مرتبة النفس الأمارة إلى ما فوقها من مراتب سبع[7].. وهم يحذرون دومًا من ترك العنان لهذه النفس، فإن خطرها

---

(١) الحكيم التِّرمذي: آداب المريدين (تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة ـ مطبعة السعادة) ص٣٨.

(٢) أبو طالب المكي: قوت القلوب، الجزء الأول ص٨٥.

(٣) الهجْويري: كشف المحجوب (ترجمة الدكتورة إسعاد قنديل ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٩٤هـ) ص٢٦٥.

(٤) السَهْجلي: النور من كلمات أبي طيفور ص١٢٤.

(٥) القُشيري: الرسالة القشيرية ص٤٨.

(٦) انظر تفصيل هذه الفروق في (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب) للحكيم الترمذي ـ تحقيق د/ نقولا هير ـ كما يمكن الرجوع إلى كتاب الحكيم الترمذي: الفروق!

(٧) للنفس الإنسانية عند الصوفية سبع مراتب تتنقل فيما بينها، بحسب صفاتها وصدق مجاهدة صاحبها لها! وهذه المراتب هي: النفس الأمارة ـ اللوامة ـ الملهمة ـ المطمئنة ـ الراضية ـ =

يزداد بالتهاون، ويتبدد بالتأديب والمجاهدة. وكما قال البوصيري:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى   حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ[١]

ولم يخرج الإمام الجيلاني بمفهوم النفس عن الإطار الذي رسمه الصوفية، فمطلق كلمة (نفس) حين ترد عنده، فالمراد بها النفس الأمارة بالسوء التي هي أعدى على صاحبها من إبليس ـ كما في الحديث الشريف[٢] ـ فهي عمياءُ خرساءُ جاهلةٌ بربها[٣]، طبعها الركون إلى الرياء والنفاق وباطل الادعاء وحب المدح. ويضيف الإمام إلى أوصافها في الغُنية، فيقول: شرهةٌ مدعيةٌ خارجةٌ عن طاعة الله، متملكةٌ متمنيةٌ، صدقها كذبٌ ودعواها باطلٌ وكل شيء منها غرورٌ.. إن أطلق وثاقها جمحتْ، وإن أعطت سؤلها هلكتْ، وإن غُفل عن محاسبتها أدبرتْ، وإن عُجز عن مخالفتها غرقتْ، وإن اتُّبع هواها تولتْ إلى النار.. ليس لها حقيقةٌ ولا رجوعٌ إلى خيرٍ، وهي رأس البلاء ومعدن الفضيحة وخزانة إبليس ومأوى كل سوء[٤].

وخطر النفس على الإنسان يتزايد، بتحالفها مع جملة أعدائه.. فللإنسان أعداء يتربصون به ليجروه إلى مواطن الهلاك، أعني إبليس وزخرف الدنيا والاهواء.. فأما الأهواء، فلا تهب عليه إلاَّ من نفسه الأمارة. وأما زخرف الدنيا، فالنفس دومًا ميالة إليه. وأما ابليس، فالنفس ـ كما يقول الإمام ـ مستراحه ومسامرته ومحدثته وصديقته[٥]. ولما كانت النفس على هذا النحو،

= المرضية ـ الكاملة (انظر: الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، ص٣٤ وما بعدها).

(١) البوصيري: قصيدة البردة (ضمن كتاب السفينة القادرية) بيت ١٩.

(٢) في الحديث الشريف: «أعدى عدوك نفسك الذي بين جنبيك.. نعوذ بالله من شرور أنفسنا» (أخرجه النسائي في الجمعة/٢٤ ـ وابن ماجه في النكاح/١٩ ـ والدارمي في النكاح/٢٠).

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٦٦.

(٤) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٣٠.

(٥) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٢٨.

كلها ظلمة، فهي عقبة في طريق الزاهدين[1] العارجين إلى مواطن النور، فالظلمة والنور لا يتفقان. ومن هنا تأتت ضرورة الحذر من النفس والعمل على مجاهداتها في طريق الإمام الجيلاني، حتى أنه قضى من حياته أعوامًا، يقطع في علائق نفسه ويعمل على مراقبتها وأخذها بكل شديدٍ حتى تأمن وتُسلس له القياد، ولم يترك في ذلك هولاً إلا وركبه، ودخل في ألف فن حتى يستريح منها[2].. ولأنه يخشى على السالكين من خطر حدة النفس، فهو ينادي في مريديه قائلاً:

وَأُوْصِيكُمُو كَسْرَ النُّفُوسِ فَإِنَّهَا ... مَرَاتِبُ عِزٍّ عِنْدَ أَهْلِ الطَّرِيقَةِ[3]

ضرورة المجاهدة:

لما كانت النفس الإنسانية على هذا النحو، فقد وجب على صاحبها العمل على مجاهدتها لتتخلص من صفاتها المذمومة وتترقى عن مرتبة الأمر بالسوء. ويكون بذلك قد قام بأمر الله الوارد في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[4].

فإذا كانت ضرورة المجاهدة عامة لكل إنسان، حتى لا تقوده نفسه لمتابعة الهوى وزخارف الدنيا ووسوسة الشيطان، فإن هذا الأمر أولى في حق السالك الذي رام الوصول إلى قرب الحق، فالمجاهدة بالنسبة لهذا السالك فَرْضٌ وسُنَّةٌ، لا محالة له عنها؛ وإلى ذلك يشير الإمام الجيلاني بقوله: من أراد سلوك طريق الحق، فليهذب نفسه قبل سلوكه.. فبدوام المجاهدات تنفتح

---

(١) الجيلاني: الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٢) راجع التفصيلات الخاصة بمجاهدات الامام الجيلاني في بدايته، عند الشطنوفي (بهجة الاسرار ص٨٥) والتادفي (قلائد الجواهر ص١١ وما بعدها).

(٣) الجيلاني: قصيدة الوسيلة (ديوان عبد القادر الجيلاني) بيت ٤٥.

(٤) سورة النازعات، الآيتان ٤٠ ـ ٤١.

عيناها وينطبق لسانها[1].

وطريق المجاهدات طويلٌ شاق، فالسالك كلما جاهد نفسه وكسر حدتها وقتلها بسيف المخالفة، أحياها الله مرة أخرى، فتعود لتنازعه وتجنح لأمانيها، فيعود هو إلى المجاهدة مرة بعد مرة، ويظل السالك في هذه المعاناة الطويلة، التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأكبر[2].. فيكتب له ثواب المجاهدين دائمًا[3].

وتتأكد ضرورة المجاهدة وأهمية المداومة عليها عند سلوك الطريق الروحي، خلال الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4]. فالسالك العاكف على أبواب الحق تعالى، يظل يطرق الباب بمجاهداته، حتى يلجه بِهَدْيِ الله إياه وتعريفه سبل الدخول إلى الحضرة الإلهية.. ومن هنا قال الإمام في الغنية: مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بِدَايَتِهِ صَاحِبَ مُجَاهَدَةٍ، فَلَنْ يَجِدَ مِنَ الطَّرِيقَةِ شَيْئًا[5].

ويؤكد الإمام الجيلاني على هذا المعنى في الغوثية حين يجعل من المجاهدة السبيل الأوحد لأنوار المشاهدة، فبعد أن تقرر الغوثية ضرورة المجاهدة (لاَ بُدَّ لِلطَّالِبِينَ مِنَ المُجَاهَدَةِ كَمَا لاَ بُدَّ لَهُمْ مِنِّي) وتبشر أهل المجاهدات (طُوبَى لِعَبْدٍ مَالَ قَلْبُهُ إِلَى الْمُجَاهَدَةِ، وَوَيْلٌ لِعَبْدٍ مَالَ قَلْبُهُ إِلَى الشَّهَوَاتِ) تقول الغوثية: مَنْ حُرِمَ الْمُجَاهَدَةَ، فَلاَ سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْمُشَاهَدَةِ.. فَمَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي بَحْرِ الْمُشَاهَدَةِ، فَعَلَيْهِ بِاخْتِيَارِ الْمُجَاهَدَةِ.. لأَنَّ المُجَاهَدَةَ،

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٦٦.

(٢) الحديث الشريف: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» - يعني جهاد النفس (حديث مشهور).

(٣) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٥٠.

(٤) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

(٥) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٢١.

بِذْرُ المُشَاهَدَةِ[1].

وبعدما أوضح الإمام ضرورة المجاهدة للسالك، باعتبارها سبيله للغوص وراء لآلئ بحر المشاهدة.. فإنه يدلّه على الطرق الآمنة لركوب هذا البحر.

طرق المجاهدة:

من خلال آثار الإمام الجيلاني وسيرته الذاتية، يمكننا أن نستدل على (أساليب جهاد النفس) التي أشار إليها، أو ألزم بها نفسه.. ولأن النفس بطبيعتها خدَّاعة شديدة المكر، فهناك عدة سبل لمجاهدتها وتصفيتها وحملها إلى مراتب الأمن:

(أ) قطع مألوف العادات

تألف النفس بعض العادات وترتاح إليها، حتى يمسي صاحبها أسيرًا للعادة ذليلاً لها، لا يملك الإفاقة من سيطرة ما ألفته النفس، فتتواتر عليه الآفات[2] بهبوط الهمة.. ومن هنا كان باب المجاهدة لا يفتح، إلا بقطع النفس عما لازمته من عادات، وخروج السالك بنفسه من معهود المأكل والمشرب والملبس، والوقوف معها عندما دعا إليه الشرع وما أمر به الله تعالى[3]؛ فيكون المتصرف هو الخالق عز وجل، لا النفس الأمارة بالسوء.. وآنذاك يتحرر السالك الصادق من عبادة العادة، وتصير لديه العبادة عادة.

(ب) المخالفة

إذا كان للعادة أثرها البالغ في ركون النفس إلى الدنيا، فإن للهوى

---

(١) الجيلاني: الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٢) يذكر الإمام الجيلاني في هذا المعنى قول الروزباري: دخلت الآفة من ثلاث، سقم الطبيعة، وملازمة العادة، وفساد الصحبة.. فكلما هاجت في النفس شهوة يتبعها صاحبها (الغنية ٣/١٣٢٣).

(٣) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢٧.

والأماني أثراً أبلغ على النفس. فقد طُبعت النفس على الهوى والضلال، وجُبلت على التمني وحب الشهوات، ولهذا حذرت الآيات القرآنية من متابعة الهوى:

﴿وَلاَ تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ..﴾[1]
﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلأَنْفُسُ..﴾[2]
﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ..﴾[3]

ومخالفة هوى النفس ـ عند الإمام الجيلاني[4] ـ أصل المجاهدة، بل انه يستخدم لفظة أشد من المخالفة، فيقول (الخصومة) مستمداً إياها من قول الله تعالى لداود عليه السلام: يَا دَاوُد أَنَا بُدُّكَ اللاَّزِمُ فَالْزَمْ بُدَّكَ.. العُبُودِيَّةُ أَنْ تَكُوْنَ خِصْمًا عَلَى نَفْسِكَ! يقول الإمام: فبالخصومة هذه، تتحقق عبوديتك لله[5].

وهذا النوع من المجاهدة يكون برفض ما تهواه النفس من أمانٍ، وإلزامها بما يشق عليها.. وليس أشق على النفس الأمارة، من أمور العبادة! فعلى السالك أن يبدد أهواء نفسه وتعلقاتها، بكل شديد من العبادات، حتى تفيق من غيِّها وتلتذ بالطاعات وتسقط عنها مشقة التكاليف الشرعية، حين تتذوق لحقائق الإيمان.. وقد كان الصوفية دومًا يقهرون هوى النفس بإذابتها على مشعل العبادة، فكان الواحد منهم يقوم الليل بطوله عابدًا متهجدًا، فإن أدركته الشيخوخة فلم يقم إلاَّ نصف الليل، يقول: ذَهَبَ نِصْفُ عَمَلِي[6].. ومن ذلك ما استشهد به الإمام الجيلاني حين روى عن السَّري السَّقطي قوله:

---

(١) سورة ص، آية ٢٦.
(٢) سورة النجم، آية ٢٣.
(٣) سورة الكهف، آية ٢٨.
(٤) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٢٦.
(٥) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢٤.
(٦) ابو طالب المكي: قوت القلوب ١/٣٥ وما بعدها.

يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، جِدُّوا قَبْلَ أَنْ تَبْلُغُوا مَبْلَغِي فَتَضْعِفُوا وَتُقَصِّرُوا كَمَا قَصَّرْتُ ـ وكان في هذا الوقت لا يلحقه الشباب في العبادة[١]!

(جـ) الرياضة

يوضح الترمذي الحكيم مفهوم رياضة النفس عند الصوفية، حين يقول إن الرياضة مشتقة في اللغة من (الرض) وهو الكسر.. فالنفس اعتادت اللذة والشهوة والهوى، فإذا فُطمت عن عادتها انكسرت عن الإلحاح والمنازعة والحنين إلى الشهوات[٢]. ويرى بعض أهل الطريق، أن أصول رياضة النفس أربعة: الجوع ـ الصمت ـ السهر ـ الخَلْوة.. وهم يستندون في ذلك إلى عبارة سَهْل التُسْتَري الشهيرة: ما صار الأبدال أبدالاً إلاَّ بأربع خصال، بإخماص البطون، والسهر، والصمت، والاعتزال عن الناس[٣].

وكان الصوفية ـ قبل الإمام الجيلاني ـ قد أفاضوا في الكلام عن هذه الرياضات الروحية الأربع، وأثرها في كسر حدة النفس والارتقاء بها إلى مواطن التهذيب والتصفية[٤]. وقد تعرض الإمام الجيلاني لهذه الرياضات بإشارات عديدة، في كلامه لأهل مجلسه، وفي وصاياه لمريديه، وفي إخباره عن أحواله في زمن البداية والمجاهدة[٥].. وهو يصف السالك الصادق بأنه[٦]: لا يأكل إلاَّ عند الفاقة (الجوع) ولا ينام إلاَّ عند الغلبة (السهر) ولا يتكلم

(١) الجيلاني: الغنية ٢/١٨٢.

(٢) الحكيم الترمذي: أدب النفس (ضمن كتاب: أسرار مجاهدة النفس) ص٦٢، ٦٣.

(٣) وردت هذه العبارة في العديد من أمهات كتب التصوف، انظر على سبيل المثال: قوت القلوب ١/٩٥، احياء علوم الدين ٣/٧٥.

(٤) انظر العرض الذي قام به الزميل محمد عبده أحمد شراقه لهذه الرياضات الروحية عند السراج والمكي والغزالي في رسالته للدكتوراه بعنوان (التصوف السني وركائزه الثلاث عند كل من: أبو نصر السراج، أبو طالب المكي، أبو حامد الغزالي) باشراف أ. د/ محمد علي أبو ريان ـ كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ـ ص٥٥ ـ ٦٦.

(٥) انظر: قلائد الجواهر ص١٣، ٣٦ ـ بهجة الأسرار ص٨٥ وما بعدها.

(٦) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٢٢.

إلاَّ عند الضرورة (الصمت).. ثم يقول الإمام لهذا السالك: وعليك بالخَلْوة عن النفس، ثم بالخَلْوة عن الخلق، ثم بالخَلْوة عن الدنيا، ثم بالخَلْوة عن الآخرة ثم بالخَلْوة عما سوى الله عز وجل(١).

ولم يكتف الإمام الجيلاني بهذه الرياضات الأربع في كلامه عن الجهاد الأكبر، بل أضاف إليها (السياحة) والسفر على التجريد(٢)، واعتبر الصبر على تحصيل دقائق العلوم.. نوعًا من الرياضة الروحية ومجاهدة النفس الجاهلة.

(د) المحاسبة والمراقبة

محاسبة النفس في المفهوم الصوفي، وسيلةٌ لحفظ الحال من التردي في المذمومات، فالسالك يقف دومًا من نفسه موقف الحذر، ويتهمها في كل ما تدعو إليه، كيلا تتسلل في غفلةٍ إلى ضلالاتها، التي سيحاسبه الله حتمًا عليها.. وبعبارة بسيطة، فالسالك يعمل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا عَلَيْهَا»(٣).

ويرى الإمام الجيلاني أن المحاسبة هي طريق حفظ الإرادة، فعلى السالك إن خطر بباله أمر، أو دعته نفسه إلى شيء، ألاَّ يتعجل بالسعي فيما بدا له، فيترفق بترسل العلماء(٤).. ولا يغترّ بأنه من طول ما صام وصلى، قد أمن على نفسه ودينه، بل يرى النفس والهوى دومًا موضع تهمة؛ فإن كل من غفل واستهان، ولم يحاسب نفسه ويحاققها ـ كما يقول الإمام ـ فلن يفلح(٥).

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص٧٥.

(٢) انظر التعريف الصوفي للسياحة والسفر، في تعليقاتنا على ديوان الامام الجيلاني (الكتاب الثالث في هذه المجموعة).

(٣) في هامش تحقيق الغنية ٥٨٣/٢: حديث (حاسبوا أنفسكم..) في الزهد والرقائق ص١٠٣ من قول عمر بأطول منه، وفي هامشه: الحديث أخرجه أبو نعيم من طريق الحميدي عن سفيان عن جعفر بن بركان عن ثابت بن الحجاج عن عمر (٥٢/١).

(٤) الجيلاني: الغنية ١٣٣٢/٣.

(٥) الجيلاني: جلاء الخاطر، ورقة ٣ب.

وبعد المحاسبة تأتي المراقبة.. وهي علم العبد بأن الله مطّلعٌ عليه، مراقبٌ له في كل حركاته وسكناته! فعليه إذن أن يراقب حركات نفسه وسكناتها، حتى لا تجرَّه إلى ما يستحي أن يراه الله فيه. وهذه المراقبة هي (تمام المجاهدة) عند الإمام الجيلاني بل نراه يؤكد على أن الإنسان لو عاش دهراً من العبادة مجتهداً، دون أن يعرف المراقبة، ودون أن يعمل عليها.. لم تنفعه عبادته ومجاهدته لنفسه، وكان على الجهل، ومصيره إلى النار[١].

* * *

وبعد.. فإذا كنا قد انتهينا من استعراض طرق المجاهدة وإصلاح حال النفس عند الإمام الجيلاني، فإنه تتبقى نقطة أخيرة، غاية في الأهمية عند الإمام.. وهي ضرورة المداومة على المجاهدات، وعدم الاغترار بما قد تظهره النفس من خضوع كاذب وطاعة ظاهرة. ولهذا صاح الإمام الجيلاني في كل أهل الطريق قائلاً:

لاَ تَرْفَعُوا عَصَا الْمُجَاهَدَةِ عَنْ نُفُوسِكُمْ[٢].. فَبِدَوَامِ الْمُجَاهَدَاتِ تَنْفَتِحُ عَيْنَاهَا وَيَنْطَبِقُ لِسَانُهَا وَيَزُولُ خَبْلُهَا وَجَهْلُهَا، وَهَذَا مَا يَجِيءُ بِمُجَاهَدَةِ سَاعَةٍ بَلْ يَحْتَاجُ دَوَامَ سَاعَةٍ بَعْدَ سَاعَةٍ وَيَوْمٍ بَعْدَ يَوْمٍ، وَسَنَةٍ بَعْدَ سَنَةٍ[٣].

خصال أهل المجاهدة:

يذكر الإمام الجيلاني في الغُنية[٤] وفُتوح الغيب[٥]، عشر خصال لأهل المجاهدة والمحاسبة وأولي العزم؛ جربوها لأنفسهم، ووصلوا بإقامتها

(١) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٢٧.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٢٨.

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٦٦.

(٤) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٣٣ وما بعدها.

(٥) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٧١ وما بعدها.

وإحكامها إلى المنازل الشريفة:

(١) ترك الحلف بالله إطلاقًا.

(٢) اجتناب الكذب في الجد والهزل.

(٣) عدم إخلاف الوعد.

(٤) الحذر من إيذاء الخلق ولعنهم.

(٥) تحمل ظلم الخلق واجتناب الدعوة عليهم.

(٦) حُسن الظن بأهل القبلة والحذر من الشهادة على أحد منهم بكفرٍ أو نفاق.

(٧) كفُّ الجوارح عن النظر إلى المعاصي والهمِّ إلى شيء منها، لا ظاهرًا ولا باطنًا.

(٨) رفع المؤنة عن الخلق والاستغناء عنهم.

(٩) قطع الطمع عن النفس جملة، والانقطاع إلى الله.

(١٠) التواضع..

وقد تلبث الإمام حينًا عند الخصلة العاشرة، واعتبر التواضع: أصل الطاعات كلها.. وهو مُخ العبادة وغاية شرف الزاهدين الناسكين، فلا شيء أفضل منه[١]. ويقتضي التواضع أن يقطع السالك طريق الكبر وحبال العُجب، فلا يرى في نفسه فضلاً على أحدٍ من الناس، فإن لقي الصغير يقول في نفسه: هذا لم يعص الله وأنا عصيت، وإن لقي الكبير يقول: هذا عبد الله قبلي.. وإن لقي العالم قال: هذا أعطي ما لم أبلغ ونال ما لم أنل.. وإن لقي الجاهل قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم! وحتى لو لقي الكافر، فإنه يحدث نفسه قائلاً: لا أدري فربما يُسلم هذا فيختم له بخير العمل، وربما أكفر أنا فيختم لي بشره[٢]. وبالجملة فالسالك يرى نفسه أقل منزلة من جميع العباد، وتلك هي الفكرة الأساسية عند طائفة الملامتية وأهل الفتوة - أشد أهل

---

(١) الجيلاني: الغنية ١٣٣٥/٣.

(٢) الجيلاني: الغنية ١٣٣٦/٣.

التصوف محاسبة للنفس وإقلالاً من شأنها ـ ولهذا اعتبر الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، إمامنا الجيلاني: مِمَّنْ تَحَقَّقُوا بِالْمَلاَمَتِيَّة[1].. الذين هم أفضل خلق الله، فهم الرجال الذين وصلوا من الولاية أقصى درجاتها، وما فوقهم إلا درجة النبوة[2].

وإذا كان الإمام الجيلاني قد ذكر هذه الخصال العشر في اثنين من أشهر مؤلفاته ـ أعني الغُنية وفُتوح الغيب ـ فإنها قد وردت أيضاً في إحدى مخطوطات دار الكتب منسوبة إلى المُحاسبي[3]! وربما كان الإمام الجيلاني قد أخذها من المُحاسبي، وربما كانت نسبة المخطوطة للحارث المُحاسبي غير صحيحة.. وفي كلا الحالين، فإن هذه الخصال العشر هي سبيل السالك إلى إحكام جداره الروحي، وبها يرتفع بحاله إلى المنازل الشريفة، ويُبرئ نفسه من النوازع الدُّنيا، ويصيِّر قلبه قابلاً لحقائق الطريق التالية.

---

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية (طبعة دار الكتب العربية ـ بدون تحقيق) ٢/ ٢١.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية (بتحقيق د/ عثمان يحيى ـ الهيئة المصرية العامة) السفر الثالث ص١٥٣.

(٣) الحارث المحاسبي: الخصال العشر التي جربها أهل المحاسبة، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٤١٨٤/ تصوف (نسخة مصورة من الأصل المحفوظ بمكتبة برلين).

الأحوال والمقامات

من أشهر المفاهيم التي انفرد بها أهل الطريق الصوفي، مفهوم (الأحوال والمقامات) حتى اننا لا نجد واحدًا من كتب المتون التي تعرّض فيها الأئمة للكلام عن الطريق، إلاّ وفيه فصل مفرد عن الأحوال والمقامات، باعتبارها علامة لا بد للسالك من اجتيازها.. وقبل الدخول في تفاصيل النظرة القادرية للأحوال والمقامات، نتوقف عند المفهوم العام لكليهما.

مفهوم الحال والمقام:

أخذ الصوفية لفظ (المقام) من الآيات القرآنية، حيث ورد بمعنى الموضع والمنزلة[1].. فأشاروا به إلى المواضع والمنازل الروحية التي يتلبث عندها السالك في رحلة عروجه إلى باب الحضرة الإلهية، وما يتحقق به من آداب وأخلاق وأذواق.

---

(١) من الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة (مقام) ما يلي:
- ﴿وما منّا إلاّ له مقامٌ معلومٌ﴾ سورة الصافات، آية ١٦٤.
- ﴿إنّ المتّقينَ في مقامٍ أمين﴾سورة الدخان، آية ٥١.
- ﴿ولِمَنْ خافَ مقامَ ربه جنّتان﴾ سورة الرحمن، آية ٤٦.
- ﴿عسى أن يبعثك ربُّك مقامًا محمودًا﴾ سورة الإسراء، آية ٧٩.
- ﴿قالَ الذين كَفَرُوا للذين آمنوا أيُّ الفريقين خيرٌ مقامًا﴾سورة مريم، آية ٧٣.

والمقامات عند الصوفية عديدة، منها التوكل والصبر والشكر والرضا، وغير ذلك مما يصل إليه السالك بصدق مجاهدته وعلو همته. بل انهم اختلفوا في تعدادها، ففي حين يحدثنا الكَلاَبَاذِي عما يقرب من عشرين مقامًا[1]، وفي حين آخر يحدثنا القُشيري عن اثني عشر مقامًا باعتبارها مدارج أرباب السلوك[2].. ويذكر السرّاج سبعة مقامات[3]، ويزيد المَكي[4] والغزالي[5] فيجعلانها تسعة؛ فإذا كانت المقامات متقاربة العدد عند هؤلاء، فإنها بالقطع متباعدة بين ما ذكره التِّرمذي الحكيم وعبد الوهاب الشَّعْراني، فالأول يجعل المقامات أربعة[6]، والآخر يجعلها تزيد على الأربعين ألفًا[7]!

ويرجع اختلاف الصوفية في تحديد المقامات إلى أمور، منها أن الواحد منهم يتحدث عما عاينه هو من مقامات الطريق، ومنها أن بعضهم يُجمل والبعض يُفصِّل في تلك الدرجات.. وأخيرًا فهناك من لا يفرق بين الأحوال والمقامات، فيذكرهما معًا تحت باب المقامات، على اعتبار أن الحال ـ كما يقول صاحب العوارف ـ قد ينقلب فيصير مقامًا[8].

هذا عن المقامات.. أما الأحوال فهي تلك اللُّمعات النُّورانية التي تُشرف على قلب السالك حينًا، ثم لا تلبث أن تزول مسرعةً، فيأتي الحال بعد الحال، كتجليات متواترةٍ لا تهدأ ولا تفتأ تنتقل بالسالك من مُعاينة لأخرى.. وليس لصاحب الحال تصرفٌ في أحواله، وإنما الأحوال تتصرف فيه بهجومها

---

(١) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١١٠ وما بعدها.

(٢) القشيري: الرسالة القشيرية ص٤٦ وما بعدها.

(٣) السراج: اللمع في التصوف ص٦٥.

(٤) المكي: قوت القلوب، الجزء الأول ص١٧٨.

(٥) الغزالي: احياء علوم الدين، الجزء الرابع ص٢ وما بعدها.

(٦) د/ بركة: الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية (مجمع البحوث الاسلامية) الجزء الثاني ص٤١١.

(٧) الشعراني: اليواقيت والجواهر (البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٩) الجزء الثاني ص٨٨.

(٨) السهروردي: العوارف، ص٢٢٥.

عليه دون مقدمات ولا اجتلاب منه، ومن هنا نرى في كلام الصوفية تعبير: طَوَارِقُ الأَحْوَالِ.

ومطلق كلمة (حال) إذا وردت عند الصوفية، فالمراد منها واحد من المعاني الثلاثة الآتية:

(١) الحال بمعنى ما يتجلى على قلوب السالكين من أنوار الطريق.. ومن ذلك قول الجُنيد: الحال نازلةٌ تنزل بالقلب فلا تدوم[١].

(٢) الحال بمعنى ما يثمر المقام من سلوكٍ وأخلاقٍ وأعمالٍ ظاهرة وباطنة، أعني بالجوارح والقلب.. ومن هنا قال الغزالي: لكلّ مقامٍ علم وحال وفعل[٢].

(٣) الأحوال بمعنى المراتب الروحية الممتدة بين بدء المقام ونهايته، فهي درجات فرعية بين الدرجات الأصلية.. وإلى هذا أشار صاحب التعرُّف بقوله: لكل مقام بدايةٌ ونهايةٌ، وبينهما أحوالٌ متفاوتة[٣].

والأحوال عند أهل الطريق ـ كالمقامات ـ عديدة، ولا تكاد تقع تحت الحصر، فمنها الهيبة والأنس بالله، والقبض والبسط، والطرب والحزن، والشوق والوحشة، والوداد والانزعاج.. وكلها كما نرى: متقابلة!

ونظرًا لتداخل مفهومي الحال والمقام، عني الصوفية ببيان الفرق بينهما، حتى أن السُّهروردي أفرد لذلك فصلاً من العوارف، بدأه بقوله: قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك، فتراءى للبعض الشيء حالاً.. وتراءى للبعض مقامًا[٤].

---

(١) القشيري: الرسالة ص٣٤.

(٢) الغزالي: الإحياء ٤/٦٢.

(٣) الكلاباذي: التعرف ص١٠٦.

(٤) السهروردي: العوارف ص٢٢٥.

ثم وضع الصوفية تفرقة بين الحال والمقام دقيقة كل الدقة، فالحال ما لا يدوم طويلاً والمقام ما يثبت، والحال ما ليس بيد السالك ـ فهو من عين الجود.. بينما المقام يكون ببذل المجهود. والحال سُمِيَ بذلك لتحوله إلى غيره، والمقام مرتبة في السلم الروحي الذي يرتقيه السالك درجة بعد أخرى! فطُرق السماء مقامات، فإذا اجتازها السالك صار قلبه جوهرة سماوية تنعكس عليها لوامع الأحوال.. وأخيرًا، فإن أشهر العبارات الصوفية في الفرق بين الحال والمقام تقول: الأحوال مواهب، والمقامات مكاسب(١).

وكان الكلام في الأحوال والمقامات قد بدأ مع فجر التصوف، فإذا كان السراج يعتبر عليّ بن أبي طالب هو أول من تكلم فيهما، حين سُئِلَ ـ رضي الله عنه ـ عن الإيمان فقال إنه على أربع دعائم (الصبر ـ اليقين ـ العدل ـ الجهاد) ثم وصف لكل دعامة منها عشرة مقامات(٢).. إلا أن هناك شبه إجماع من مؤرخي التصوف، على أن أول من تكلم في الأحوال والمقامات بالمفهوم الصوفي، هو ذو النون المصري ـ المتوفى ٢٤٥ هجرية.

الأحوال والمقامات عند الإمام الجيلاني:

يرى الإمام الجيلاني أن الاحوال والمقامات هي عبادة القلب، فإذا كانت للعامة من العباد أعمال ظاهرة من حيث الجوارح، فإن للخواص أعمالهم الباطنة من حيث القلوب والأسرار(٣).. وذلك لا يعني الاستغناء بأعمال القلوب عن أعمال الجوارح، وإنما تنضاف العبادة الباطنة إلى الظاهرة، فتكتمل الأخيرة

---

(١) الرسالة القشيرية ص٣٥ ـ التعرف ص١٠٤ ـ العوارف ص٢٢٥ ـ الفاظ الصوفية ومعانيها ص١٣٢.. وتشير هذه العبارة الصوفية الشهيرة إلى أن الأحوال مواهبٌ من عند الله، أما المقامات فتكون بكسب العبد وكثرة مجاهدته، هذا على العموم، وعلى خصوص الخصوص: فالكل من عند الله!

(٢) اللمع في التصوف، ص٦٥.

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٣٢.

بالأولى! وإلاَّ، فالإمام لا يفتأ يذكرنا أنه ليس بعد إسقاط ظاهر العبادة غير الزندقة.

ولم يخرج الإمام الجيلاني بمفهوم الأحوال والمقامات عن الإطار الذي وضعه القوم، بيد أن الإمام كانت له وقفات ذوقية عند العديد من حقائق الأحوال والمقامات.. فمن هذه الوقفات قوله بتداخل المقامات، ففي حين يقرر بعض أئمة الطريق، كالقُشيري، أن المقامات مراتب تصاعدية متتالية، لا يرتقي السالك إلى مقام منها ما لم يستوف أحكام المقام السابق عليه[1]؛ يرى الإمام الجيلاني أن أحكام المقامات ينبغي اجتيازها جلةً.. فمقام التوكل يقتضي الصبر، ولا يتم إلاَّ به[2]. يقول الإمام: «إذا أردت أن تكون متوكلاً واثقًا فعليك بالصبر، لأن الصبر في أول أمره اضطرار وفي الثاني اختيار وسكون بلا حركة - يعني توكل وثقة بالله. كذلك فالشكر للتوكل لازم، فلا يتطلع السالك، إلى ما لم يقسمه الله له، بل يظل تحت مجاري الأقدار، راضيًا شاكرًا في توكله[3].

ويشير الإمام إلى تداخل مقامي الصبر والشكر، في موضع الابتلاء؛ فيقول: إذَا جَاءَكَ الدَّاءُ، فَاسْتَقْبِلْهُ بِيَدِ الصَّبْرِ، وَاسْكُنْ حَتَّى يَجِيءَ الدَّوَاءُ، فَإِنْ جَاءَ الدَّوَاءُ فَاسْتَقْبِلْهُ بِيَدِ الشُّكْرِ[4].

ثم يتوقف الإمام عند اختلاف أهل الطريقة في (الرضا) وهل هو من الأحوال أم المقامات؟ فقد ذهب أهل العراق أنه من جلة الأحوال، وأنه نازلةٌ تحل بالقلب - كسائر الأحوال - ثم تحول وتزول.. وذهب صوفية خراسان إلى أن الرضا مقامٌ، يتوصل إليه العبد باكتسابه إذا ما انتهى من

(١) القشيري: الرسالة القشيرية ص٣٤.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٣٥.

(٣) الجيلاني: فتوح الغيب ص٣٨، ٣٩.

(٤) الجيلاني: الفتح الرباني ص٨.

مقام التوكل[1]!

ولم يصرح الإمام بالأصل الذي نبع عنه هذا الخلاف. وهو الأصل الذي نجده عند القُشيري الذي أورد عبارة صوفية شهيرة لأبي عثمان الحيري النيسابوري (المتوفى ٢٩٨ هجرية) يقول فيها: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته ـ يقول القُشيري: أشار إلى دوام الرضا، مع أن الرضا من جملة الأحوال[2].. ويرى الإمام الجيلاني أن الرأي القائل إن الرضا حالٌ والرأي القائل بكونه مقامًا، يمكن الجمع بينهما بأن يُقال: بداية الرضا مُكتسبة للعبد، وهي من المقامات؛ ونهايته من جملة الأحوال، فهي ليست بمكتسبة[3].. وهو نفس الموقف الذي اتخذه القُشيري من قبل بصدد هذا الخلاف[4].

وللإمام الجيلاني موقف من المفاضلة بين الحال والمقام، لم يُشر إليه صراحة، إنما نراه مستترًا بين عباراته. ففي بعض مؤلفات الصوفية، وفي كثير من الدراسات الخاصة بالتصوف، نرى تفضيلاً للمقام على الحال، باعتبار الأحوال سمة لأهل التلوين، بينما المقامات لأصحاب التمكين[5].. فعلى ذلك تكون المقامات أعلى مرتبة من الأحوال! أما الإمام فيرى الحال أعلى، فالمقام عمل العبد، والحال موهبة المعبود. والمقام قيامٌ مع الله بالصدق، والحال يُجزى به الصادقون. والمقام فيه اشتراك بين خواص السالكين وبين عوام المؤمنين، والحال فيه تفرد بصاحبه عن الباقين.. ومن هنا جعل الإمام بداية

---

(١) الجيلاني: الغنية ١٣٥٨/٣.

(٢) القشيري: الرسالة القشيرية ص٣٥.

(٣) الجيلاني: الغنية ١٣٥٩/٣.

(٤) القشيري: الرسالة القشيرية ص٩٧.

(٥) التلوين في الاصطلاح الصوفي، صفة لأهل البداية وأصحاب الأحوال. أما التمكين فهو علامة الواصلين إلى قرب الحق، حيث يستقر القلب.. راجع التناول التفصيلي لهذين اللفظين في (ألفاظ الصوفية ومعانيها ص١٠٣، ١٠٤).

الرضا مقامًا، ونهايته من جلة الأحوال؛ مما يعني ارتفاع الحال عن المقام.

وقد عاين الإمام في طريقه إلى الله كل شديدٍ من الأحوال، فهو يُخبر عن نفسه أن الأحوال كانت تطرقه وتداهم قلبه، فيهيم على وجهه أيامًا في البادية، ويصرخ في قلب ليل الصحراء فيفزع منه قُطّاع الطرق والعَيّارون.. بل ان حالاً قويًا نزل به يومًا، فخرّ مغشيًا عليه حتى ظن الناس أنه فارق الحياة، فأخذوه وغسلوه؛ ثم سُرّي عنه الحال بعد ذلك[1].

والأحوال عند الإمام (قَبْضٌ) كلها، لأنها تنزل على المتجرد دون اجتلاب، ويؤمر في سره بحفظها.. وكل ما يؤمر بحفظه فهو قبض، أما المقامات فكلها (بَسْطٌ) لأنه لا شيء فيها يُؤمر بحفظه سوى كونها موافقة لقدر الله، يقول الإمام: الأحوال معدودة فأمر صاحبها بحفظ حدودها، والقدر غير محدود حتى يحفظ[2].

وكان الإمام الجيلاني قد جمع في الغُنية أصول الأحوال والمقامات في سبعة (المجاهدة - التوكل - حُسن الخلق - الشكر - الصبر - الرضا - الصدق) وجعلها أساس الطريقة[3]، فإذا بنى المريد السالك أمره على غير هذه الأسس.. فلا بد وأن تقع حيطانه[4]! فإن كنا قد أفردنا للمجاهدة الفصل السابق، لأهميتها كعلامة للطريق، ولكثرة ما يرتبط بها من حقائق صوفية؛ فإنه قد بقي علينا النظر إلى بقية ما أشار إليه الإمام من أسس للطريقة:

---

(١) انظر: بهجة الاسرار ص١٩ وما بعدها - خلاصة المفاخر (مخطوط) ورقة ٥أ، ٩٠ب - قلائد الجواهر ص١١ - ١٧.

(٢) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٣١.

(٣) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٢١.

(٤) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٤٤.

التوكل:

يكاد الإمام الجيلاني ـ عند كلامه في التوكل ـ ينقل عن القُشيري نقلاً حرفيًا، مثلما نقل القُشيري بدوره من أبي عبد الرحمن السُّلَمي[١].. فقد ابتدأوا جميعًا كلامهم في التوكل بذكر بعض الأصول الشرعية للتوكل، كقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٢] وقوله ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٣]. والحديث الشريف: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَلاَ يَسْتَرِقُّونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[٤].

ثم ينفرد الإمام الجيلاني ببيان حقيقة التوكل، فيقول إنه: تفويض الأمور إلى الله عزَّ وجلَّ، والتنقي عن ظلمات الاختيار والتدبير.. فيسكن قلب العبد إلى ما قسمه الله، ويطمئن إلى وعد مولاه[٥].

ولا يتعارض التوكل عند الإمام الجيلاني مع السعي والاكتساب، فالكسب والتوكل (شريعة وحقيقة) فلا يستغني أحدهما عن الآخر! ففي البداية يكون الكسب والسعي، ثم يكون الجمع بينهما بالسعي والكسب بالحركة الظاهرة، مع التوكل بالقلب.. وذلك تحقيق الإيمان؛ فالجوارح متحركة في الأسباب، والباطن ساكن لوعد الله.

لكن الإمام يخشى على أهل الأخذ بالأسباب من التعلق بالخلق، والاتكال على الدرهم والدينار، واعتقادهم أن رزقهم من الأسباب.. فهذا عند الإمام الجيلاني شركٌ خفيٌّ! فإن توكلوا على الأسباب ونسوا الرزَّاق، واطمئنوا..

---

(١) قارن: المقدمة في التصوف للسُّلَمي ص٤٠/ الرسالة القُشيرية ص٨٢/ الغُنية ١٣٣٦/٣.
(٢) سورة الطلاق، آية ٣.
(٣) سورة المائدة، آية ٢٣.
(٤) متفق عليه من حديث ابن عباس.
(٥) الجيلاني: الغنية ١٣٣٧/٣.

فذلك شِركٌ أخفى من الأول(١)! وقد استشهد الإمام في الكسب والتوكل بحال سُفيان الثَّوري، فقد كان في بدايته وطلبه للعلم يكتسب ويدّخر المال، حتى إذا حصَّل العلم وعرف الحق عزَّ وجلَّ، انفق كل ما معه على الفقراء في يوم واحدٍ، وقال قولته المعروفة: لَوْ أَنَّ السَّمَاءَ حَدِيدٌ لاَ تُمْطِرُ، والأَرْضَ صَخْرٌ لاَ تُنْبِتُ، وَاهْتَمَمْتُ بِرِزْقِي، لَقُلْتُ إِنِّي كَافِرٌ(٢).

وبهذا يقرر الإمام الجيلاني المبدأ الصوفي الذي استقر منذ وقت مبكر بقول الجنيد: مَنْ طَعَنَ فِي الْكَسْبِ فَقَدْ طَعَنَ فِي السُّنَّةِ، وَمَنْ أَنْكَرَ التَّوَكُّلَ فَقَدْ أَنْكَرَ الإِيمَانَ(٣).

ونعود للتوكل كمقامٍ صوفي، وواحدٍ من الأُسس السبعة للطريقة، فنرى الإمام الجيلاني يورد قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ★ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾(٤). ثم يقول: هذه الآية غلقت باب الأغنياء والملوك، وفتحت باب التوكل.. فمن يتقيه، يجازيه بأن يجعل له مخرجًا مما ضاق به الناس، ويأتيه الفرج في جميع الأحوال(٥).

ومقام التوكل عند الإمام الجيلاني يشتمل درجات ثلاث(٦)، هي على التفصيل:

(أ) التوكل.

وهو بداية المقام وصفة العوام من المؤمنين، حيث يكون السكون إلى وعد الله، مع إسقاط التدبير، فصاحب هذه الدرجة إذا أُعطي شكر، وإذا مُنع

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص٣٧، ٣٨.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٩٩.

(٣) هي عبارة شهيرة لأبي القاسم الجُنيد، ذكرها معظم من ترجموا له.. وقد ذكرها الإمام الجيلاني في الغنية (المجلد الثالث ص١٣٤٤) بوصفها مبدئًا صوفيًا، دون إشارة للجنيد!

(٤) سورة الطلاق، الآيتان ٢-٣.

(٥) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٤٤.

(٦) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٣٧ وما بعدها.

صبر. وذلك كما روي عن أنس، أن رجلاً جاء على ناقة وقال للنبي عليه الصلاة والسلام: أَدَعُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قال: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»(١).

(ب) التسليم

وهو الدرجة الوسطى، وصفة الخواص والأولياء، حيث يكتفي العبد بعلم الله فيه، ويكون المنع والعطاء عنده صِنوان! فذلك حال إبراهيم عليه السلام حين أوشك أن يلقى في نار النمرود، فسأله جبريل: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قال: أَمَّا إِلَيْكَ، فَلاَ..

(جـ) التفويض

وهو نهاية درجات مقام التوكل، وصفة خصوص الخصوص من أهل التوحيد، وحال النبي صلى الله عليه وسلم. وفي التفويض يكون المنع مع الشكر، أحبُّ إلى العبد مما سواه؛ وذلك هو الرضا التام بحكم الله، وغاية التوكل المُشار إليه بقول النبي: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتعود بطانًا»(٢).

وبالجملة.. فلا يكون التوكل، حتى يكون العبد بين يدي ربه كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد، فليس للمتوكل أن يسأل أو يريد أو يرد أو يحبس بيده شيئًا(٣). وحينما سُئِلَ أبو الحسن علي بن الهيتي عن طريق الإمام الجيلاني، أجاب بقوله: كان طريقه التفويض والموافقة، مع التبري من الحول والقوة(٤).

---

(١) رواه الترمذي في القيامة/ ٦٠ ـ وهو في جامع السيوطي الصغير ١/ ٧٨.

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد/ ١٤ ـ والترمذي في الزهد/ ٣٣ ـ وابن حنبل في المسند ١/ ٣٠، ٥٣.

(٣) الجيلاني الغنية ٣/ ١٣٣٨.

(٤) بهجة الأسرار ص٨٤ ـ قلائد الجواهر ص٩١.

حُسن الخلق:

برغم اهتمام الصوفية بالأدب وحسن الخلق في الطريق الصوفي، وإفرادهم فصولاً لذلك في مؤلفاتهم - خاصة مَنْ تصدروا لتربية المريدين - إلا أننا لم نَرَ منهم من اعتبر حسن الخلق واحدًا من مقامات الطريق وأحواله.. ومن هنا نقول إن الأسس السبعة للطريقة عند الإمام الجيلاني، ومن بينها حسن الخلق، إنما هي جماع أحوال الطريق ومقاماته، بالإضافة إلى مقتضيات السلوك.

ويرى الإمام أن الأصل في حُسن الخلق، قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]. وقوله صلّى الله عليه وسلم حين سُئل عن أفضل المؤمنين فقال: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[2]..

وحُسن الخلق عند الإمام، أفضل مناقب العبد[3]، ولا يتركه إلا منافق صاحب هوى[4].. وهو فريضة في حق العارف، كالتوبة في حق الجاهل[5]. ويتحقق العبد بحسن الخلق، حين يأخذ كل أموره بالصدق، حين لا يؤثر فيه جفاء الخلق بعد تطلعه للخالق[6].

ويقتضي حُسن الخلق سقوط الأخلاق المذمومة كالحسد والرياء والحقد، والاتصاف بآداب التواضع والحلم والمحبة والإيثار.. وله من بعد ذلك جانبان، الأول مع الخالق، والآخر مع الخَلْق. فحسن الخلق مع الله تعالى،

---

(١) سورة القلم، آية ٤.

(٢) رواه ابن ماجه وابن عساكر والحاكم في المستدرك - عن ابن عمر - وذكره السيوطي في الجامع الصغير (برقم ١٢٠٣) وفي جمع الجوامع (برقم ١٦٦/ ٣٨٣٣) بلفظ: أفضل المؤمنين أحسنهم خلقًا.. ورواه بلفظ قريب، ابو داود والترمذي والنسائي والغزالي والعراقي من حديث ابي هريرة.

(٣) الغنية ٣/١٣٤٥ - بهجة الأسرار ص١٢٣ - قلائد الجواهر ص٩١.

(٤) بهجة الاسرار ص١٢٣ - قلائد الجواهر ص٩١.

(٥) الفتح الرباني ص٢٤٥.

(٦) بهجة الاسرار ص١٢٣ - قلائد الجواهر ص٩١.

القيام بطاعته من غير انتظار الثواب ـ وهو ما يسمى عند الصوفي بسقوط رؤية الأعمال ـ ثم تسليم الأمور إلى الله دون منازعة، وتوحيده وتصديق وعده من غير تهمة أو شك، واستصغار العبد ما منه، واستعظامه لما عليه.

ومن هذا الجانب الرأسيّ من حُسن الخلق، يُستمد الجانب الأفقيّ ـ أعني حُسن الخُلُق مع الخَلْق.. فيقوم معهم بكل خُلُقٍ حَسنٍ، ويتخلق في معاملته لهم بالأخلاق النبوية الكريمة، ويصفح عن عثرات الآخرين فلا يُخاصِم ولا يُخاصَم، ويتقبل أذى الناس ويدفعهم بالتي هي أحسن.. وعندما يتعرض الإمام الجيلاني لحُسن الخُلُق مع الناس، نراه يستشهد بأحوال وأقوال بعض أهل الفتوة[1]، أمثال أويس القَرَني وإبراهيم بن أدهم وحاتم الأصم[2].. وسيد الفتيان: عليّ بن أبي طالب[3].

ويربط الإمام الجيلاني بين حُسن الخلق كعلامة من علامات الطريق، وبين معرفة السالك لربه ـ كما يربط بين سوء الأدب وبين الجهل بالله ـ فيرى أن أقرب العباد من الله، أحسنهم خُلقًا؛ ومن هنا أشار الإمام إلى أن حسن الخلق (فريضة في حق العارف) ومن هنا قال: أولياء الله عز وجل متأدبون بين يديه، فلا يتحركون حركة ولا يخطون خطوة إلاّ بإذنٍ صريحٍ منه لقلوبهم، فهم قيامٌ مع مُقلّب القلوب والأبصار، لا قرار لهم مع ربّهم حتّى

(١) برغم ما يُعرف عن أهل الفتوة والملامتية من تعمد إخفاء الأحوال، إلا أن ذلك لا يتعارض عندهم مع حسن الخلق، يقول احد مشايخهم: إذا خشعت الأسرار بالتجلي الإلهي، ورثت الظواهر حسن الأدب (رسالة الملامتية للسلمي ص٨٦).

(٢) لقب عبد الرحمن حاتم بن عنوان بن يوسف ـ المتوفى ٢٣٧ هجرية ـ بلقب الأصم، لأن أمرأة كانت تسأله في امر، فخرج منها صوت كريه.. فلم يحرك هو ساكنًا، حتى إذا انتهت قال لها: اعيدي ما قلت بصوت عال، فإن بأذني صمم!

(٣) صار علي بن أبي طالب رأسا للفتوة وعلمًا عليها، لما اتصف به من سخاء ومروءة وشجاعة وإيثار، ولهذا أسند أهل الفتوة أنفسهم إليه، وسموه: سيد الفتيان (الصلة بين التصوف والتشيع ص٤٩٢) وفي الحديث الشريف الذي يعد أصلاً لسيادة عليّ بن أبي طالب في مقام الفتوة، يقول صلى الله عليه وسلم: لاَ فَتَىً إلاّ عَليّ.

يلقوه بقلوبهم في الدنيا، وبأجسادهم في الآخرة[1].

ولا يقتصر الأدب وحسن الخلق عند الإمام الجيلاني على مرحلةٍ خاصة من الطريق الصوفي، بل هو سِمَةٌ للسالكين في كل المراحل، بل وسِمَةٌ للمؤمنين على الإطلاق؛ فكل وقت ليس فيه أدب، فهو عند الإمام (مَقْتٌ) وصاحبه ممقوت من الخلق والخالق[2]..

وأخيرًا، فإن كان الأدب ومحاسن الأخلاق غاية من غايات الرسالة المحمدية، كما يظهر من قوله صلى الله عليه وسلم «بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[3] فإن التصوف والطريق الصوفي ـ كما تقول عبارة رويم البغدادي الشهيرة ـ كله خُلُق.. فمن زاد في الخُلُق، زاد في الصفاء.

الشكر:

وردت أصول الشكر في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.. وهو عند الإمام الجيلاني، الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع له، والثناء على المحسن بذكر إحسانه[4].. وهذا مطلق الشكر؛ أما الشكر لله فيتضمن عند الإمام الجيلاني أمرين:

الأول: الاستعانة بالنعم على الطاعات، ومواساة الفقراء.

الثاني: الاعتراف بالنعمة والشكر عليها لمُنزلها، وهو الحقُّ عزَّ وجلَّ[5].

وشكر المولى عز وجل يكون ظاهرًا وباطنًا، فهو باللسان والجوارح والقلب.. فشكر اللسان «الاعتراف بنعم الله»، وشكر الجوارح «الحركة في

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٨.

(٢) المرجع السابق ص٢٤٥.

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (باب حسن الخلق/ ٨) وابن حنبل في المسند ٢/٢٨١ ـ وانظر الأحاديث الواردة في هذا المعنى في: المعجم المفهرس ٢/٧٣.

(٤) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٤٩.

(٥) الجيلاني: الفتح الرباني ص٧٨.

طاعة الله » أما شكر القلب فهو الاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد، بأن جميع ما بالعبد من النعم والمنافع الظاهرة والباطنة من الله عزَّ وجلَّ لا من غيره. ويضرب الإمام الجيلاني مثلاً فيقول: لا تنظر إلى الغلام الحمَّال للهدية، إنما أنظر إلى الأستاذ المنفذ والمُنعم بها! فمن نظر إلى الظاهر والسبب فهو الجاهل الناقص القاصر العقل.. وإنما سمي العاقل عاقلاً، لنظره في العواقب[1].

ثم يُفرّق الإمام من خلال عبارات الصوفيين السابقين عليه بين الشاكر والشكور. فالشاكر من العباد من يشكر على الموجود من النعم، والشكور يشكر على المفقود! الشاكر يشكر على النفع والعطاء والشكور يشكر على المنع والبلاء[2].. وهنا نلمح تداخل مقامي الشكر والرضا عند الإمام الجيلاني.

ويرى الإمام أن قوله تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[3] إشارة إلى شكر الخواص من أهل الله، فإذا كان شكر العامة على ظاهر النعم، فإن شكر الخواص يكون على ما يرد ويتجلى بقلوبهم من المعاني اللّدنية. وعن شكر الخواص يورد الإمام الجيلاني الحكاية التي سبقه العديد من أئمة التصوف في الاستشهاد بها؛ تقول الحكاية:

سُئل شيخ طاعن في السن عن حاله، فقال: كنتُ في ابتداء عمري أهوى ابنة عمٍّ لي، وكانت تهواني، فتزوجت بها حتى إذا كانت ليلة الزفاف قلتُ لها (تعالي نُحيي هذه الليلة شكراً لله على ما جمعنا) فصلينا وشغلتنا حلاوة الصلاة، ولم يفرغ أحدنا إلى الآخر.. فلما كانت الليلة الثانية بتنا كذلك، فمنذ سنين ونحن على تلك الحالة كل ليلة. وكانت زوجته معه فسألها: أليس كذلك؟ قالت: هو كما قال الشيخ.

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٣٦.
(٢) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٥٠ وما بعدها.
(٣) سورة سبأ، آية ١٣.

وكانت هذه الحكاية قد وردت عند السراج والقشيري والغزالي والجيلاني[1]، فأثارت نفوس المعترضين على التصوف، وقاسوا أمرها بالقياس القشري. حتى أراد الشيخ إبراهيم حلمي القادري الفصل في القضية بتقريره أن الرجل قد شغلته طاعة ربه عن ملاذ نفسه، وكان من فضل الله عليه أن وافقته زوجته راضيةً بهذا المقام من الشكر ـ فلو كانت متضررة، ما بقيت معه هذه السنوات ـ وذلك حقُّها، لا حقَّ الفضوليّ الذي يشن الغارات على الصوفية باعتراضه، لا لشيء، إلاَّ لأنه لم يتذوق ما لأهل الله من إيثار الطاعات على الشهوات، وما دعا إليه طريقهم إلى الله[2].. والحقيقة فإن رأي الشيخ إبراهيم حلمي القادري إنما يمكن الاستدلال عليه بظاهر الشرع من قول النبي صلى الله عليه وسلم «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ الطِّيْبُ وَالنِّسَاء، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ»[3] فما بال هذا الشيخ الشاكر وزوجه، إن كانا قد فضلا (قُرَّة العَيْن) على ما هو محبب إلى نفوس البشر! إلاَّ أن هذا المقام، يظل دومًا: وقفًا على نوادر الخواص من عباد الله، وليس حالاً مُشاعًا بين الكل.. ولا يمكن ـ بالتالي ـ الاستناد إلى مثل هذه الأحوال النادرة في الطريق الصوفي، وإلا انهدمت القاعدة الشرعية التي تطالب الإنسان بعمارة الأرض. ونعود للشكر عند الإمام الجيلاني، فنراه يشير إلى شكرٍ خاص، هو (الشكر على الشكر) وذلك حين يشكر العبد ربه، على ما وفقه إليه حين جعله من الشاكرين. فلا يزال هذا العبد في مزيد شهودٍ لنعم مولاه، مصداقًا لقوله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيْدَنَّكُمْ﴾[4].

---

(١) انظر: اللمع ص٣٠٧ ـ الرسالة القشيرية ص٩٠ ـ إحياء علوم الدين ١٤١/٤ الغُنية ١٣٥٣/٣.

(٢) إبراهيم حلمي: مدارج الحقيقة (الإسكندرية ١٣٨١هـ) ص٥٤.

(٣) أخرجه النسائي في النساء/١ ـ وابن حنبل في المسند ١٢٧/٣، ١٩٩، ٢٨٥.

(٤) سورة إبراهيم، آية ٧.

الصبر:

من أصول الصبر التي ذكرها الإمام الجيلاني، قوله تعالى ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾[1]. وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] حيث يرى الإمام أن قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أي لا تتركوا الصبر، لأن الخير والسلامة فيه - كما روي الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد[3].

وحقيقة الصبر كما يراها الإمام الجيلاني، تتمثل في الوقوف مع البلاء بحُسن الأدب، والثبات مع الله عز وجل، وتلقي مرّ قضائه بالرحب والسعة على أحكام الكتاب والسنة[4].. والصبر: «رأسُ كل خيرٍ، وأساسٌ للتوكل والإحسان والرضا والموافقة»[5].

وكان الإمام كثيرًا ما يرصّع كلامه بالحديث الشريف «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى» يشير بذلك إلى سكون القلب حين تتنزل عليه الابتلاءات.. وهذا يقودنا إلى بحث مفهوم الابتلاء عند الإمام الجيلاني، لارتباطه بموضوع الصبر.

يرى الإمام أن البلاء يقوي القلب واليقين، ويضعف النفس والهوى، ويحقق الإيمان والصبر[6]. ولا يخرج المُبتلي عن ثلاثة أحوال، الأول أن يكون ابتلاء الله له عقوبة ومقابلة لمعصية اقترفها - وعلامته عدم الصبر والشكوى إلى الخليقة - والثاني ابتلاء للتكفير والامتحان، وعلامته الصبر الجميل دون

---

(١) سورة النحل، آية ١٢٧.
(٢) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.
(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس، والبيهقي في شعب الإيمان، والسيوطي في الجامع الصغير.. وهو ليس بحديثٍ نبويٍّ، وإنما من كلام علي بن أبي طالب.
(٤) بهجة الأسرار ص١٢٣ - قلائد الجواهر ص٩١.
(٥) الجيلاني: فتوح الغيب ص٧٤ - الفتح الرباني ص١٣٥.
(٦) الجيلاني: فتوح الغيب ص٥٣.

جزع ولا شكوى.. أما الابتلاء الثالث، فيكون لرفع الدرجات؛ وذلك ما يدخل في باب الرضا والمحبة، اللذين سنعرض لهما فيما بعد.

وللصبر ـ كسائر المقامات ـ مراتب ودرجات، فأولها الصبر (في الله) عند نزول البليّة، ثم الصبر (لله) عند الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، ثم الصبر (مع الله) بالثبات على أحكام الكتاب والسنة وتلقي البلاء بالرحب والسعة؛ وأخيراً، هناك الصبر (عن الله) وهو الأشق! ويروي الإمام عن الشِبْلِيّ أن رجلاً سأله: أَيُّ صَبْرٍ أَشَدُّ عَلَى الصَّابِرِينَ؟ قال الشِبْلِي: الصَّبْرُ فِي اللهِ. قال: لا، فقال: الصَّبْرُ للهِ. قال لا، فقال: الصَّبْرُ مَعَ اللهِ. قال: لا، فتعجب الشِبْلي وقال: ويحك فما هو؟ قال الرجل: الصَّبْرُ عَنِ اللهِ.. فصرخ الشبلي صرخة كادت تتلف روحه.

والصبر عن الله، يكون حين تحتجب أنوار الذات الإلهية فلا تتجلى لقلوب المتجردين من أهل الطريق، فيمسي الصوفي في وحشةٍ وقبضٍ لا نظير لها. وقد أورد الصوفية هذا الحوار الذي صرخ فيه الشبلي، للدلالة على هذه الدرجة العالية من الصبر[1]؛ بل وانشدوا في هذا الصبر شعراً، منه قولهم:

الصَّبْرُ يَجْمُلُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا ... إِلاَّ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لاَ يَجْمُلُ[2]

وقولهم:

الصَّبْرُ عَنْكَ فَمَذْمُومٌ عَوَاقِبُهُ ... وَالصَّبْرُ فِي سَائِرِ الأَشْيَاءِ مَحْمُودُ[3]

وبعد.. فأهل الصبر لهم عند الإمام علامات، منها السكون تحت قضاء الله

(١) تكاد حكاية الشبلي هذه ترد في كل المؤلفات التي تحدثت عن الصبر، فقد ذكرها السَّرَّاج في اللُّمع والقُشيري في الرسالة والسُّلَمي في المقدمة والهجويري في كشف المحجوب وأبو نعيم في الحلية والمكي في القُوت والغزالي في الإحياء والجيلاني في الغنية والسُّهروردي في عوارف المعارف (راجع باب الصبر في هذه المؤلفات).

(٢) الجيلاني: الغنية ١٣٥٥/٣.

(٣) السلمي: المقدمة في التصوف ص٣١.

بعباده، وعدم اتهام الرب فيما أنزل من البلايا، والوقوف معه تعالى على بساط الأدب، ثم اتباع أحكام الشرع في سائر الأحوال.. وقبل ذلك كله، فأهم علامة لصدق الصبر، هي (عدم الشكوى) يقول الإمام: كَيْفَ يُشْتَكَى مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَخَيْرُ الْحَاكِمِينَ، احْذَرِ الشَّكْوَى جِدًّا، وَلَوْ قُطِّعْتَ وَقُرِضَ لَحْمُكَ بِالْمَقَارِيضِ[١].

وكيف يكون الصابر صادقًا في صبره، إذا ما لهج لسانه بالشكوى للخلق من الخالق، وقد قال تعالى ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[٢] وقد تحقق الصوفية بهذا المقام، وكانت لهم في ترك الشكوى والصبر على البلاء أقدام صدق تحير الألباب، فها هو الصوفي أبو بكر العياشي ينزل الماء بإحدى عينيه، فيظل عشرين سنة؛ لا يُعلم به أهله[٣].

الرضا:

يشير الإمام الجيلاني إلى أصول الرضا، فيورد من الآيات القرآنية قوله تعالى ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٤]. وقوله تعالى ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾[٥]. ويذكر من الحديث الشريف: «مَنْ ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، رَضِيَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَبًّا»[٦].

ويرى الإمام الجيلاني أن الرضا - كمقامٍ صوفيٍّ - أعلى من الصبر والشكر، فالمؤمن يصبر على أمر الله، والصادق يشكر على قضائه، أما الصديق

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص٤٤، ٤٥.

(٢) سورة الانعام، آية ١٧ - سورة يونس، آية ١٠٧.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/٣٩٨.

(٤) سورة المائدة، آية ١١٩ - سورة التوبة، آية ١٠٠ - سورة المجادلة، آية ٢٢ - سورة البينة، آية ٨.

(٥) سورة التوبة، آية ٢١.

(٦) حديث صحيح؛ رواه ابن حنبل في المسند، ومسلم والترمذي في الصحيحين عن العباس بن عبد المطلب.

فإنه يرضى. وحقيقه الرضا كما يذكرها الإمام: ترك المُنازعة للقدر، وسرور القلب بمرّ القضاء، وترك الاختيار مع المولى عزَّ وجلَّ. فأهل مقام الرضا هم الذين: قطعوا عن قلوبهم الاختيار، فلا يختارون شيئًا تريده أنفسهم، ولا شيئًا مما يريدون به الله، فلا يسألونه تعالى، ولا يتطلعون للحكم قبل نزوله، فإذا وقع حكم من الله من حيث لا يتشوقون إليه، رضوا به وأحبوه وسروا به[1]. وغفلة القلب عن الرضا تجر به إلى ويلات، فأول هذه الويلات (الخروج من العبودية لله) فكما يقول الحديث القدسي «مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي.. فَلْيَعْبُدْ رَبًّا سِوَاي»[2] أما الويل الثاني فهو منازعة القدر وموافقة الهوى، تلك المنازعة التي تطول بها شقاوة العبد وتعبه، ثم لا ينال بعدها إلا ما قُسم له.. فالراحة في الرضا، والتعب والنصب في موافقة الهوى، وما الرضا وموافقة القضاء إلاّ مخالفة الهوى، يقول الإمام: فَلاَ كَانَ الْهَوَى، وَإِذَا كَانَ.. فَلاَ كُنَّا[3].

كذلك فإن الغفلة عن الرضا توقع بالقلب في ظلمة الطمع، فيصير القلب فارغًا كحروف الطمع ـ الطاء والميم والعين ـ كلها فارغة[4]، ولا شيء أضرّ على العبد ولا أظلم لقلوب السالكين ولا أشد تشتيتًا لهمّهم من الطمع، فأصله الغفلة، وفروعه الرياء والسمعة والتصنع وحب إقامة الجاه[5]. ولا يقتصر مفهوم الطمع عند الإمام الجيلاني على الطمع الحقير في أمور الدنيا، بل يتجاوزه إلى الطمع في الجنة! فكما تقول عبارة الدّاراني، التي استشهد بها الإمام: الرضا أن لا تسأل الجنة من الله، ولا تستعيذ من النار[6].

---

(١) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٦٢.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٣٧.

(٣) الجيلاني: الغنية ص١٣٥٨.

(٤) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٢٦.

(٥) الجيلاني: الغنية ص١٣٦٤.

(٦) تشير هذه العبارة الى رضا الواصلين الذين لا يشغلهم إلا الله عز وجل، فكل ما يقضي به المولى عليهم يكون فيه رضاهم.

وويلٌ آخر لمن ترك الرضا، يتمثل في الحسد وتمني ما قُسِمَ للغير.. وهذا عند الإمام من شر الأمور؛ فالحسد بئس القرين، وهو الذي خرَّب بيت أبليس وأهلكه وجعله ملعون الحق عزَّ وجلَّ. ويتساءل الإمام: كيف يمكن للعاقل أن يحسد، وقد سمع قوله تعالى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾[1] وقوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ﴾[2] وقول النبي: «الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ»[3] فالحاسد معادي الله تعالى ومنازعه في أحكامه وأقسامه[4].. وينتهي الإمام الجيلاني إلى أن الحسد مرادفٌ للظلم والجهل[5].

وبذلك فإن صاحب الرضا بمنأى عن هذه الويلات، وله من بعد ذلك رقائق وعلامات؛ فهو على الدوام قانعٌ بما سبق له في القدر، لا يتودد إلى الخلق ويتذلل لهم لاكتفائه بما قسمه الله له، ولعلمه اليقيني بنفوذ أمر الله. وهو يحسّ بالبلاء فلا يعترض على الحكم والقضاء، بل يفرح بالمصيبة كما يفرح بالنعمة لأن الكُلَّ من عند الله اللطيف الخبير. فإذا أقامه الله في حال لا يتمنى غيره، ولا يلتفت لسواه؛ فإن كان نعمة شَكَرَ وصَبَرَ، وان كانت بلية صَبَرَ وشَكَرَ.. وقام مع الحالين على قدم الرضا، لعلمه أن الرضا عن الله ترحابٌ بالقدر خيره وشره، وثباتٌ قلبيٌّ عند نزول سهام القدر، هذه السهام التي تُصيب خدشًا لا قتلاً.. وما كان في الله تلفه، فإن على الله خلفه[6]!

وأخيرًا فالصدق في الرضا دوامٌ للمحبة؛ فللرضا ثلاث علامات جامعة، ذكرها ذو النون المصري وأوردها الإمام في الغُنية.. وهذه العلامات: ترك

(١) سورة الزخرف، آية ٣٢.
(٢) سورة النساء، آية ٥٤.
(٣) أخرجه ابن ماجة في الزهد/ ٢٢ ـ الدارمي في الأدب/ ٤٤.
(٤) الجيلاني: جلاء الخاطر (مخطوط) ورقة ٢ب.
(٥) الجيلاني: فتوح الغيب ص٩٢، ٩٣.
(٦) فتوح ص٩٥ ـ بهجة الاسرار ص٨٨.

الاختيار قبل القضاء وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان القلب في حشو البلاء[1]. يقول الإمام لأهل الطريق: أطلبوا من الله الرضا، فهو الراحة الكبرى والجنة العالية وباب الله الأكبر وعلّة محبة الله لعبده المؤمن، لا تشتغلوا بطلب الحظوظ، والسعي إلى الأقسام ما قُسِمَ منها وما لم يُقْسَمْ، فإن كانت لم تقسم فالاشتغال بطلبها حمق ورعونة وهو من أشق العقوبات.. وإن كانت مقسومة فالاشتغال بها شره وحرص وشرك. كل اشتغال بغير الله شرك! وطالب الحظ ليس بصادق في محبته[2].

الصدق

وهو تمام الأسس السبعة التي تقوم عليها الطريقة عند الإمام الجيلاني، والأصل فيه قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[3]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[4].

والصدق عند الإمام الجيلاني عماد كل أمر وتمامه، وهو ثاني درجة بعد النبوة[5]، وفرض الله الدائم الذي يقبل به الفرض المؤقت[6]، وسيف الله في أرضه[7]، وصحة التوحيد وعلامة المحبة التي تستهين بالموت.. كما قال تعالى:

---

(١) الجيلاني: الغنية ص١٣٦٠.

(٢) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٢١.

(٣) سورة التوبة، آية ١١٩.

(٤) رواه البخاري في الأدب/ ٦٩ ـ ومسلم في البر/ ١٠٢، ١٠٤ ـ وأبو داود في الأدب/ ٨٠ ـ والترمذي في البر/ ٤٦ ـ وابن حنبل في المسند ١/٢٨٤، ٢٩٣، ٤٢٤، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٧، ٤٤٠.

(٥) يستشهد الإمام على ذلك بقوله تعالى ﴿**فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين**﴾.. سورة النساء، آية ٦٩.

(٦) الجيلاني: الغنية ٣/١٣٦٨.

(٧) الجيلاني: الفتح الرباني ص٨١.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

والصّادق هو الاسم اللازم من الصدق، والصّدّيق هو المبالغة منه إذا ما صار الصدق دأب العبد وسجيته، فإذا كان الصادق هو من يصدق في أقواله، فالصديق من صدق في أقواله وأفعاله وأحواله.. فالصدق في الأقوال موافقة الضمير للقول في وقته، والصدق في الأفعال إقامتها للحق تعالى ونسيان رؤيتها، والصدق في الأحوال قيامها بخاطر الحق[2]. فمن قام عند هذه الشروط، فقد قام مع الله على قدم الصّدّيقيّة.

ويرتبط الصدق بالإخلاص، فالإخلاص هو لُب كل قولٍ وفعلٍ، فإن خلوا منه كانا قشرًا بلا لُب؛ ولا يصلح القشر إلاَّ للنار[3]. وقد أشار الإمام إلى ارتباط الصدق والإخلاص، حين توجه للسالك قائلا: عليك بالصدق والإخلاص، فلولاهما لم يُتقرب بشبرٍ إلى الله تعالى.. لو ضُرِبَ حجر قلبك، بعصا موسى الإخلاص، لتفجرت منه ينابيع الحكمة. ثم أنشد:

وَلَمَّا صَدَقْنَا شِيلَت الحُجْبُ بَيْنَنَـا   وَلَوْلاَ كَلاَمُ الصّدْقِ مَا شِيلَت الحُجْبُ[4]

وإذا كان الصدق شرطًا لسلوك الطريق، بل هو زاد السفر لهذا الطريق، فإن قيام العبد به لا يكون إلاَّ عند سقوط رؤية الخلق بالكلية، فكل من أظهر أعماله للخلق ـ كما يقول الإمام ـ فلا عمل له! وكل من أثقل قلبه بمطالب الدنيا، فلا سلوك له.. وكل من بقيت لنفسه عليه أثر، فلا وصول له.. فإن قام العبد بمقتضيات الصدق، كان في مقعد الصدق عند المليك المقتدر.

---

(١) سورة البقرة، آية ٩٤ ـ سورة الجمعة، آية ٦.
(٢) بهجة الأسرار ص١٢٣ ـ قلائد الجواهر ص٩١.
(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٢٣.
(٤) التادفي: قلائد الجواهر ص٧٧.

المحبة

وردت ألفاظ الحب والمحبة في القرآن الكريم عشرات المرات[1]، لتشير في جملتها إلى حبين: الأول محمودٌ ـ وهو حب الله لعباده وحبهم إياه ـ والآخر مذمومٌ، وهو حب الشهوات الذي يقترن غالبًا بالضلال، كما في قوله تعالى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2].

ولقد تعلق الصوفية بالنوع الأول من المحبة، وجعلوا من تلك المحبة الربانية أصلاً من أصول الطريق؛ ونبهوا في الوقت ذاته إلى خطورة حب الدنيا والشهوات، باعتباره بابًا لكل معصية، كما جاء الحديث الشريف: «اتَّقُوا الدُّنْيَا»[3].

المحبة عند الصوفية:

بدأت الثورة الروحية في الإسلام من المدارس الأولى للتصوف، فكانت مدرسة الزهد في الكوفة، والبكاء في البصرة، والجوع في الشام، والفتوة

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص١٩١ ـ ١٩٣.

(٢) سورة يوسف، آية ٣٠.

(٣) الحديث «اتقوا الدنيا..» رواه مسلم في كتاب الذكر ٩٩، وابن ماجة في الفتن ١٩، وابن حنبل في المسند ١٩/٣، ٢٢ ـ وانظر العديد من الأحاديث النبوية في ذم حب الدنيا وضرورة التزهد فيها، في: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ١٥١/٢ وما بعدها.

والملامة في خراسان وبلخ. حتى دخلت فكرة المحبة إلى قلب التصوف، لينقلب المعامل الروحي عند أقطابه الأوائل من الخوف والرجاء ـ الذي تفتحت عنه المدارس السالفة ـ إلى محبة الله. ولم تعد الخشية من النار والرغبة في الجنة حجر الزاوية في معاملة المحبوب، بل صار الشوق والتحرق للقائه هما الباعث الحثيث لخطى الصوفي في معارجه الروحية.

وقد ابتدأت المحبة تطرق أبواب التصوف برفق واستحياء، على يد عابدات مثل حَيُّونة العابدة وشَعْوانة الفارسية وعُبَيْدة بنت أبي كُلاب البَصْرية، وغيرهن الكثيرات[1]؛ ثم تدفق نهر المحبة بقوة مع رابعة العدوية وسَمْنون بن حمزة.. فبعد أن عَبَّرت رابعة حجب الخوف والحيرة والتجرد، دخلت إلى ربها من باب المحبة التي كانت أقوالها وأحوالها ترجمة صادقة لها. فإن كانت رباعيتها الشهيرة (أحبك حبين..) موضع شك من بعض المؤرخين والدارسين[2]، فهي القائلة: ما عبدته خوفًا من ناره ولا حبًّا لجنته، فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل؛ بل عبدته حبًّا له وشوقًا إليه[3].. وهي التي توجهت إلى الله وأنشدت:

إنّي جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدِّثِي وَأَبَحْتُ جِسْمِيَ مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي[4]
فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ وَحَبِيبُ قَلْبِيَ فِي الْفُؤَادِ أَنِيسِي[5]

أما سمنون بن حمزة، المُلقَّب بالمُحِب[6]، فقد جعل من المحبة طريقًا

---

(١) راجع ترجمات العابدات الأوائل الواردة في: حلية الأولياء، صفة الصفوة، سير أعلام النبلاء.

(٢) د/ النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الثالث (دار المعارف ـ الطبعة الثانية) ص٢٠٧.

(٣) د/ بدوي: رابعة العدوية (دار القلم ـ بيروت) ص٤٢.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء الثامن ص٢١٦.

(٥) الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، الجزء التاسع ص٥٧٦.

(٦) هو أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص البغدادي. لقبه معاصروه بسمنون المُحب أما هو فكان يسمي نفسه: سمنون الكذاب.. لأنه أنشد أبياتًا قال فيها: =

إلى المولى، وكان يرى المحبة حالاً أعلى من المعرفة[١].. وقد رُويت عنه أحوال وأقوال وأشعار عديدة في الحب الإلهي[٢]؛ بل يذكر أئمة التصوف أنه كان يستفيض في الكلام عن رقائق المحبة حتى تتكسر قناديل المسجد ويسيل الدم من مناقير الطيور[٣].

ثم كانت المحبة مذهبًا لواحدٍ من أهم الشخصيات الصوفية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، هو السَّريُّ السَّقَطي، الذي وضعه السُّلَمي ضمن رجال الطبقة الأولى، ووصفه بأنه: إمام البغداديين وشيخهم، وأول من تكلم بلسان التوحيد وحقائق الأحوال.. وإليه ينتمي أكثر رجال الطبقة الثانية من مشايخ الصوفية[٤]. كما ترجع أهمية السرى السقطى في تاريخ التصوف إلى أثره البالغ في تلميذه وابن أخته أبي القاسم الجُنيد، الذي أثر بدوره في معظم من تلاه من الصوفية حتى لقبوه بشيخ الطائفة. ومما يروى في المحبة عند مؤرخي التصوف، أن جماعة سألوا الجُنيد عن حقيقة المحبة، فظل يورد من الأحاديث والآثار وقصص المحبين شيئًا كثيرًا، فدفع إليه السرى السقطى

فَلَيسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَامْتَحِنِّي

فحُصِرَ بوله من ساعته، فكان يدور على الكتاتيب ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب! وظل يتلوى أربعة عشر يومًا، فلما أطلق بوله قال: يا رب تبت إليك (حلية الأولياء، الجزء العاشر ص٣٠٩ ـ الرسالة القشيرية ص٣٢ ـ طبقات الصوفية ص٤٥).

(١) القشيري: الرسالة القشيرية ص ١٥٨.

(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٣١٠ ـ طبقات الصوفية ص٤٦.

(٣) الرسالة القشيرية ص١٦٠.. وبقطع النظر عن هذه الصورة الدرامية التي يصف بها القشيري مجالس سمنون وأثر كلامه في المحبة على الجهادات والطير، فإن ما يهمنا هنا هو التطور الكبير لفكرة المحبة كواحدة من علامات الطريق إلى الله. أما هذه الصورة التي يعرضها القشيري، فإنها تدخل في باب (كرامات الأولياء) والذي يمكن الرجوع بصدده إلى الفصل الخاص بكرامات الإمام الجيلاني في الكتاب الأول من هذه المجموعة: عبد القادر الجيلاني، باز الله الأشهب.

(٤) طبقات الصوفية ص١٤.

برقعة، وقال له، هذه خيرٌ من سبعمائة قصةٍ أو حديثٍ يعلوا وكان المكتوب في الرقعة:

وَلَمَّا أدعَيْتُ الْحُبَّ قَالَتْ كَذَبْتَنِي ... فَمَا لِي أَرَى الأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا
وَمَا الْحُبُّ حَتَّى يَلْصِقَ الْجِلْدُ بِالْحَشَا ... وَتَذْبَلَ حَتَّى لاَ تُجِيبَ الْمُنَادِيَا
وَتَنْحَلَ حَتَّى لاَ يُبَقِّي لَكَ الْهَوَى ... سِوَى مُقْلَةٍ تَبْكِي بِهَا وَتُنَاجِيَا[1]

وتطورت فكرة المحبة بعد القرن الثالث الهجري تطورًا كبيرًا، وأفرد من ألفوا في التصوف أبوابًا وفصولاً لها، كشفوا فيها عن الأصول الشرعية للمحبة، وأشاروا إلى المنازع الذوقية للمحبين من أهل الطريق، فصارت المحبة بذلك اصطلاحًا صوفيًا خاصًا، له دلالاته الواسعة[2].

وقد تنوعت نظرة الصوفية إلى المحبة، فمنهم من يعتبرها مقامًا لأهل التمكين ـ كالمَكّي[3] ـ ومنهم من يراها حالاً من أحوال المقربين ـ كالسّرّاج[4] ـ ومنهم من يجعلها فاصلاً بين الظاهر والباطن ـ كالنابلسي[5] ـ فينظر إليها على أنها: آخر طَورٍ من أطوار العلم، وأول طَورٍ من أطوار المعرفة.. أما السُلّمي، فيفوق الكل حين يجعل المحبة: السبب الذي خلق الله تعالى العارفين لأجله[6]!

---

(١) الرسالة القشيرية ص١٦٠.

(٢) راجع الفصول الخاصة بالمحبة، وتعريفات الصوفية لها، في المصادر التالية: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٣٠ ـ اللمع ص٨٥ ـ الرسالة القشيرية ص١٥٧ ـ قوت القلوب ٢/٥٠ ـ المقدمة في التصوف ص٢٧ ـ إحياء علوم الدين ٤/٢٩٣ ـ اصطلاحات الصوفية ص٧٨٥ ـ ألفاظ الصوفية ومعانيها ص٢٨٢.

(٣) المكي: قوت القلوب ٥٠.

(٤) السراج: اللمع في التصوف ص٨٦.

(٥) النابلسي: شرح عينية الجيلي (مخطوط دار الكتب رقم ٣٦٢/ تصوف) ورقة ١١٦أ.

(٦) السلمي: المقدمة في التصوف ص٢٨.

حقيقة المحبة عند الإمام الجيلاني:

أنهى الإمام الجيلاني كتابه (الغُنية) بالكلام عن الصدق، الذي جعله آخر الأسس السبعة للطريقة، ولم يدخل في هذا الكتاب إلى أعماق التجربة الصوفية حيث تفيض المحبة لتغرق قلب العارجين إلى حضرة المحبوب! ومن هنا نقول إن كل محاولة لدراسة الجوانب الصوفية عند الإمام الجيلاني، اعتمادًا على (الغُنية) وحدها، فهي محاولةٌ لا بد وأن تقف على قدم التقصير.. فالغُنية كتاب يمثل (الشريعة) عند الإمام، أما (الحقيقة) ودقائق الولاية، فقد أشار إليها في مقالاته الذوقية وأشعاره الصوفية وبعض أجوبته وكلامه للخاصة من مريديه. وقد تبين خلال المقارنات المتوالية في الفصول السالفة، أن الإمام الجيلاني كان يحدثنا عن (المفاهيم العامة) للتصوف، ولذا فهو لم يجد حرجًا في النقل عن السابقين، خاصة القُشيري والسُلّمي[1]؛ وهو نفس الأمر الذي فعله الغزالي حين نقل في الإحياء عن المكي. وأما فيما يلي من فصول، بداية من الكلام عن المحبة، فإن حديث الإمام حول (دقائق الطريق) إنما ينبع من رقائق تجربته الخاصة المفردة.

ولم ير الإمام في المحبة حالاً ولا مقامًا فحسب، وإنما نظر إليها كعلامة ضرورية من علامات الطريق، وإن شئت قلت آخر العلامات.. فليس بعد المحبة عند الإمام إلاّ منازل القرب والوصول إلى فيض تجليات الحضرة الإلهية.

ومطلق كلمة (محبة) عند الإمام، تشير إلى تعلق القلب بأمرٍ ما. أما

---

(١) انطلق الباحث عبد الحميد مدكور في رسالته عن المكي - بعد بضعة مقارنات عقدها بين القوت والغُنية فيما يتعلق بالخواطر والذنوب والأوراد - إلى القول: ومع تأثر الجيلاني بالقوت على هذا النحو، فهو لم يشر إليه ولا إلى صاحبه مرة واحدة (أبو طالب المكي ومنهجه الصوفي - رسالة ماجستير بإشراف أ. د/ محمود قاسم ١٩٧٢ - المكتبة العامة لجامعة القاهرة، ص١٣٦) ويبدو أن الباحث لم يفرق بين الخطوط العامة للتصوف، وبين التجربة الصوفية ذاتها - كحالة مفردة.

خصوص المحبة (محبة الله) فهي تشويش يقع من المحبوب - الله - في القلوب، فتصير الدنيا وما فيها هينةً كحلقة خاتم، وموحشةً كمجمع مآتم[1]. فمن اجتُذِبَ إلى أعماق بحر المحبة، وخَلَعَ النعلين وَقَطَعَ النظر إلى الخُلْدين، لا فرح له إلاَّ بلقاء المحبوب.. وهل يفرح المجنون بدون ليلى العامريَّة[2].

وكثيرًا ما كان الإمام يستشهد بالحديث الشريف «حُبُّكَ الشَّيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ»[3] ليقول بأن كل ما يراه العبد من الوجوه المُستحسنة، فيحبه، فهو حب ناقص مُعاقب عليه. فالحب الصحيح عند الإمام هو الحب الذي لا يتغير، حب من يراه الصّدّيقون بعينيْ قلوبهم بعد كشف الحجب[4].. فهم أهل حقيقة المحبة الذين عموا وصموا عن غير الله، فلا عيون لهم ترى الخلق، ولا لهم آذان تسمعهم[5]، قطعوا الرجاء في الجنة، كما تجافوا عن طلب الدنيا، فإن أمر الله لهم بجنات عدن، أقسمت أرواحهم أنها لا نظرت إلى سواه ولا عقدت على غيره نيّة، وما هجرت لذيذ العيش في الدنيا إلا لتحظى بصلته السنية! يقول الإمام: وَحَقِّكَ، إنَّ عَيْنًا لَنْ تُرِيهَا جَمَالَكَ، فَإِنَّهَا عَيْنٌ شَقِيَّةٌ[6].

والمحبة عند الإمام سكرٌ لا صحو معه، وقلقٌ لا سكون لصاحبه[7]، وصدقٌ لا ينتهي. وكان يطيب للإمام كلما سُئل عن المحبة، أن يتغنى بالأبيات الرقيقة لقيس بن الملوَّح، تلك الأبيات التي جعل الصوفية من (ليلى) فيها، إشارة إلى الذات الإلهية:

---

(١) بهجة الأسرار ص١٢٠.

(٢) الجيلاني: عقيدة الباز الأشهب (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٣) أخرجه ابو داود في الأدب/ ١١٦ وابن حنبل في المسند ٥/١٩٤ - ٦/٤٥٠.

(٤) الجيلاني: الفتح الرباني ص٧٣.

(٥) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٨٠.

(٦) الجيلاني: عقيدة الباز الأشهب (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٧) بهجة الأسرار ص١٢٠ - قلائد الجواهر ص٨٨.

وَقَدْ لاَمَنِي فِي حُبِّ لَيْلَى أَقَارِبِي أَخِي وَابْنُ عَمِّي وَابْنُ خَالِي وَخَالِيَا
فَلَوْ كُنْتُ أَعْمَى أَخْبِطُ الأَرْضَ بِالْعَصَا أَصَمَّ، فَنَادَتْنِي أُجِيبُ الْمُنَادِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ بِاللَّيْلِ خَالِيَا
وَإِنِّي لأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ غَشْيَةٌ لَعَلَّ خَيَالاً مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا(١)

وقد كان الصوفية دومًا يتمثلون بشعر المجنون وغيره من العُذريين، ويقع من قلوبهم مواقع الاستحسان، لما فيه من صدق ظاهر. ثم اتخذ شعراء الصوفية من محبوبات هؤلاء الشعراء (ليلى - لبنى - عزة..) رموزًا أشاروا بها إلى الذات الألهية. وهذه الخاصة تبدو بوضوح في شعر ابن الفارض والعفيف التلمساني، كما تبدو أيضًا عند الإمام الجيلاني، فنراه إذا أراد وصف أهل المحبة من الأولياء، يرمز فيقول:

رِجَالٌ خَيَّمُوا فِي حَيِّ لَيْلَى وَنَالُوا فِي الْهَوَى أَقْصَى مَنَالِ(٢)

وكان الإمام يستخدم لفظة (العشق) في شعره ومقالاته، ليشير إلى فرط المحبة، وقد أثارت لفظة العشق هذه إشكالاً بين الصوفية ومعارضيهم، فها هو ابن الجوزي ينتقد قول الصوفية بالعشق الإلهي، فيقرر أن ذلك القول (جَهْلٌ) من ثلاثة أوجه:

- من حيث الاسم؛ فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما يُنكح.
- ان صفات الله منقولة، فيقال يَحِبُّ ويُحَبُّ ولا يقال يَعْشِقُ ويُعْشَقُ.
- ان العشق دعوى بلا دليل.

ويذكر ابن الجوزي بعد ذلك أن القول بعشق الله كان سببًا في تقديم أبي الحسين النوري وأصحابه إلى السيَّاف لقتلهم بتهمة الزندقة(٣).. ولو كان ابن

---

(١) بهجة الاسرار ص١٢٠، ١٢١.
(٢) الجيلاني: القصيدة الخمرية (ديوان عبد القادر الجيلاني) بيت ٢٣.
(٣) ابن الجوزي: تلبيس ابليس (دار الطباعة المنيرية، القاهرة ١٣٦٨هـ) ص١٧١، ١٧٣.

الجوزي قد سار خطوات قليلة إلى الإمام الجيلاني[1]، وسأله عن (العِشْق) قبل اتهام أهله بالجهل، لكان الإمام قد أبان له جهله هو من ثلاثة وجوه:

ـ من حيث اللغة لا يشترط أن يكون العشق لما ينكح، ففي قواميس اللغة يرادف العشق فرط الحب[2] وإفراط المحبة[3]، ويسمى العاشق بذلك لأنه يذبل من شدة الهوى، كالعَشَقَة (الشجرة) التي تكون خضراء فتذبل وتصفر إذا قطعت[4].

ـ ان العشق لم يرد عند الصوفية كصفة إلهية، وإنما كوصف لأهل خصوص المحبة.

ـ ان الدليل على صدق دعوى العشق، ظاهرٌ في أحوال أهله وطول معاناتهم، كما قال شاعرهم:

عِنْدِي شُهُودٌ أَرْبَعٌ يَشْهَدُونَ لِي   غَرَامِي وَوَجْدِي وَالسَّقَمْ وَمَدَامِعِي

أما أبو الحسين النوري ـ الذي اتهم بالزندقة لقوله بالعشق ـ فهو لم يُقتل يومها، لأنه تقدم من بين أصحابه إلى السياف مؤثرًا بقاءهم (لحظات) على بقائه، فتعجب منه السيَّاف ورفع الأمر إلى الخليفة، فردَّ الخليفة أمر النوري وأصحابه إلى قاضي القضاة إسماعيل بن إسحاق، فأمر هذا القاضي بإطلاق سراحهم.. إلاَّ أن النوري عاد بعدها ليموت عشقًا، فقد سمع يومًا هذا البيت:

مَا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وِدَادِكَ مَنْزِلاً   تَتَحَيَّرُ الأَلْبَابُ عِنْدَ نُزُولِهِ

فقام وتواجد وهام على وجهه، فدخل حقلاً للقصب كان قصبه قد قُطع

---

(١) كان ابن الجوزي معاصرًا للإمام الجيلاني، وتوفي بعده بما يقرب من ثلاثين عامًا.. وقد كانا معًا في بغداد، كما كان يجمعهما المذهب الحنبلي!

(٢) ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني ص٧٨٦.

(٣) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، المجلد الثالث ص٢٧٤.

(٤) ابن منظور: لسان العرب ٢/٧٨٧.

وبقيت أصوله في الأرض كالسيوف، فظل الدم ينزف منه وهو يعدو ويعيد البيت.. ومات بذلك[1]! فهلا عرف ابن الجوزي - ومن يفرحون بكتابة: تلبيس إبليس - كيف يموت العشاق.

ونعود للمحبة عند الإمام الجيلاني، فنرى البيان الأوفى لحقائقها، إنما يتضح بشكلٍ جليٍّ، عند استعراض ما يرتبط بالمحبة من موضوعات ورقائق صوفية، خاصة أن الإمام لم يضع في المحبة (كعلامة للطريق) فصلاً أو قولاً مفردًا، بل أفاض في الكلام عنها كلما تعرض للزهد والفقر والفناء والقرب.

المحبة والزهد:

يقتضي صدق المحبة الميل إلى المحبوب بالكلية، فالمحب الصادق لا يقف مع غير محبوبه قط[2] وكل طالبٍ لا محالة له عن بذل ما يقتضيه طلبه، وإلا فإن حصول الطلب محال! ويضرب الإمام الجيلاني مثلاً بالعبد الذي يسمع بالجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيطلب الجنة، فيكون آنذاك مطالبًا ببذل ثمن الجنة الذي صرح به الحق تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[3].

فما بال العبد إذا طلب ما هو أعزّ من الجنة، وكان محبًا يشتاق إلى وجه ربه.. وما هو ثمن الدخول إلى الحضرة الإلهية من باب القرب؟ ذلك ما يقف بنا على أعتاب الزهد، كأمرٍ لازمٍ للمحبة عند الإمام الجيلاني.

---

(١) هو احمد بن محمد النوري الخراساني، من كبار رجال التصوف في القرن الثالث الهجري.. انظر ترجمته في (طبقات الصوفية ص٣٨ - حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٩ - تاريخ بغداد ٥/١٣٠ - الرسالة القشيرية ص٢٠ - الأنساب ص٥٧٠ - صفة الصفوة ٢/٤٣٩ - المنتظم ٦/٧٧ - البداية والنهاية ١١/١٠٦ - النجوم الزاهرة ٣/١٦٣ - سير اعلام النبلاء ١٤/٧٠).

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٤٠.

(٣) سورة التوبة، آية ١١١.

كثيرًا ما كان الإمام يردد في كلامه (مَا ثَمَّ إلاَّ خَلْقٌ وَخَالِقٌ)[1] كإشارة إلى النقيضين اللذين لا يسعهما قلب واحد، فإما الخلق الفاني، وإما الخالق الباقي. وما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه، فإن امتلأ قلب العبد بحب المولى، لم تكن فيه بقية لحب سواه.. وبعبارة قادرية: لا بد للطالبين السالكين من المحبة، ولا بد للمحبين من الزهد.

وأول الزهد عند الإمام الجيلاني؛ ترك التعلق بمظاهر الدنيا، ومفارقة الحظوظ بالجملة. فإن بقيت مع السالك بعض العلائق - رغم مروره بما سبق من علامات الطريق - فإنه يتعين عليه وقد دخل أرض المحبة، أن يقتلع كل جذور التعلق بما سوى الله، وإلا صار قلبه محلاً للخسوف والوجل والخذلان[2]. فبقطع العلائق يستريح القلب من التشتت بين النقيضين كما جاء في الحديث: «الزهد في الدنيا يريح القلب والجسد»[3].

فإن زال حب الدنيا تمامًا، بقي على المحب إزالة (طلب الدرجات والمنازل العاليات) من القلب؛ فالخطوة الأولى زهدٌ في الدنيا، والثانية زهدٌ في تعلق النفس بالآخرة.. وقد روي في مناقب الإمام أن شيخًا من معاصريه يدعى مكارم النهر خالصي، حضر المجلس والإمام الجيلاني يتكلم في مقامات الواصلين ومشاهد العارفين، فوقع خاطر الشيخ مكارم في تساؤل: كيف الطريق إلى الله، كيف الطريق إلى نيل المراد؟ فقطع الإمام كلامه والتفت إليه قائلا: بينك وبين مرادك قدمان، تقطع بإحداهما الدنيا، وبالأخرى نفسك، ثم ها أنت وربك[4].

وحين يصح زهد المحب، ويخلع نعليه (الدنيا والاخرة) ويتجرد عن

---

(١) انظر: بهجة الأسرار ص٧٧.

(٢) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٢٤.

(٣) انظر الأحاديث الشريفة في الزهد وفضله، في: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٢/٣٤٨.

(٤) بهجة الأسرار ص٤٤.

الأكوان وعما هو موجود وما سيوجد، ويفني نظره إلى الكل، لا يبقى لقلبه آنذاك شغل إلا بالحق تعالى، فيصير هذا القلب الفارغ عن العلائق محلاً لتجلي المحبوب، وعرشًا لله. كما روي (ما وسعني أرضي ولا سماواتي، ووسعني قلب عبدي المؤمن) وقد عبَّر الإمام عن حاله في هذا المقام حين قال:

أَضْحَتْ جُيُوشُ الْحُبِّ تَحْتَ مَشِيئَتِي طَوْعًا ـ وَمَهْمَا رُمْتُهُ لاَ يَعْزِبُ
أَصْبَحْتُ لاَ أَمَلاً وَلاَ أُمْنِيَةً أَرْجُو ـ وَلاَ مَوْعُودَةً أَتَرَقَّبُ[1]

ثم يشير الإمام إلى قطع حجب الدنيا والآخرة، والوصول بالمحبة إلى المحبوب؛ حين يقول في القصيدة الشريفة:

قَطَعْتُ جَمِيعَ الْحُجْبِ لِلْحُبِّ صَاعِدًا وَمَا زِلْتُ أَرْقَى سَائِرًا بِمَحَبَّتِي[2]

وهكذا ينتهي الإمام الجيلاني إلى أن الأدنى حجاب لما يعلوه، وأن قعود الهمة عند العتبة الأولى حائلٌ عن الارتقاء للعتبة الثانية. وبذلك فالدنيا حجابٌ عن الآخرة، والآخرة حجابٌ عن رب الدنيا والآخرة، وكل مخلوق حجابٌ عن الخالق ـ يقول الإمام: كل ما وقفت معه فهو حجاب، ولا تلتفت إلى شيء سوى الحق عز وجل، حتى تدخل إلى بابه بأقدام سرّك وصحة زهدك فيما سواه؛ عريانًا عن الكل[3].

ويطلعنا الإمام على إحدى دقائق الزهد وحقائقه، حين يشير إلى أن المحب الزاهد لا يتنافى صدق حاله مع تناول الأقسام التي ساقها الله إليه في الدنيا، بل هو يُثاب على أخذها كما يثاب على الزهد فيها. فالثواب الأول لأنه ترك الدنيا رغبةً ومحبةً في الخالق حتى لا ينشغل بغيره، والثواب الآخر لأنه امتثل أمر الله فتناول الأقسام ووافق إرادة الله وفعله، دون أن يكون له

---

(١) الجيلاني: قصيدة ما في الصبابة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ٨، ٩.
(٢) الجيلاني: القصيدة الشريفة (ديوان عبد القادر الجيلاني) بيت ١٨.
(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص٧٥، ٧٦.

في ذلك هوى ولا إرادة ولا همة[١].. فالزهد إذا تمكن في القلب، لا يغيره مجيء الدنيا وتناول الأقسام[٢].

وأخيرًا، فالإمام يفرق ما بين التزهد والزهد، ففي التزهد يبدأ العبد بترك الحظوظ، ويُخشى عليه من إقبال الدنيا. فإن وصل إلى حقيقة الزهد، لم يُخْشَ عليه من الدنيا، فإقبالها وإدبارها لديه سواء، وذلك هو المراد من المبدأ القادري الشهير: «اجعل الدنيا في يدك، وليس في قلبك، فلا تضرك».. وإن كان هذا المبدأ، لا ينسحب إلا على من عرفوا حقيقة الزهد، وإلا فالمتزهد البادئ عِرْضة لتسلل الدنيا من اليد إلى القلب.

المحبة والفقر:

الفقر آخر طريق الزاهدين. فإن كان الزهد هو تخفف القلب من الشواغل عند وقوفه أعتاب الحضرة الإلهية؛ فالفقر هو التعفف والإفلاس عن كل ما سوى المطلوب، وهو كمال تجرد القلب إذا ما امتلك الحب ناصيته، حيث يكون العبد وقلبه وما ملكت يداه لله، فيمسي الحب لربه بكليته، ولا يرى لنفسه شيئًا.. وهذا ما يذكرنا بحكاية أبي أحمد القَلاَنِسي - أستاذ الجُنيد - الذي يَروي عن أحواله وسياحاته الصوفية، فيقول: دخلت يومًا على قوم من الفقراء بالبصرة، فأكرموني وبجلوني، حتى قلت في أحد الأيام (أَيْنَ إِزَارِي..؟) فسقطت من أعينهم[٣].

والفقر ظاهر وباطن، فظاهره الفقد وباطنه الفناء التام. وللفقير سمات وأحوال مشهودة، يعددها الإمام ويستفيض في الكلام عنها، حتى لا يدَّعي الفقر من ليس فيه؛ فالفقير: جوال الفكر[٤]، جوهريُّ الذكر، جيل المنازعة

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص١١٨.
(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص١١٠.
(٣) السُّلَمي: المقدمة في التصوف ص٢٦.
(٤) التادفي: قلائد الجواهر، ص٩٣.

قريب المراجعة، لا يطلب من الحق إلاّ الحق ولا يتمذهب إلاّ بالصدق.. وهو أوسع الناس صدرًا، وأذل الناس نفسًا، ضحكه تبسم واستفهامه تعلم؛ مذكر للغافل، معلم للجاهل؛ لا يؤذي من يؤذيه، ولا يخوض فيما لا يعنيه؛ كثيرُ العطاء قليلُ الأذى، ورع عن المحرمات متوقف على الشبهات، غوث للغريب أب لليتيم.. قلبه مشغول بفكره مسرور بفقره، لا يكشف سرًا ولا يهتك سترًا، حليمٌ إذا جُهِلَ عليه صبورٌ على مَنْ أساء إليه.. حركاته أدبٌ وكلامه عجبٌ، وقور صبور رضي شكور، قليل الكلام كثير الصلاة والصيام.. له لسانٌ مخزونٌ وقلبٌ محزونٌ وقولٌ موزونٌ وفكرٌ يجول فيما كان وما يكون!

وبعد هذه الصفات اللازمة للفقير، يشير الإمام الجيلاني إلى العلامة الكبرى للفقير، وهي كثرة الابتلاء من الله. وهو يورد الأصل الشرعي لذلك من الحديث النبوي، «حين جاء رجلٌ إلى النبي وقال له: يا رسول الله إني أحبك، فقال: استعد للفقر.. وجاء رجل آخر وقال: إني أحب الله، فقال: اتخذ للبلاء جلبابًا»[1]. يقول الإمام: محبة الله ورسوله مقرونةٌ بالفقر والبلاء، ولهذا قال بعض الصالحين (وُكِّلَ الْبَلاَءُ بِالْوَلاَءِ) كي لا يدعي كل أحدٍ محبة الله[2].

ويرجع اقتران المحبة بالفقر والبلاء إلى غيرة الحق تعالى على عباده، فكما روي في الحديث «أن الله إذا أحب عبدًا، ابتلاه.. فإذا أحبه الحبَّ الجمَّ، اقتناه! قالوا: وما اقتناه يا رسول الله، قال: لم يُبْقِ له مالاً ولا ولدًا»[3]. وهذا ما فعله الله بإبراهيم الخليل ويعقوب عليهما السلام، لمّا مالا إلى ولديهما

(١) حديث مشهور، أخرجه الترمذي في كتاب الزهد/ ٣٦ بلفظ: إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٩.

(٣) رواه السيوطي في جمع الجوامع، بأرقام: ١٠٠٣/٩١ عن ابن مسعود، ١٠٠٤/٩٣ عن أبي عتبة الخلاني ـ انظر أيضًا، الترمذي: زهد ٥٧ ـ ابن حنبل: المسند ٤٢٧/٥، ٤٢٩.

بحرقةٍ من قلبيها، ابتلاهما الله في الولدين. وهذا أيضًا ما فعله الله بالنَّبي محمد ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ حين مال إلى ولدي ابنته (الحسن والحسين) فجاء جبريل وسأله: أتحبهما؟ فقال: نعم، قال جبريل: أما أحدهما فيُسقى السم، وأما الآخر فيُقتل.. ويعقب الإمام قائلاً: فخرج الحسن والحسين من قلب النَّبي، وانقلب الفرح بهما حزنًا عليهما، وتفرغ قلبه صلى الله عليه وسلم لمولاه! وهكذا الحق عز وجل غيورٌ على قلوب أنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين[1]. ثم يبتعد الإمام بمدلول الفقر كمصطلحٍ صوفيٍّ، ليجعله مضادًا للمفهوم العام لهذا اللفظ فالفقير عند الإمام لا يعني العبد الذي ليس له شيء، بل هو العبد الربانيُّ الذي له أمر في كل شيء، وهو الذي يقول للشيء كن، فيكون[2].. وذلك ما ورد في الحديث القدسي المشهور «ما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل، حتى أحبه..»[3] وهكذا يربط الإمام الجيلاني بين المحبة وبين الفقر، جاعلاً منهما طريقًا إلى الربانية والتصريف ورفع الحجب بين العبد وربه. يقول الإمام في الغوثية: إِذَا رَأَيْتَ الْمُحْتَرِقَ بِنَارِ الْفَقْرِ، الْمُنْكَسِرَ بِكَثْرَةِ الْفَاقَةِ وَالْعِيَالِ[4]، فَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ، فَلاَ حِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ[5]!

ولما سبق، فإن كلمة (فقير) عند الإمام الجيلاني، تشير إلى مقام عالٍ من مقامات الطريق كما تشير إلى خصوص أهل المحبة من المحققين. ولهذا فقد أجاب الإمام حين سُئِلَ عن معنى اسم الفقير، فقال شعراً:

فَاءُ الْفَقِيرِ فَنَاؤُهُ فِي ذَاتِهِ ... وَفَرَاغُهُ مِنْ نَعْتِهِ وَصِفَاتِهِ
وَالْقَافُ قُوَّةُ قَلْبِهِ بِحَبِيبِهِ ... وَقِيَامُهُ للهِ فِي مَرْضَاتِهِ

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٨٠.

(٢) الجيلاني: الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٣) الحديث القدسي «ما زال عبدي..» حديث صحيح الإسناد، يقول عنه ابن تيمية هو أصح حديث يستدل به أهل الولاية عليها.

(٤) انظر المعاني الصوفية لألفاظ (التصريف ـ رفع الحجب ـ الفقر ـ الفاقة) في تعليقاتنا على ديوان عبد القادر الجيلاني.

(٥) الغوثية ص١٧٣.

وَالْيَاءُ يَرْجُو رَبَّهُ وَيَخَافُهُ   وَيَقُومُ بِالتَّقْوَى بِحَقِّ تُقَاتِهِ
وَالرَّاءُ رِقَّةُ قَلْبِهِ وَصَفَاؤُهُ   وَرُجُوعُهُ للهِ عَنْ شَهَوَاتِهِ[1]

المحبة والفناء:

يبدو كلام الإمام عن الفناء، كما لو كان تتمةً لكلامه عن الفقر. فالفناء في مفهومه القادريّ: هو كمال الفقر وتمامه، وغياب المُحب في المحبوب بحيث لا تُبقي أنوار القرب أثرًا لظلمة الأكوان، فيندهش المحب تحت سطعات تجليات الحق تعالى، فينمحق قلبه ويتبدد وجوده الفاني، ويتبدل بوجوده في الباقي.

والفناء هو باب البقاء في حَضْرَة الحق تعالى. وهو عِلَّة الله لعبده[2]، هذه المحبة التي تسبق محبة العبد وتُثمرها.. فإذا كان الحق تعالى قد قدَّم ذكرنا على ذكره بقوله ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[3] فإنه قدَّم محبته على محبة عباده بقوله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[4] وتلك الآيات إشارات لترتيب المقامات، فالعبد يذكر ربه، فيذكره ربه ثم يحبه؛ فإن أحبَّه علّق قلبه بمحبته تعالى وظل يزهده ويبتله ويفقره حتى يخلص لمولاه، ويكون أمره كأمر موسى حين قال له ربه ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[5].

ولإفناء الحق لعبده علامات ودلائل ظاهرة وباطنة، أولها أن يكون المحب الفاني كالإناء (المُنْثَلِم) لا يثبت فيه شيء[6]. فتمر به الحادثات والكائنات فيراها خيالات وأشباحًا، فالمحب الصادق لو لقي الخلق كلهم، ما حلا له

---

(١) قلائد الجواهر ص٩٣.
(٢) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٢١.
(٣) سورة البقرة، آية ١٥٢.
(٤) سورة المائدة، آية ٥٤.
(٥) سورة طه، آية ٤١.
(٦) الجيلاني: فتوح الغيب ص٤٧، ٦١.

النظر إليهم، بعدما نظر إلى محبوبه[١]. وقد صرّحت الغوثية بهذا المعنى، حين تنزل الكشف الإلهي على قلب الإمام الجيلاني قائلاً: يَا غَوْثَ الأَعْظَمِ، أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَيَّ، الْعَبْدُ الَّذِي لَهُ الْوَالِدُ وَالْوَلَدُ، وَقَلْبُهُ فَارِغٌ مِنْهُمَا، فَلَوْ مَاتَ لَهُ الْوَالِدُ فَلَيْسَ لَهُ الْحُزْنُ بِمَوْتِهِ، وَلَوْ مَاتَ الْوَلَدُ فَلَيْسَ لَهُ هَمٌّ بِمَوْتِهِ.. فَإِذَا بَلَغَ الْعَبْدُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، فَهُوَ عِنْدِي بِلاَ وَالِدٍ وَلاَ وَلَدٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ[١].

ومن علامات الفناء سقوط إرادة العبد، بحيث يبقى المحب بين يديْ محبوبه كالميت، يقلبه كيف يشاء. فلا يريد العبد شيئًا، بل يجري فعل الله فيه وهو ساكن مطمئن الجنان[٣] فإذا ماتت الإرادة، رحمه الله وأنشأه النشأة الأخرى فبعدما يُفني الحق تعالى وجود المحب مع السوى، يُقيم وجوده له عزّ وجلّ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٤]. فالخلق الأول مشترك، وهذا الخلق مفرد لله فقط[٥].. الله فقط، عبارة ابن سبعين الشهيرة[٦].

وهكذا يفنى المحب عن الخلق بحكم الله، وعن الهوى بأمر الله، وعن الإرادة بفعل الله[٧]. ويظل تحت ظلال الفناء، حتى يخرجه الله إلى الخلق في ثيأب الربانية، ويهبه التكوين وخرق العادات، ويميته الموتة التي لا حياة فيها.

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٠٣.
(٢) الجيلاني: الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).
(٣) التادفي: قلائد الجواهر ص٧٦.
(٤) سورة المؤمنون، آية ١٤.
(٥) الجيلاني: الفتح الرباني ص٣٨.
(٦) تشير قولة ابن سبعين (الله فقط) الى نظرية خاصة في الوحدة، يمكن الرجوع بصددها إلى البحث القيم الذي وضعه الدكتور ابو الوفا التفتازاني بعنوان: ابن سبعين وفلسفته الصوفية (دار الكتاب اللبناني ـ بيروت) ص٢٠٠ وما بعدها.
(٧) فتوح الغيب ص١٢ ـ بهجة الأسرار ص٧٦ ـ قلائد الجواهر ص٧٦.

(الموت عن الخلق دنيا وأخرى) ويحييه الحياة التي لا موت فيها ؛ وهي الحياة بالله الباقي[1].

* * *

وبهذه المحبة يصل مَنْ يحبه الله إلى (القرب) الذي به يتهنى عيشه ويتسرمد أنسه بالله، فإن أفاق الواصل لحظةً من سكر المحبة، كانت إفاقته إما لإقامة حدٍّ شرعيٍّ، أو لتَوَفِّيه حقًّا من الحقوق التي يحب الله أن تؤدى.. وربما كانت الإفاقة لهجرٍ يهجم على قلبه لإثارة شوقه، ويطرحه من علياء اللطف إلى بوادي البعد ؛ فيكابد شجون المسجون في الدنيا، ويحن إلى جنة القرب ثانيةً.

ولمّا كان الكلام عن القرب، أكثر ارتباطًا باستعراض نهايات الطريق الصوفي ـ أو ما نسميه هنا بمنازل الوصول ـ فالمقام يقتضي إرجاء التوقف تحت هذه الظلال، إلى الباب التالي.

---

(١) الجيلاني : فتوح الغيب ص١٤٥ .

الباب الثالث:

منازل القرب والوصول

يَا غَوْثَ الأَعْظَمِ .. قُلْ لأَحْبَابِكَ وَأَصْحَابِكَ:
مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ صُحْبَتِي ..
فَعَلَيْهِ بِالْفَقْرِ،
ثُمَّ فَقْرِ الْفَقْرِ،
ثُمَّ الْفَقْرِ عَنِ الْفَقْرِ
فَإِذَا تَمَّ فَقْرُهُمْ، فَلاَ ثَمَّ إِلاَّ أَنَا

الإمام الجيلاني

تمهيد:

لا يزال حادي الأرواح يرقى بركاب العارج في سماء المحبة، ولا يزال المحب في عبوره لحجب الأحوال والمقامات قاصدًا حمى المحبوب، حتى يقف العبد المتجرد عن الأكوان على أعتاب الحَضْرة الإلهية، خالصًا في وقوفه من شواغل السوى.. وهنا، ربما طال عكوف العبد على العتبات، وربما أتاه الإذن بالولوج على المَلِكِ - ليصير من الرجال الذين اصطنعهم الله لنفسه، واصطفاهم من خلقه.

ولأهل الحَضْرة مراتب ودرجات، هي إتحافٌ ربانيٌّ يختص به الحق من يشاء من المقربين الذين أقبلوا عليه بوجه الشوق والافتقار، فأقبل عليهم بوجه المنن والعطايا.. أقبلوا عليه سعيًا، فأتاهم هرولةً.

والواصلون المقربون على ضربين، فمنهم من يستأثر به الله ويقطعه عن الخلق، مُغيّبًا إياه في خدور النور.. وهؤلاء الأولياء لا سبيل للعوام أن يعرفوهم، فهم مَنْ عناهم الإمام الجيلاني حين قال: الأَوْلِيَاءُ عَرَائِسُ الله، لاَ يُطْلِعُ عَلَيْهِمْ إلاَّ ذو مَحْرَمٍ.

ومنهم من يبرزه الله لأهل الزمان، ويُنطقه بغرائب الحكمة وفرائد العلم، ويؤيده بالبُشرى والعناية والكشف، ليكون شاهد قدرةٍ لا تتناهى، وعلامة قربٍ غير مشاع.. وهؤلاء الأولياء هم الوارثون، المجددون لهذه الأمة دينها.

ولا يتوقف إبحار أهل القرب والوصول، فهم دومًا في فيض تجلياتٍ تتوالى فلا تتوانى، وتتنوع فلا تنقطع.. فبحرهم لا ساحل له، وغوصهم بلا حدّ ولا مُنتهى، فمن هنا قال قائلهم: الْقُرْبُ، وُصُولُ السِّرِّ إلى مَقَامِ الذُّهُولِ. ومن هنا عرف المقرب أنه مهما اتصل فهو ـ بعد ـ لم يصل، فقال: مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ وَصَلَ فَقَدْ كَذَبَ.. وكيف له أن يصل إلى منتهى التجليات التي تقلب القلوب والبصائر في المُلك والملكوت والجبروت.

ووفقًا لما أشار إليه الإمام الجيلاني، فإن للقرب والوصول ثلاثة مواقف كبرى، هي منازل للذين أقعدهم المليك المقتدر مقعد الصدق بعد طول السفر.. وهذه المنازل الثلاثة (الولاية ـ المعرفة ـ القطبية) هي عناوين فصول هذا الباب الذي نستكمل به استعراض ما بقي من حقائق الطريق الصوفي عند الإمام الجيلاني.

والله الموفق.

الفصل الأول

الولاية

الولاية هي العلامة الكبرى على القرب والوصول، والثمرة الطيبة بعد السفر الطويل عبر مراحل الطريق الصوفي. ولقد أطال الصوفية وأسهبوا في الكلام عن حقائق الولاية ودقائق الأولياء، فكانت لهم تلك المباحث المبسوطة المفصلة، والعبارات القصار الموحية، التي قلما تخلو منها أمهات كتب حكماء الأمة.

وقبل الدخول في تفاصيل النظرة القادرية للولاية والأولياء، يجدر بنا أن نتلبث حينًا عند مفهوم هذه الكلمة، لنستشرف الدلالات الذوقية الرحيبة التي تعنيها.

مفهوم الولاية:

لاحظنا خلال صفحات هذا البحث، أن كلمات الصوفية تتفرد بمعانيها المستقلة التي يتعارف أهل الطريق عليها. بحيث يمكن القول بشكلٍ عامٍ، أنه لا يشترط وجود علاقة ضرورية حتمية بين اللفظ ومدلوله، وإنما توجد العديد من الحقول الدلالية التي ـ كما يقول فقهاء اللغة ـ تتنوع المعاني وفقًا لها بين التعريف المعجميّ، والمعنى الأسلوبيّ، والدلالة الاصطلاحية الموحية[1]..

---

(١) د/ أحمد سليمان ياقوت: الدرس الدلالي في خصائص ابن جني (دار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية ١٩٨٩) ص٥ وما بعدها.

وهذا الحكم يصدق على معظم ألفاظ الصوفية، ومن بينها لفظ الولاية؛ فالولاية في معاجم اللغة لها تعريفات لا تنتهي، أقربها: الولاية هي تملك الأشياء والتصرف فيها، فكان في أسمائه تعالى (الوَليّ - الوَالي) لأنه تعالى المتولي أمور الخلق، المالك المتصرف في الأشياء جميعًا[1].

وفي سياق الآيات القرآنية، وردت (الولاية) عشرات المرات[2]، لتعني ولاية أهل الحق فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الله. ولتعني أيضًا الولاية بين الكافرين والمنافقين بعضهم ببعض، وبينهم وبين الشيطان الذي تولاهم - مما يعني عموم انطباق هذه اللفظة في القرآن الكريم.

وكان الدكتور عبد الفتاح بركة، قد تتبع ورود الكلمة في الآيات القرآنية، ومهّد لدراسته حول نظرية الولاية عند الحكيم الترمذي، بعرضٍ مطولٍ مسهبٍ لأغلب الآيات والآثار التي تضمنت الإشارة إلى مفهوم الولاية؛ ثم انتهى إلى أن تصنيف (الولاية الإيمانية) ينحصر في (ولاية الله) سواء بإطلاقها أو بإضافتها للمؤمنين، ثم (ولاية العباد) وتفاضل المؤمنين فيها واختصاص بعضهم بحسب الدرجات ثم ما يسميه (علامات الولاية) وهي مزيد الاختصاص في الدنيا والآخرة، وحفظ الوليّ من سلطان الشيطان، ..لة بالملأ الأعلى ووقوع الكرامات[3].

..قيقة لقد كان الحكيم الترمذي[4] مناسبةً طيبةً للكلام عن مفهوم

ابن منظور: لسان العرب ٣/٦٨٤.

فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٧٦٤ وما بعدها.

د/ عبد الفتاح بركة: الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية (مجمع البحوث الاسلامية) الجزء الثاني ص٢٤ - ٢٦.

هو الإمام محمد بن علي بن الحسن، عبدالله الترمذي الحكيم، المتوفى ٣٢٠ هجرية.. وضع لنفسه ترجمة ذاتية بعنوان (بدو الشأن) نشرها عثمان يحيى في مقدمة تحقيقه لكتاب (ختم الأولياء) وللترمذي ترجمات عدة في: طبقات الصوفية ص٥١ - حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٣ - تذكرة الحفاظ ٢/٦٤٥ - طبقات الشافعية ٢/٢٤٥ - لسان الميزان ٥/٣٠٨ - سير اعلام النبلاء ١٣/٤٣٩.

الولاية عند الصوفية، فهو من كبار أهل التصوف الذين عنوا بتحديد هذا المفهوم بكل دقة، ولعله أول من فرّق هذه التفرقة الذوقية بين: أولياء حق الله، وأولياء الله.. فبرغم أن كلاهما داخلٌ في دائرة الولاية لله، إلاَّ أن (وَلِيّ حَقّ اللهِ) هو القائم برعاية الحقوق وحفظ الجوارح وجهاد النفس، أما (وَلِيّ اللهِ) فهو الذي فُتِحَ له الطريق، وأشرق النور في قلبه بحكم: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] .

كذلك فقد كان الترمذي الحكيم هو أول من وضع ذلك التقسيم الرباعي لطبقات الأولياء، وهو التقسيم الذي ارتضاه الصوفية من بعده، وتناوله كُلٌّ منهم تناولاً خاصًا.. وهذه الطبقات الأربع للأولياء هي:

- طبقة الصادقين
- طبقة الصديقين
- طبقة المقربين
- طبقة المنفردين

ولهذه الطبقات علامات ودلائل، راح الحكيم يفصلها في معظم مؤلفاته التي تقرب من الثلاثين كتابًا ورسالةً، ليس من بينها مؤلفٌ واحدٌ يخلو من التعرض لحقائق الولاية.. وإن كان أشهر هذه المؤلفات جميعًا، هو كتابه (خَتْمُ الأَوْلِياء) الذي أحسن الدكتور عثمان يحيى صُنْعًا، حين ألحق بتحقيقه له مجموعة نصوص صوفية في الولاية، تبتدئ من القرن الأول للهجرة وحتى القرن التاسع منها[2] . فقد أتاحت لنا هذه النصوص، الإلمام بمختلف الدلالات

= ومن أفضل الدراسات حول تصوفه بحثان، الأول (الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية) للدكتور عبد الفتاح بركة، والثاني (المعرفة عند الحكيم الترمذي) لعبد المحسن الحسيني.. وهناك قائمة طويلة من المؤلفات المنشورة للحكيم الترمذي، معظمها في طبعات محققة.

(١) الحكيم الترمذي: ختم الأولياء، تحقيق د/ عثمان يحيى (المطبعة الكاثوليكية - بيروت) ص ١١٧ . والآية الشاهد من سورة العنكبوت رقم ٦٩ .

(٢) د/ عثمان يحيى: الملحق التاريخي لكتاب ختم الأولياء، ص٤٤٩ وما بعدها.

الصوفية للفظ (الولاية) وهي الدلالات التي تتسع لتشمل غايات الطريق الصوفي بأسرها. كما أتاحت النصوص معرفة تطور المفهوم الذوقي للكلمة عبر القرون الطوال؛ ففي القرن الأول كانت مفاهيم الولاية مرتبطة بظاهر النص القرآني، فنجد في الحديث الشريف الذي يرويه أبو مالك الأشجعي أن الأولياء هم: نَفَرٌ من أبناء الناس ونُزَّاع القبائل، تحابوا في الله وتصافوا في الله، تُوضع لهم يوم القيامة منابر من نور، يفزع الناس وهم لا يفزعون، فهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[١].

ثم بدأت النظرة الصوفية العميقة تجول في مفاوز الكلمة، لتتكشف المعاني البعيدة لها. يقول ذو النون المصري في الولاية والأولياء: إن لله عبادًا نصبوا أشجار الخطايا نصب أعينهم، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندمًا وحزنًا، فجنّوا من غير جنون، وتبلدوا من غير عيٍّ ولا بكم، وإنهم لهم البلغاء الفصحاء العارفون بالله وبرسوله.. ثم شربوا بكأس الصفا.. وعبروا جسور الهوى.. حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز[٢].

ويصف أبو سعيد الخرّاز أهل الولاية فيقول: واعلم أن الواصلين إلى الله عز وجل، وأهل القرب منه، الذين قد ذاقوا طعم محبة الله تعالى بالحقيقة.. لما غلب على قلوبهم الإيثار لله والقرب منه؛ فهم عاملون به بلا مؤونة، بل بلا تشاغل بالأعمال الظاهرة؛ والقلوب بعد ذلك ذاهلة، بل هي بالله مشغولة[٣].

ومع مطلع القرن الرابع الهجري، يأتي الحكيم ليفصل معظم النقاط المتعلقة بالولاية والأولياء ـ كما أسلفنا ـ تاركًا من بعده يدورون في الفلك الذي رسمه، في محاولة منهم لإبراز الدقائق الخاصة بحقيقة الولاية. فمن هذه الدقائق (حراسة الأولياء للكون وتصرفهم فيه) وهو ما أشار إليه عمار

---

(١) القصد والرجوع إلى الله، مخطوط جار الله رقم ١٧٢٨، ورقة ١٠٩ب (الملحق التاريخي ص٤٤٩).

(٢) اليافعي: نشر المحاسن الغالية ص١٣٥.

(٣) الخراز: كتاب الصدق: تحقيق د/ عبد الحليم محمود (دار المعارف ١٩٨٠) ص١١٦.

البِدْليسي بقوله في الولاية: وَلَهَا مَقَامُ الْحِرَاسَةِ والْحِفْظِ، فَهِيَ عَلَى أي أَمْرٍ سَلَّطُوهَا، أَظْهَرَتْ قُوَّتَهَا وَأَتَمَّتْ فِعْلَهَا وَأَتْقَنَتْ حِفْظَهَا وَحِرَاسَتَهَا[1]. ومن هذه الدقائق أيضًا، مرور الأولياء بهذه المراحل الثلاث التي يُشير إليها نجم الدين كُبْرى قائلاً: والولاية إنما تتم في الدرجة الثالثة.. الدرجة الأولى التلوين، الدرجة الثانية التمكين، والدرجة الثالثة التكوين.. وكما أن الوليَّ يُؤْتَى بإسم الله الأعظم، فكذلك يَعْرِفُ اسمه وكنيته في الغيب، وأسامي الروحانيين من الجن والملائكة[2].

ويأتي الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، ليجعل من الولاية (الدَّائِرَةُ الْكُبْرَى) التي يتولى الله فيها من شاء من عباده الذين تتفاوت مراتبهم ودرجاتهم، وتتنوع أسرارهم وتجليات الله عليهم. وفي هذه الدائرة الكبرى للولاية عند ابن عربي نجد الرسل والأنبياء والأقطاب ورجال العدد ورجال الغيب، وهي المراتب التي تعرض لها الشيخ الأكبر في مؤلفاته الكبرى ـ كالفتوحات المكية ـ وفي رسائله الصغرى التي لا يكاد يبلغها الحصر.

وبعد ابن عربي جاء تلاميذه وأتباعه ووضعوا المزيد من الرسائل في الولاية، حتى تكثفت مفاهيم هذه اللفظة وتزايدت، وأصبح من الممكن أن تُصاغ في إطارٍ تنظيميٍّ هائلٍ، هو ما يُعرف باسم (الحكومة الباطنية) التي ظهرت في القرون المتأخرة اعتمادًا على الترتيب الطبقي للأولياء، ورياسة القطب لهم.

وأخيرًا.. فلعل الدلالة التامة والمفهوم الأعم لهذه اللفظة، يكمن فيما أجمله داود القيصري في شرحه على التائية الكبرى حين يقول:

إِعْلَمْ أَنَّ الْوِلاَيَةَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْوَلِيِّ، وَهُوَ الْقُرْبُ. وَلِذَلِكَ يُسَمَّى الْحَبِيبُ وَلِيًّا.. وَهِيَ عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، الْعَامَّةُ حَاصِلَةٌ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا،

---

(١) صوم القلب للبِدْليسي، مخطوط برلين رقم ٣١٣٣، ورقة ٢٠أ (الملحق التاريخي ص٤٧١).

(٢) فواتح الجمال لنجم الدين كُبْرى، نشرة فرتيز ماير ص٨٢ (الملحق التاريخي ص٤٧٣).

وَالْخَاصَّةُ هِيَ الْفَنَاءُ فِي اللهِ ذَاتًا وَصِفَةً وَفِعْلاً.. وَهِيَ عَطَائِيَّةٌ وَكَسْبِيَّةٌ، فَالْعَطَائِيَّةُ تَحْصُلُ بِالانْجِذَابِ إِلَى الْحَضْرَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ قَبْلَ الْمُجَاهَدَةِ، وَالْكَسْبِيَّةُ مَا يَحْصُلُ بِالانْجِذَابِ إِلَيْهَا بَعْدَ الْمُجَاهَدَةِ[1].

ولقد توقف الإمام الجيلاني عند حقائق الولاية، وأشار إليها مرارًا في أشعاره ومقالاته، كما ألمح إليها في كلامه لمريديه وفي غُنية الطالبين. ومن خلال هذا المجموع من آثار الإمام، يمكننا تحديد نظرته للولاية والأولياء، في النقاط التالية..

الولاية عند الإمام الجيلاني:

إن أول ما يستلفت النظر في إشارات الإمام الجيلاني للولاية، هو تأكيده المتوالي على أنها منحة إلهية يختص الله بها بعض المتقربين إليه من العباد، فعندما سأله بعض معاصريه قائلين: إنّا نصوم مثلما تصوم، ونصلي مثلما تصلي، ونجتهد مثلما تجتهد، وما نرى من أحوالك شيئًا! قال لهم: «زاحمتموني في الأعمال، أتزاحموني في المواهب»[2]. وهذه الموهبة الربانية للأولياء، اختصاصٌ إلهي اصطفى فيه الخالق أهل الولايات قبل وجودهم الزماني! فهم أولياؤه في علمه الأزلي السابق، حتى يأتي أوان بروزهم الدنيويّ. وهذا ما ألمح إليه الإمام مرارًا في شعره، حين أشار إلى أن الولاية استحقاقٌ أزليٌّ من عالم الذّرّ الذي خاطب الله فيه أرواح البشر وأخذ عليهم الميثاق بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[3] ففي هذا الخلق الأول تراءت الأرواح للخالق فاصطفى منها صفوة الصفوة.. يقول الإمام:

وَلَنَا الوِلَايَةُ مِنْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ... رَشَقَتْ قُلُوبَ الْمُنْكِرِينَ سِهَامُنَا[4]

---

(١) شرح مقدمة التائية الكبرى لداود القيصري، مخطوط آيا صوفيا رقم ١٨٩٨ ورقة ١٠٣أ - مخطوط بيازيد رقم ٣٧٥٠ ورقة ٢٠٩ ب (الملحق التاريخي ص٤٩٤).

(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص٥٨.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٧٢.

(٤) الجيلاني: قصيدة رفعت على أعلى الورى (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيت التاسع.

وحين يعبر الإمام عن حقيقته باعتباره قطبًا للأولياء، يُرجع هذه القطبية إلى هذا الخلق الأول الذي يدعوه (قَبْلَ القَبْلِ) فيقول في قصيدة أخرى:

أَنَا كُنْتُ قَبْلَ الْقَبْلِ قُطْبًا مُبَجَّلاً   تَطُوفُ بِيَ الأَكْوَانُ وَالرَّبُّ سَمَّانِي[١]

وهكذا يتنعم الولي بهذه العناية الإلهية، فيظل سائرًا عبر مراحل الطريق إلى الله حتى يدنو ويقترب، فيشاهد حقيقة الاجتباء الذي خصَّه الله به في الأزل. ومن هذه الزاوية اعتبر عبد الكريم الجيلي أن الولاية هي الأجر غير الممنون الذي جاء ذكره في قوله ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٢] فاستند في تأوله للآية، إلى قول الإمام الجيلاني:

مَا زِلْتُ أَرْتَعُ فِي مَيَادِينِ الرِّضَا   حَتَّى بَلَغْتُ مَكَانَةً لاَ تُوهَبُ[٣]

فاعتبر الجيلي أن قول الإمام (لاَ تُوهَبُ) هو إشارة إلى الاستحقاق الأزليّ للولاية التي نالها أهل الاجتباء بحقائقهم وليس بسعيهم[٤]. إلاَّ أن السعي والتقرب بالفرائض والنوافل، ضروريٌّ لإزاحة حجب الحس عن قلب الوليّ، فيشهد آنذاك عناية الله السابقة فيه.

والحقيقة فإن الإمام الجيلاني لم يكن أول من أشار إلى هذه الحقيقة الذوقية، فبرغم تكرار إشارته إليها في غير موضع، إلاَّ أنها وردت في عبارة مفردة لأبي يزيد البسطامي، تضمنت هذا المعنى الدقيق. يقول ابو يزيد (توهمتُ أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه.. فلما انتهيتُ رأيتُ ذكره ـ تعالى ـ سبق ذكري، ومعرفته سبقت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي أولاً حتى طلبته..)[٥] ولهذا فقد كانت عبارة البسطامي سبيلنا لفهم قول

---

(١) الجيلاني: قصيدة على الأولياء (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيت الثالث.

(٢) سورة التين، آية ٦.

(٣) الجيلاني: قصيدة ما في الصبابة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيت العاشر.

(٤) عبد الكريم الجيلي: الإنسان الكامل ٢/١٥.

(٥) حلية الأولياء ١٠/٣٤ ـ مرآة الزمان ص٢٠٦ ـ طبقات الصوفية ص١٦.

الامام الجيلاني في الغوثية: نِعْمَ الطَّالِبُ أَنَا، وَنِعْمَ المَطْلُوبُ الإِنْسَانُ[1].

وثمة حقيقة أخرى تخص الولاية، لا يفتأ الإمام الجيلاني يذكرنا بها؛ وهي الحقيقة الخاصة باقتران الولاية بالابتلاء، فهو يجعل من البلاء طريقًا لوصول الأولياء إلى مراتب الاستحقاق الأزليّ، فالعبد إذا كان من المُختارين للولاية، فلا بد له من البلاء ليصفي ما به من خَبَثِ الهوى والميل إلى الطباع وشهوات النفس والوقوف مع الخلق، فيبتليه الله حتى يذوب ذلك كله ويخرج من قلبه، ولا يبقى غير الله عز وجل[2].

ولا يجب أن نفهم مطلق الابتلاء على أنه افساحٌ لظهور حقيقة الوليّ، فما ذلك إلاّ أحد ضروب الابتلاء الثلاثة التي يعددها الإمام الجيلاني في: الابتلاء عقوبة لمعصية، الابتلاء تكفيرًا وامتحانًا، ثم الابتلاء لارتفاع الدرجات وبلوغ المنازل العاليات لمن سبقت لهم عناية الله.. وكما اسلفنا، فإن لكل ابتلاء من هذه الثلاثة علامات، فعلامة ابتلاء العقوبة (عدم الصبر والشكوى للخلق) وعلامة الابتلاء تكفيرًا وتمحيصًا (وجود الصبر من غير شكوى) أما الابتلاء لارتفاع الدرجات وبلوغ المرتبة، فعلامته الرضا والموافقة لفعل الله[3].

ولم يترك الإمام الجيلاني هذه النقطة تغمض عن الأفهام، بل عني ببيان أصولها الشرعية من الكتاب والسنة، واستدل بجملة آثار تشهد بصدق اقتران الولاية بالابتلاء، ولعل أوضح هذه الآثار وأكثرها انطباقًا على رأي الإمام، قوله صلى الله عليه وسلم: «أَشَدُّ النَّاسِ ابْتِلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ»[4].

---

(١) الجيلاني: الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٢) انظر، فتوح الغيب ص٦٨، ١٠٩، ١٢٠، ١٢٨، ١٥٩ - الفتح الرباني ص٩، ٣٨، ٢٧٥.

(٣) الجيلاني: فتوح الغيب ص١١٠، ١١١.

(٤) حديث صحيح مشهور متداول، لا تخلو منه كتب المحدثين.. أخرجه الترمذي في الزهد ٥٧ - والبخاري في المرضى ٣ - وابن ماجه في الفتن ٢٣، والدارمي في الرقاق ٦٧ وابن=

وحين يتعرض الإمام لبيان أحوال أهل الولاية وأوصافهم، نراه يصرح حينًا ثم يُشير ويُلمح أحيانًا. وهو يعمد إلى التورية ليحمل المعنى على أبعد المفهومين، ويصف الأولياء بأنهم: الموتى ـ النيام ـ الصم البكم العمي! فأولياء الله ماتوا خمس مرات، الأولى عن الحرام، والثانية عن الشبهة، والثالثة عن المباح، والرابعة عن الحلال المطلق، والأخيرة عن كل شيء سوى الله.. فبهذه الموتات عاشوا بالإضافة إلى الحق، وفنوا عما سواه[1]؛ ولهذا دعا الإمام الجيلاني أهل المحبة والفقر لأن يسعوا بقدم الصدق مهرولين عن الدنيا والآخرة، ولأن يموتوا في اليوم ألف مرة[2].

والأولياء هم النيام المستغرقون في رؤى المشاهدات، المستسلمون لتصريف الحق فيهم وتقليبه لهم كيف شاء. وذلك هو الفناء التام وغياب البقاء الأول استعدادًا لقبول تجليات البقاء الثاني في الله؛ فالبقاء الأول خَلْقٌ مشترك تتوزع فيه النظرات إلى تماثيل الوجود، أما البقاء بعد الفناء فهو خَلْقٌ مفرد للهِ فقط[3].. ومن هنا جاء الخطاب الفَهَواني من الحَضْرة الإلهية للإمام الجيلاني ليقول: يَا غَوْثَ الأَعْظَمِ، نَمْ عِنْدِي ـ لاَ كَنَوْمِ الْعَوَامِ ـ تَرَانِي[4].

وأولياء الله بالإضافة إلى الخلق (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) فهم وقد قربت قلوبهم من الحق تعالى وتعلقت به، صار شاغلهم الشاغل فلا يسمعون من غيره ولا يبصرون ولا يكلمون غيره، وليس لهم سعي إلاَّ إليه؛ فهم ـ كما يقول الإمام

= حنبل في المسند ١/١٧٣، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥، ٦/٣٦٩ ـ والحديث بعدة روايات في جمع الجوامع ص١٠٠٩، وفي الجامع الصغير بأرقام ١٠٥٤، ١٠٥٥.

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٨٧.

(٢) بهجة الأسرار ص٥٤.. وانظر المعاني المتعددة للموت ـ بمفهومه الصوفي ـ في تعليقاتنا الهامشية على مقالة الغوثية بديوان عبد القادر الجيلاني.

(٣) راجع تأويل الإمام الجيلاني لقوله تعالى ﴿ثم أنشأناه خَلقًا آخر﴾ (سورة المؤمنون، آية ١٤) بالفصل السابق من هذا الحديث.

(٤) الجيلاني: الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

ـ بين الجلال والجمال لا يميلون، لَهُمْ أَمَامٌ بِلاَ وَرَاء[1] .. فهؤلاء الصم البكم العمي، هم حُجّة الله على الخلائق يوم القيامة[2].

ثم يصرح الإمام الجيلاني بوصف أهل الولاية، ويعدد سماتهم وحقائق أحوالهم في كلام مطوّل يصفهم فيه بأنهم: أبدال الأنبياء وسفراء الحق إلى الخلق[3]، آحاد الأفراد ونزاع العشائر وشحنة العباد والبلاد الذين بهم يندفع البلاء وبهم يُمطر الله السماء وينبت الأرض[4]، السائرون إلى الله بالله الذين حصلوا الرفيق قبل الطريق فظلوا في المشاهدة وأبحر الوصل عليهم واردة[5]، المتأدبون الذين لا يتحركون ولا يخطون إلاّ بإذنٍ صريحٍ من الله لقلوبهم، أعقل خلق الله وإذا رآهم الجاهل قال عنهم مجانين[6] .. وهم الذين استحقوا الوصل بصبرهم على بعض الهجر[7].

ثم يصوغ الإمام سمات الأولياء وصفاتهم شعرًا، فيقول في بعض أبيات قصيدته الخمرية:

رِجَالٌ خَيَّمُوا فِي حَيِّ لَيْلَى	وَنَالُوا فِي الْهَوَى أَقْصَى مَنَالِ
رِجَالٌ فِي النَّهَارِ لِيُوثُ غَابٍ	وَرُهْبَانٌ إِذَا جَنَّ اللَّيَالِي
رِجَالٌ فِي هَوَاجِرِهِمْ صِيَامٌ	وَصَوْتُ عَوِيلِهِمْ فِي اللَّيْلِ عَالِي
رِجَالٌ مَا الْتَهَوْا عَنْهُ بِشَيْءٍ	وَمَا اخْتَارُوا قُصُورًا فِي عَوَالِي
رِجَالٌ لاَ يُضَامُ لَهُمْ نَزِيلٌ	وَلاَ يَشْقَى الْجَلِيسُ وَلاَ يُبَالِي
رِجَالٌ سَائِحُونَ بِكُلِّ وَادٍ	وَفِي الْغَابَاتِ فِي طَلَبِ الْوِصَالِ[8]

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٥.

(٢) الجيلاني: الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٦١، ١٦٢.

(٤) المرجع السابق ص ٤٤.

(٥) الجيلاني: مقالة الاسم الأعظم (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٦) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٨، ٤٢.

(٧) الجيلاني: عقيدة الباز الأشهب (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٨) الجيلاني: القصيدة الخمرية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

مراتب الأولياء:

ظهرت فكرة الترتيب الطبقي للأولياء مع فجر التصوف، وأفاض الصوفية المتقدمون في بيان طبقاتهم وتوالي الدرجات الروحية الممتدة من القطب وحتى أدنى مراتب السُّلم الرُّوحي. ويبدو الإمام كما لو كان مقرًّا بهذا التفاوت الذوقي في مراتب الأولياء إلاَّ أنّه لم يتعرض لبيان طبقات أهل الولاية بالتفصيل، وإنما أشار لذلك إشارة مفردة تجمع الواصلين في أربعة مقامات:

- البدلية
- الغوثية
- القطبية
- الصديقية[1]

وهذه المقامات هي غايات طريق الولاية، وآخر سعي المتقربين المقربين إلى الله. فإذا كنا قد خصصنا الفصل الأخير من هذا الباب لتناول موضوع (القطبية) الذي يتصل اتصالاً وثيقًا بالغوثية والصديقية، فإنه يبقى هنا أن نتحدث عن البدلية، وعن الأبدال كما يراهم الإمام الجيلاني.

البدلية مرتبة عالية في الولاية، فإن كان عموم أهل الولاية يأخذون بأمر الله بشهادة الكتاب والسُّنَّة، فالخصوص من الأبدال يأخذون بفعل الله تفويضًا وتسليمًا[2]، فالبدلية حالة المحو التام والفناء في الحق[3]. ومن هنا سمي الأبدال أبدالاً، فهم الذين تبدلت إرادتهم بإرادة الحق عز وجل، فلا يختارون مع اختياره تعالى اختيارًا[4].. وتلك هي حالة التفويض التام التي عبر الإمام

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص٤٦.
(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٨٠.
(٣) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢٨.
(٤) الجيلاني: الفتح الرباني ص٤٠ ـ فتوح الغيب ص١٥.

عن مقامه فيها بقوله:

أَصْبَحْتُ لاَ أَمَلاً وَلاَ أُمْنِيَةً ... أَرْجُو وَلاَ مَوْعُودَةً أَتَرَقَّبُ[1]

وهكذا يقصر الإمام الجيلاني اشتقاق لفظ الأبدال على (تبدل الإرادة) وهو ما لا نراه عند غيره من الصوفية الذين ذهب بعضهم إلى أن الابدال تسموا بذلك لتعدد صورهم وتبدلها، وذهب البعض الآخر إلى القول بأن سبب التسمية هو أن البدل إذا ما فارق مكانه خلفه فيه شخص آخر على صورته بدلاً منه.. الخ[2]، وإن كان هذا الخلاف حول تسمية الأبدال لا يقع على المفهوم الصوفي لهذه الطبقة عند غالبية أقطاب الطريق الذي نظروا إلى أهل هذه المرتبة باعتبارهم من خواص الواصلين. وهي النظرة التي أنكرها مخالفو الصوفية باعتبارها غير ذات أصل، فرد عليهم السيوطي جامعًا الأحاديث الشريفة والآثار الواردة في شأن الأبدال، ووضعها في كتابه: الْخَبَرُ الدَّالُ عَلَى ذِكْرِ الأَبْدَالِ[3].

ويجمع الصوفية ـ ومن بينهم الإمام الجيلاني ـ على أن الصفة المميزة لأهل هذه المرتبة، هي زوى الأرض وطيّ المسافات.. باعتبار هذه الصفة واحدة من خوارق العادات التي يجعلها الله للمقربين الواصلين من عباده؛ وقد عبّر الإمام الجيلاني عن تحققه بهذه الصفة في العديد من أبياته الشعرية، منها:

سَائِرُ الأَرْضِ كُلُّهَا تَحْتَ حُكْمِي ... وَهْيَ فِي قَبْضَتِي كَفَرْخِ حَمَامِ
مَطْلَعُ الشَّمْسِ ثُمَّ أَقْصَى الْغُرُوبِ ... خُطْوَتِي وَأَقَلُّهَا بِاهْتِمَامِ[4]

وَمَطْلَعُ شَمْسِ الأُفْقِ ثُمَّ مَغِيبُهَا ... وَأَقْطَارُ أَرْضِ اللهِ فِي الْحَالِ خَطْوَتِي
أُقَلِّبُهَا فِي رَاحَتَيَّ كَأُكْرَةٍ ... أَطُوفُ بِهَا جَمْعًا عَلَى طُولِ لَمْحَتِي[5]

---

(١) الجيلاني: قصيدة ما في الصبابة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيت التاسع.
(٢) د/ الشرقاوي: الفاظ الصوفية ومعانيها ص٢٤.
(٣) المرجع السابق ص٢٥.
(٤) الجيلاني: قصيدة طف بحاني (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ١٣، ١٤.
(٥) الجيلاني: القصيدة الشريفة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ٢٤، ٢٥.

الأولياء بين الكرامة وسقوط التكاليف:

غالبًا ما تلتحق بأهل الولاية صفتان، الأولى حقٌّ خلعه الله عليهم تشريفًا وتكريمًا (الْكَرَامَةُ) والثانية باطلٌ توهمه أعداء التصوف ووسموا به أهل الطريق، وهو القول بإسقاط التكاليف الشرعية بعد الوصول.. ونبدأ بالصفة الأولى التي يُعرِّفها الإمام فيقول: الْكَرَامَةُ أَثَرُ انْعِكَاسِ نُورِ الْحَقِّ عَلَى قَلْبِ الوَلِيِّ مِنْ مَنْبَعِ النُّورِ الْكُلِّيِّ بِوَاسِطَةِ الفَيْضِ الإِلَهِيِّ، وَلاَ يَظْهَرُ ذَلِكَ عَلَى الوَلِيِّ إِلاَّ مَعَ عَدَمِ اخْتِيَارِهِ[1].. فبهذا النور والتأييد الإلهي يجري الله على يد أوليائه الكرامات وخرق العادات.

ويعلل الامام الجيلاني اختصاص الأولياء بالكرامة وخوارق الأمور بأنهم المعدودون من العباد الذين تعدوا في عبادتهم وتقربهم ما عليه سائر الناس، فهم القُيَّام عند نوم غيرهم، الصُيَّام عند إفطارهم، الباذلون عند إمساكهم. فلا يزالون يخرقون عادات الخلق في تقربهم لله حتى تُخرق لهم العادات، ويصير خرق العوائد لهم عادة! يقول الإمام: خَرَقُوا الْعَوَائِدَ فَلاَ جَرَمَ أَنْ تُخْرَقَ لَهُمْ[2].

وإذا كان أصح الأحاديث الشريفة في إثبات صدق اتصاف الأولياء بالكرامة وخوارق العادات والتصرف في الأشياء، هو الحديث القدسي «لا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ.. وَيُصْبِحُ عَبْدًا رَبَّانِيًّا يَقُولُ لِلشَّيءِ كُنْ، فَيَكُون»[3] فإن الإمام الجيلاني ينطلق من هذا الأساس الشرعي ليقول في إيجازٍ موحٍ: بِسْمِ اللهِ مِنَ العَارِفِ، بِمَنْزِلَةِ كُنْ مِنَ اللهِ[4]. لكن الإمام يشترط لصحة الولاية إخفاء الكرامات، وهو الشرط الذي أكَّد عليه غيره من أقطاب التصوف، وعبر عنه هو في عبارة قاطعة تقول: كرامة الوليّ

---

(١) بهجة الأسرار ص٣٩.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٥٤، ١٠٣، ٢٧٣.

(٣) انظر تخريج الحديث فيما سبق.

(٤) الجيلاني: مقالة الاسم الأعظم (ديوان عبد القادر الجيلاني).

استقامة فعلٍ على قانون النبيّ[1]، وكما كتب الله على الأنبياء إظهار المعجزات، كتب على الأولياء كتمان الكرامات[2].

وفي إحدى اللطائف التي يرويها الشطنوفي واليافعي بإسنادٍ متصلٍ، قال الإمام يومًا: جاءني شابٌ من الشام يخطو في الهواء ليتوب على يديّ! فاعترض أحد السامعين وقال في نفسه: هذا الذي تكون خطوته من الشام إلى هنا، مِمّ يتوب؟ فالتفت الإمام إلى هذا المعترض وقال: يتوب من الخطو في الهواء[3]!

أما القول بإسقاط التكاليف بعد الوصول، فهو بدعةٌ لم يعرفها أهل الطريق الصوفي، وأجمعوا على كفر القائلين بها. وحين تعرض الإمام لهذه المقولة، رفضها بعبارة قوية لا تحتمل تأويلاً فقال: لاَ تَسْقُطُ الفَرَائِضُ عَنْ أَحَدٍ فِي حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ[4].

فإن قال قائل: وكيف يمكن لأهل الغيبة والفناء أن يلتزموا بظاهر الشرع مع كمال استغراقهم ودهشتهم في مقام الفناء؟ فإن الإجابة على هذا التساؤل متضمنة في العديد من إشارات الإمام لحقيقة الفناء.. فقد اقتضت حكمة الحق تعالى ألاّ يُقيم الواصل إليه في حضرة الفناء إقامةً دائمةً، ولا يُفرط أهل المحبة في البقاء بحضرة القرب طويلاً، بل يُرجعهم في أوقات مجيء الأمر والنهي حتى لا يخرقوا حدًا من حدود الشرع، لأن ترك العبادات المفروضة ـ كما يقول الإمام ـ زَنْدَقَةٌ[5].

وبخصوص هذه النقطة أذكر أنني سألت احد مشايخ القادرية المعاصرين، هو الشيخ مصطفى حلمي القادري، عن الداعي لإقامة فروض العبادة التي

---

(١) بهجة الأسرار ص٣٩.
(٢) الجيلاني: الغنية ١٢٧٨/٣.
(٣) بهجة الاسرار ص٥٩ ـ خلاصة المفاخر ورقة ٦٣ ب.
(٤) الجيلاني: الفتح الرباني ص٤٠.
(٥) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢٣.

يتقرب بها الواصل ـ ما دام قد وصل.. فانتفض وقال: لا بد من الصحو مع المحو، ولو كان قطب الاقطاب؛ لا بد من إقامة ناموس الشريعة حتى تصح منه القدوة، ولا بد من الصلاة حتى لا يتعطل أمر الله فيه بل لا بد وأن يضاجع زوجه.. لأن الله يحب أن يُؤتَى كل ذي حقٍّ حقه، فإن ضَيَّعَ قطب الأقطاب الحقوق، فمن بعده يحافظ عليها؟!

ويشير الإمام الجيلاني إشارة ذوقية في هذا المجال، مفادها أن السقوط يكون على الحقيقة لمؤونة التكاليف الشرعية، وليس لهذه التكاليف ذاتها.. فإذا كانت عبادة المبتدئ (مُجَاهَدَةٌ) فإن عبادة الولي الواصل (مَوْهِبَةٌ)[1] ولهذا كانت الصلاة راحة النبي وقرّة عينه[2]. ويروي الإمام الجيلاني أن أحد الصالحين اعترض على عبدٍ من عباد الله في أمرٍ، فعاقبه الله بأن حرمه قيام الليل ستة أشهر[3].. وهكذا يؤكد الإمام الجيلاني على أن حفظ الحدود شرطٌ في البداية والنهاية معًا[4]، فإذا ظن عبد من العباد أنه خليق بإسقاط التكاليف لأنه وصل، فقد وصل إلى سقر.

وأخيرًا، فكيف يمكن للصوفي مهما بلغ وصوله أن يسقط الفرض الذي لم يحدث أن أسقطه أقرب الخلق إلى الله.. الأنبياء.

الولاية والنبوة:

لما رأى الجُهَّال تعظيم أهل الطريق للأولياء، اتهموهم بأنهم يرفعون الوليّ لمرتبة فوق النبيّ. وكانت هذه التهمة تُلاحق العديد من أقطاب التصوف،

---

(١) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٦٩.

(٢) الحديث: «أرحنا يا بلال بالإقامة لندخل في الصلاة».
الحديث: .. «وجُعلت قرة عيني في الصلاة».
(حديثان صحيحان متفق عليهما، انظر تخريجها في باب إقامة الصلاة بالكتب التسعة).

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص١١٨.

(٤) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٣٨.

فظلت تطارد محمد عبد الحق بن سبعين حتى وفاته سنة ٦٦٩ هجرية، وظلت تطارد شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي حتى قتلته بقلعة حلب سنة ٥٨٦ هجرية.

وكان موقف الإمام الجيلاني من الرابطة بين الولاية والنبوة واضحًا في جملته وتفصيلاته، فهو يؤكد - بما لا يدع مجالاً لتأويل - على أن الولاية هي ظل النبوة(١)، وأن الأولياء الكبار الخلص أصحاب الأسرار، انما نالوا ما نالوه من كونهم قد أشرفوا على عتبة الأنبياء(٢).

أما كون الأولياء قد اختصوا ببعض الإشارات النبوية، وحظوا ببعض الكرامات التي هي من جنس معجزات الأنبياء، فذلك لأنهم (ورثة) الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الحديث الشريف(٣)، ولأن لكل وليٍّ بعض المشارب من نبيٍّ من الأنبياء. وفي بيان هذه الدقيقة يقول الإمام: كُلُّ وَلِيٍّ عَلَى قَدَمِ نَبِيٍّ، وَأَنَا عَلَى قَدَمِ جَدِي صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم، وَمَا رَفَعَ المُصْطَفَى قَدَمًا إلاَّ وَضَعْتُ أَنَا قَدَمِي فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي رَفَعَ قَدَمَهُ مِنْهُ، إلاَّ أَنْ يَكُونَ قَدَمًا مِنْ أَقْدَامِ النُّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ لاَ سَبِيلَ أَنْ يَنَالَهُ غَيْرُ نَبِيٍّ(٤). ويقول شعرًا:

وَكُلُّ فَتىً عَلَى قَدَمٍ وَإِنِّي ... عَلَى قَدَمِ النَّبِي بَدْرِ الْكَمَالِ(٥)

ويقصد الإمام الجيلاني بالقدم هنا، القدوة والاتباع؛ فالتصوف عنده مبنيٌّ على ثمان خصال مستمدة من أحوال الأنبياء، وهذه الخصال هي: السخاء (لإبراهيم) الرضا (لإسحق) الصبر (لأيوب) الإشارة (لزكريا) الغُربة (ليوسف) لبس الصوف (ليحيي) السياحة (لعيسى) والفقر للنبي محمد صلى

---

(١) بهجة الأسرار ص٣٩.

(٢) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٤٢.

(٣) الحديث: «العلماء ورثة الأنبياء» (متفق عليه).

(٤) بهجة الأسرار ص٢٢.

(٥) الجيلاني: القصيدة الخمرية (ديوان عبد القادر الجيلاني) بيت ٣٨.

الله عليه وسلم[١].. ومن هنا نفهم قول الصوفية عن وليٍّ من الأولياء انه عيسويٌ أو يوسفيٌ، بمعنى أنه على قدم هذا النبي وعلى ترسم خطاه يمضي في الطريق للولاية، أما (المحمدي) فهو وصفٌ لقطب الأقطاب الذي تحقق بالكمالات المحمدية المتاحة للورثة المحمديين. وبهذا فإن الأولياء - كما يقول الإمام - أبدال الأنبياء وخلفاؤهم في الخلق[٢].

وفي فضل النبوة على الولاية[٣]، يرى الإمام أن النبوة كلامٌ إلهي ووحيٌ منه مَنْ يردُّه فهو كافرٌ، أما الولاية فهي حديثٌ ربّاني وإلهامٌ لمن تولاهم، فمَنْ ردَّه لم يكفر.. وانما يخيب ويُحرم من بركة أهل الله وأحبائه! كذلك فالأنبياء هم مصادر الحق، أما الأولياء فهم مظاهر الصدق[٤].

وثمة فارقٌ مهمٌ يفصل بين الولاية والنبوة، يتعلق بالعصمة. فقد تعرض الإمام لهذه النقطة مرارًا، وفرّق بين العصمة في الإرادة والهوى، والعصمة من وقوع الذنب. فنراه حول العصمة الأولى يقرر بأن الملائكة وحدهم هم المعصومون من الإرادة، والأنبياء وحدهم هم المعصومون عن الهوى، وبقية الخلق لم يعصموا منهما.. غير أن الأولياء يُحفظون عن الهوى، والأبدال منهم عن الإرادة، لكنهم - طبقا لتعبير الإمام - يُعصمون منهما على معنى يُجوّز في حقهم الميل إليهما أحيانًا، ثم يتداركهم الله عز وجل ويوقظهم برحمته[٥]. أما العصمة من وقوع الذنوب، فقد قصرها الإمام على الأنبياء وحدهم، وقال في وضوح: لاَ مَعْصُومَ فِي الْعَالَمِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ[٦].

---

(١) الجيلاني: الوصية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٦١.

(٣) في تأكيد ارتفاع مرتبة الأنبياء على الأولياء، ينقل الشطنوفي عن الإمام قوله: أول أحوال الأنبياء، غاية مراقي اقدام الأولياء.. بداية أفعال الرسل، أقصى معارج همم العارفين (بهجة الأسرار ص٢٩).

(٤) الغنية ٣/١٢٧٦ - بهجة الأسرار ص٣٩.

(٥) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٥، ١٦.

(٦) المرجع السابق ص١٠٥.

ولم يتفرد الإمام الجيلاني بهذا الرأي القائل بعدم عصمة الوليّ، بل اجتمع على هذا القول سائر الصوفية الكبار الذين أكدوا على أن الأولياء متنعمون بعناية مولاهم، لكنهم مع ذلك غير معصومين[1]، وبهذا خالف الصوفية أهل التشيع القائلين بعصمة الأئمة. ولا ندري كيف تعنّت الدكتور كامل الشيبي وتعسّف لربط التصوف والتشيع، فلوى عنان أقوال الصوفية ليقول هو في استهلال كلامه عن العصمة: من الأمور التي لم يلتفت إليها الباحثون، توافق المتصوفة والشيعة في إسباغ العصمة على الأولياء والأئمة[2].

ونعود للإمام الجيلاني فنراه كثيرًا ما يُشير إلى أن الوليّ مُعرَّض للزلل، فهو إن أَمِنَ ذلك لم يكن محمولاً بجناحي الخوف والرجاء، فينقطع سيره وطيره إلى الله. ولقد ذكر مؤرخو حياة الإمام، أخبارًا عديدة عن انتكاس بعض الأولياء المعاصرين للإمام لمخالفتهم إياه.. فإذا كان الولي عرضة لانتكاس الحال والرجوع إلى مرتبة العوام، فكيف يكون معصومًا. فإذا كان الإمام الجيلاني من جملة أولياء الله، فهل لنا أن نتساءل عن خطأ عساه يكون قد وقع فيه؟ يقول اليافعي: اشتهر عن بعض الأكابر، وهو الشيخ الإمام عبد القادر، أنه كان يعتقد الجهة.. وقد استُغْرب ذلك منه وعُدَّ شاذًا؛ لكنه رجع آخرًا عما كان يعتقده أولاً[3].

وبرغم أن اعتقاد الجهة لم يرد في واحد من الآثار الباقية عن الإمام الجيلاني، وبرغم أنه يقرر في (العقيدة) خلاف ذلك[4]، إلاَّ أن ذلك لم يمنع

---

(١) يقول القشيري في رسالته: فإن قيل فهل يكون الولي معصومًا، قيل إما وجوبًا كما يقال في الأنبياء فلا، وإما أن يكون محفوظًا حتى لا يصر على الذنوب فلا يمتنع ذلك (الرسالة القشيرية ص١٧٥) ولا تكاد آراء الصوفية الآخرين تخرج عن هذا الإطار العام.

(٢) د/ كامل الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع ص٣٨٥.

(٣) اليافعي: نشر المحاسن الغالية ص٣٥١.

(٤) يقول الإمام في عقيدته: الحمد لله الذي.. أين الأين وتعزز عن الأينية، ووجد في كل شيء وتقدس عن الظرفية، وحضر عند كل شيء وتعالى عن العندية.. ان قلت أين، فقد طالبته بالأينية، الخ (ديوان عبد القادر الجيلاني).

اليافعي من ذكر هذا الخبر .. مما يعني اعتقاد اليافعي في عدم عصمة الإمام الجيلاني، رغم تعظيمه له وتخصيصه لمؤلفات مستقلة في فضله.

وأخيرًا فإذا كان الأولياء عند الإمام الجيلاني هم آحاد الأفراد وشحنة العباد والبلاد وأطباء الدين، فإن الأنبياء:

رُضَعَاءُ غَيْبِ الأَزَلِ، وَنُدَمَاءُ مُخَاطَبَةِ سِرِّ الْوَحْيِ، وَجُلَسَاءُ حَضْرَةِ الْقُدْسِ، وَسُفَرَاءُ وُجُوهِ الْحَقِّ.. مَا قَامَ رِوَاقُ عِزٍّ فِي الأُفُقِ الأَعْلَى، إلاَّ لِجَلاَلَتِهِمْ عُقِدَ لِوَاؤُهُ، وَلاَ سَلَكَ وَلِيٌّ سَائِرٌ إِلَى مَوْلاَهِ، إلاَّ كَانَتْ مَنَاهِجُهُمْ مَدَارِجَهُ[1].

وإذا كان الإمام الجيلاني قد تناول حقائق الولاية إجمالاً، وأشار إلى الأولياء إشارات جامعة، فإنه توقف طويلاً عند حقائق كل نبيٍّ من الأنبياء، وأفاض في التعبير عن مراتب الأنبياء في مجموعة مقالات ذوقية بلغت حد الروعة[2].

* * *

.. ويظل أهل الولاية تحت سماء القرب والوصول، معلقة عيونهم بنبع الأنوار الفياض، وقلوبهم دومًا في مراقبة التجليات؛ فتحصل عندهم غرائب المعارف بدقيق المشاهدات، وينالون خلعة المعرفة.

---

(١) بهجة الأسرار ص٤١.

(٢) وردت هذه المقالات الخاصة بالأنبياء في بهجة الأسرار (ص٢٦ وما بعدها) وقد أردنا أن نضمها إلى النصوص المحققة بديوان عبد القادر الجيلاني، ولكنه حال دون ذلك انفراد ورودها ببهجة الأسرار دون غيرها، وانعدام أية أصول أخرى يمكن أن نقابل ما جاء في البهجة عليها.

الفصل الثاني

المعرفة

حينما تنجلي مرايا القلوب ويصقلها صدق السير إلى الله وشوق الطير إليه بأجنحة المحبة، تكون تلك المرايا المجلوة محلاً لقبول دقائق المعارف الربانية التي يهدي الحق تعالى بها أهل القرب ليكون سيرهم في الله بالله. وإذا كان الصوفية يرون أن الوصول إلى الله هو الوصول إلى المعرفة به، فإنهم يفرقون بين العلم والمعرفة تفرقةً ذوقيةً، نرى أن نتعرض لها قبل الدخول في تفاصيل تجليات معارف القرب والوصول عند الإمام الجيلاني.

العلم والمعرفة:

برغم اقتران مفهومي العلم والمعرفة، إلاَّ أن الصوفية غالبًا ما يقصدون بالعلم ظاهر الحقائق وبالمعرفة بواطنها، ويبدو أن هذه التفرقة بين العلم والمعرفة قد ظهرت عند الصوفية في وقت متأخر، فالأوائل منهم لم يفصلوا في أقوالهم بينهما، بينما وضع الأواخر حدًا لها باعتبار (العلم) ما يأتي للعقل بالتحصيل وبذل والمجهود، أما (المعرفة) فهي ما يتأتى للقلب من الصفاء وقبول فيض عين الجود؛ كذلك فقد وضع الصوفية بين العلم والمعرفة برزخًا يفصل ما بين البحر والمحيط، هو المحبة التي اعتبروها: آخر طور من أطوار العلم، وأول طور من أطوار المعرفة[1].

(١) النابلسي: المعارف الغيبية (مخطوط) ورقة ١١٦أ.

والعلم الظاهر عند الصوفية، يكون بالدرس والتحصيل وإعمال العقل في الأمور، وهو حاصلٌ لسعي كل إنسانٍ بحسب اجتهاده. أما المعرفة فتكون للخاصة من أهل الله، بعد عروجهم الذوقي إليه وخلاصهم من الشواغل.. فلا طريق لأنوار المعارف إلاّ بعد خلاص القلب للرب، بحيث يتهيأ باطن الصوفي لتلقي إلهامات الحق تعالى.. وإلاّ فكيف يشرق قلبٌ، صور الأكوان منطبعةٌ في مرآته[1].

ولكل طبقةٍ من أهل الله علوم ومعارف، هي ثمارٌ لدرجات ومقامات مخصوصة ينتقل بينها العبد بقدر صدق حاله، وبقدر عناية الله السابقة فيه، فإذا التقى الصدق بالعناية، وبلغا المنتهى، وقع القلب على كنز لطائف المعارف، وكان جوهرة تاج الولاية وعرش تجلي الله. ولقد أشار أبو طالب المكي لهذا التدرج المعرفي بحسب مقامات الرجال بقوله «إن العبارة يعرفها العلماء، والإشارة يعرفها الحكماء، والرمز يعرفه الأولياء».. ومن وراء ذلك تكون لطائف المعارف التي ـ كما يقول المكي ـ لا يقع عليها إلاّ السادة من الشيوخ[2].

وإذا كنا قد توقفنا عند (العلم الظاهر) في استعراضنا لبداية السلوك، باعتبار هذا العلم واحدًا من أهم مقتضيات السير إلى الله عند الإمام الجيلاني وغيره من الصوفية، فإنه قد بقي لنا أن نتوقف عند مفهوم (المعرفة الباطنة) باعتبارها علامة على القرب والوصول، لنرى كيف تناول الإمام حقائق هذه المعرفة ومقاماتها.

★ ★ ★

(١) ابن عطاء الله: الحكم العطائية ص٣٨.

(٢) المكي: علم القلوب، تحقيق عبد القادر أحمد عطا (مكتبة القاهرة ـ الأزهر) ص ٧٥ وبخصوص صحة نسبة هذا الكتاب لأبي طالب المكي، يمكن الرجوع إلى: مقدمة محقق الكتاب ص٦، رسالة عبد الرحيم مذكور للماجستير ص٧٦، رسالة محمد عبده أحمد شراقة للدكتوراه ص٢٧.

إن أول ما يستوقفنا في كلام الإمام الجيلاني، هو تلك التفرقة الذوقية بين مراتب معرفية ثلاث، هي (الحُكم، العلم، المعرفة) فيقرر أن أول ما يطلع في قلب المؤمن (نجم الحُكم) الذي ينظر به إلى الدنيا وتصير نفسه مطمئنة، ثم يطلع (قمر العلم) الذي به يستهدي المؤمن إلى الآخرة ويأتي إلى الله بقلب سليم، ثم تشرق (شمس المعرفة) التي على نورها ينظر إلى المولى عز وجل بسره الصافي. فإذا وصل العبد إلى إشراقات المعارف، جمع بين اطمئنان النفس وسلامة القلب وصفاء السر، وتنعم آنذاك بأنوار القرب وكان من العباد العارفين الذين خلعوا ثياب السفر ونزلوا منازل التمكين، فصاروا مهبط علوم الإلهام وأسرار الرحمن.. فهم الذين تدور بأفلاك صدورهم أقمار العلم وشموس المعارف، فتمتلئ جنبات الكون إشراقًا بنورهم، وبهذا النور - طبقًا لقول الإمام - تستضيء الملائكة[1].

وللعارفين عند الامام الجيلاني سبعة مقامات، لكل مقامٍ منها أصول وفتوحات، فإذا اتبع العارف الأصل وأتمّه، فتح الله له به بابًا من أبواب مواهبه. وهذه المقامات العرفانية هي:

(١) تعلّم آداب الحضرة بالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حين عرج إلى السماء؛ وهي الآداب التي أشار بها المصطفى لأهل التمكين من أمته، وبها يبسط الله أسرار المُلك والملكوت والجبروت.

(٢) العجز عن الإدراك والإرتقاء بالهمة إلى الله والافتقار إليه؛ فبهذا ينفتح باب التمكين ويتحقق العبد بأنوار المشاهدات جملةً وتفصيلاً على صراط الكتاب والسنة، وهذا العارف هو الذي ينبغي الاقتداء بطريقته والاهتداء بحقيقته.

(٣) التوجه للمعارف اهتداءً، وذلك بالخروج من رق الأكوان؛ فبذلك

---

(١) بهجة الاسرار ص٧٨ - الفتح الرباني ص٢٥٨.

ينفتح باب الفكر وفهم الأسرار والتحقق بمكنون المكاشفات، وتتلقى أرواح المؤمنين تحية الله المباركة.

(٤) اتخاذ الجوع وصالاً، وذلك ما يفتح للعارف باب القوة الملكوتية فتستولي عليه الأنوار الصمدية ويصير طعامه (كلام الله) وشرابه (سُنَّة الرَّسول) فتتفجر في قلبه ينابيع الحكمة.

(٥) انفصال الأرواح عند المناجاة حالاً.. وهو ما يُفتح به باب الاسترواح وطيب الوقت وصفاء السر واستنشاق نسيم القرب من حضرة الوصال، وهذا العارف: كُلُّ أَوْقَاتِهِ صِلَةٌ، وَكُلُّ نَفَسٍ مُنَاجَاةٌ، وَكُلُّ لَحْظَةٍ مِنْهُ شُهُودٌ.

(٦) الوقوف مع التوحيد، وطمس البصائر عن غير الله. فبذلك يشهد العبد تمام الكمال الصفاتي الذي يكمن في حقائق الأسماء الإلهية، ويشهد اتصاف النَّبي بالكمال الأوفى[1].

(٧) ذكر سورة الاخلاص سرًا.. فبهذا الذكر يفتح باب التجلي الإلهي والاطلاع على ما سُطِّرَ في اللوح المحفوظ من أسرار الغيب[2].

وبهذه المقامات السبع تتكشف الحقائق المعرفية لأهل الوصول، وتتجلى المناظر الإلهية تنزلاً على بواطنهم، فيعرفون الله بالله، ويعرفون سواه به.. ولهذه المعرفة مظاهر وأقسام.

مظاهر المعرفة اللدنية:

تأتي المعرفة بالله على أنحاء شتى، جميعها استمدادٌ من التمكين في مقام القيام مع الله على بساط القرب. والإمام الجيلاني كثير الإشارة إلى هذه

---

(١) يجعل الصوفية من النَّبي صلى الله عليه وسلم، الإنسان الكامل بالاتفاق.. وهو الحقيقة التي يستمد منها الكاملون من أهل الطريق، فيلتحقون به لحوق الكامل بالأكمل (انظر ما سنقوله عن ذلك في الفصل التالي).

(٢) بهجة الاسرار ص٤٦ وما بعدها.

المظاهر المعرفية والأسرار الربانية التي تتجلى لأهل الوصول؛ وإن كانت إشاراته قد جاءت مشتتة بين أبيات قصائده ودقائق أقواله، فإنه يمكن جمع هذا الشتات في عقد واحد يجمع مظاهر هذه المعرفة في: الفِرَاسَةُ - الإِلْهَامُ والْحَدِيثُ - التَأْوِيلُ - الشُّهُودُ - الأَسْرَارُ.

(أولاً) الفِرَاسَة

الفراسة حقيقةٌ قرآنيةٌ جاءت في الآيات بلفظ التوسم[1]، ووردت في الحديث الشريف: «اتقوا فراسة المؤمن»[2].. ويرى أئمة الصوفية أن العارف إذا جالس واحدًا من الناس، اطلع على سره وتعرّف على ما يُخفيه بهذه الرؤية النورانية التي ينظر الولي فيها بنور الله، والتي هي موهبةٌ دائمةٌ يحظى بها العارف في كل الأوقات[3].

ولا يجعل الصوفية من الفراسة والإطلاع على خواطر الناس شرطًا لبلوغ مرتبة العارفين، فقد (يُطلع الله وليّه على غيب الملكوت، ويحجب عنه الإستشراف على بواطن العباد) وذلك ما ورد في الحِكْمة العطائية التي أعقبتها حِكْمة أخرى تقول: مَنْ اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية، كان اطلاعه فتنةً عليه وسببًا لجر الوبال إليه[4].

ويرى الإمام الجيلاني أن العارف بنفسه وربه، يطلع بنور معرفته على ما أضمرته قلوب العباد وما انطوت عليه نياتهم؛ فيصير الخلق بين يدي العارف صفحات مبسوطة؛ ومن هنا وصف الإمام العارفين بأنهم: جواسيس

---

(١) قوله تعالى ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾.. سورة الحجر، آية ٧٥.

(٢) الحديث: «إتقوا فراسة المؤمن، فإنه يرى بنور الله..» أخرجه البخاري في تاريخه والترمذي في غريب الحديث، وابن السني في الطب، وأبو نعيم في الحلية - وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع، فتعقبه السيوطي وقال: حسن صحيح (انظر، الجامع الصغير/ ١٥١ - جمع الجوامع ٢٤٦/ ٤٥٦).

(٣) د/ الشرقاوي: الفاظ الصوفية ص٢٥١.

(٤) ابن عطاء الله: الحكم العطائية ص١٩٣.

القلوب[1].. ولقد أشار الإمام الجيلاني إلى تحققه بهذه المعرفة، فقال لأهل مجلسه: لولا لجام الشريعة على لساني، لأخبرتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، أنتم بين يدي كالقوارير، أرى ما في بواطنكم ولولا لجام الحُكْم على لساني لنطق صَاعُ يُوسف بما فيه[2]، لكن العلم مستجيرٌ بذيل العالم كي لا يُبدي مكنونه[3].

وتتضمن عبارة الإمام جملة دقائق، فهي تُخبر أولاً بالتزام العارف ووقوفه بفراسته عند ظاهر الشرع، وهي تُشير ثانيًا إلى هذه (الرحمة الإلهية) التي ذكرها ابن عطاء الله السكندري من بعد، حيث يترفق العارف بعلمه فلا يُبدي مكنونه رحمةً منه وشفقةً على العباد.. ولهذا قالت الغوثية: يَا غَوْثَ الأَعْظَم، طُوبَى لَكَ إِنْ كُنْتَ رَؤُوفًا عَلَى بَرِيَّتِي، وَطُوبَى لَكَ إِنْ كُنْتَ غَفُورًا لِبَرِيَّتِي[4].

ويرى الإمام الجيلاني أن العارف صاحب الفراسة قد يطلع على عيوب العاصي، فتأخذه الغَيْرة ويشتد غضب باطنه، ولا يلبث أن يُبدي ظاهره هذه العيوب والأفعال التي كشفها الله له؛ مرّةً على وجه الإنكار للعاصي، ومرةً على وجه الموعظة له[5]. فتكون فِرَاسَة العارف واطلاعه، نفعًا للعاصين، وسببًا لاقلاعهم عما هم فيه.

وكانت الفِرَاسَة والاطلاع على الخواطر هبة إلهية خصّ بها الله الإمام الجيلاني، فكان كثير المكاشفة ببواطن أهل مجلسه، وكان كثيرًا ما يتكلم على ما يجول بخواطرهم، حتى أن بعض المؤرخين يصف الإمام بأنه: انتهت إليه

---

(١) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٧٢.

(٢) الإشارة هنا إلى القصة القرآنية الواردة في سورة يوسف، آية ٧٢.

(٣) بهجة الأسرار ص٢٤.

(٤) الجيلاني: الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٥) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٦٣.

الرياسة في الوعظ والكلام على الخواطر[١].. ولقد كانت مقالة (وصف القطب) وقصيدة (ما في الصبابة) إستجابةً من الإمام الجيلاني لخواطر جماعة ودوا لو سمعوا منه شيئًا عن حقائق القطبية، فبادرهم بذلك قبل أن يصرحوا بطلبهم[٢].

(ثانيًا) الإلهام والحديث

الإلهامُ خاطرٌ ربانيٌّ يتنزل بالحق على قلب العارف، وهو واحدٌ من ستة خواطر أشار إليها الامام الجيلاني في عدة مواضع من مؤلفاته. وهذه الخواطر هي (خاطر النفس ـ خاطر الشيطان ـ خاطر الروح ـ خاطر المَلَك ـ خاطر العقل ـ خاطر اليقين)[٣] فخاطر النفس يأتي بطلب الشهوات، وخاطر الشيطان يأتي بالكفر، والروح والمَلَك يرد خاطرهما بالحق وما يوافق العلم، ثم يتأرجح خاطر العقل بين الخير والشر.. إذ هو محل التكليف وموضع التصريف.

أما خاطر اليقين، فهو الإلهام المخصوص بخواص الأولياء العارفين، وهو لا يرد إلاَّ بحق ولا ينقدح إلاَّ بعلمٍ لدُني. والإمام الجيلاني يُطيل في وصف أصحاب خاطر اليقين من الأولياء، ويعدد كمالاتهم الإيمانية في نعوت عديدة، فهم عنده: خواص المحبوبين المرادين المختارين الفانين بالله الغائبين عن الظواهر، الذين انقلبت عبادتهم الظاهرة إلى الباطنة، فلهم بعد الفرائض والسنن المؤكدة، مراقبة لبواطنهم وملاحظة لتولي الله لهم وتربيته لهم بإلهاماته المتنزلة على قلوبهم.

ويضع الإمام لأهل الولاية ميزانًا للخواطر، ليتعرف به الوليّ على حقيقة ما يرد على قلبه، وذلك هو ميزان (الشريعة) التي تقف عند حدود الكتاب

---

(١) التادفي: قلائد الجواهر ص١٩ (والعبارة منقولة عن الذهبي في العبر وسير أعلام النبلاء).

(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص٨١.

(٣) انظر: الغُنية ٢/٤٨٢ ـ الفتح الرباني ص٢١ ـ بهجة الأسرار ص٦٦.

والسنة، مع اتباع الأمر والتبرؤ من الهمة والإرادة[١].. فالإلهامات لا يصح العمل بها إلاّ بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة! وهكذا يقف الامام الجيلاني بتصوفه - حتى في النهايات - على صراط الشريعة، ويؤكد مراراً وتكراراً على أن: كُلُّ حَقِيقَةٍ لاَ تَشْهَد لَهَا شَرِيْعَةٌ، فَهِيَ زَنْدَقَةٌ[٢].. وَكُلُّ إِلْهَامٍ لاَ يَشْهَد لَهُ ظَاهِرٌ، فَهُوَ بَاطِلٌ[٣].

ولا يختلف (الحديث) عن الإلهام في مفهومه الصوفي، فالحديث: خطابُ الحق من عالم الأسرار والغيوب، ينزل به الروح الأمين على قلوب العارفين[٤]. والإمام الجيلاني يكاد يطابق بين اللفظتين، فاصلاً بين مفهومها ومفهوم الوحي النبوي فيقول: الأنبياء يُربيهم الحق عزَّ وجلَّ بكلامه، والأولياء يربيهم بحديثه.. الحديث هو الإلهام في قلوبهم، لأنهم أوصياء الأنبياء وخلفاؤهم وغلمانهم[٥].

فإذا ما بحثنا عن الأصول الشرعية لما يقرره الإمام الجيلاني وغيره من الصوفية في إشارتهم للحديث والإلهام، وجدنا الحديث الشريف: لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي فَعُمَرُ بنِ الْخَطَّاب[٦].. وهو أشارة من النبي إلى (الحديث) ووجدنا قوله تعالى

(١) يقول الإمام الجيلاني: إن خطر خاطرٌ أو وُجد إلهامٌ فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيها تحريماً فادفع ذلك عنك ولا تعمل به، واقطع بأنه من الشيطان. وإن وجدت إباحة في شهوة أكل أو شرب أو نكاح مباح، فاهجره أيضًا واعلم أنه من إلهام النفس التي أمرت بمخالفتها، وإذا لم يكن في الكتاب والسنة تحريم ولا إباحة، بل هو أمرٌ لا تعقله، فتوقف عن العمل ولا تبادر حتى يتكرر ذلك الإلهام ويتأكد بعلامة تظهر من الله.. وخالف هواك واتبع الأمر الشرعي في الجملة (فتوح الغيب ص٢٦، ٢٧).

(٢) الجيلاني: الغنية ٣/١٣١٧.

(٣) بهجة الاسرار ص٦٨.

(٤) ابن عربي: اصطلاحات الصوفية ص١٨.

(٥) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٤.

(٦) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة/ ٦ والأنبياء/ ٥٤ - ومسلم في فضائل الصحابة/ ٢٣ - والترمذي في المناقب/ ١٧ - وابن حنبل في المسند ٦/٥٥.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1]. كإشارة من الحق تعالى لإلهامات المتقين.

وأخيرًا؛ فالإلهام والحديث يأتيان على ضروب متعددةٍ، منها الرؤية الصادقة والإملاء الإلهي والإلقاء الربّاني والنفث الروحاني في الروع. ولا تكون هذه الأمور إلاّ لخصوص الخصوص من أهل الله، فالإمام الجيلاني يرى الخلق ثلاثة: العاميٌّ (المُسلم المُتقي) والخَاصُّ (المؤمن العالم العامل) ثم خاص الخاص، وهم الأبدال الذين ينظرون بأمر الله عز وجل وإلهامه[2].. وما وراء هؤلاء الثلاثة، إلاّ أهل الهلاك والسقم.

(ثالثًا) التأويل

التأويل كلمة قرآنية ذات معان متعددة، فهي تعني: تعبير الرؤيا[3] وفهم الأحاديث[4] وإدراك الحقائق[5].. وتعني أيضًا (إدراك المراد من كلام الله تعالى في القرآن) كما في قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ ٱللهُ﴾[6]. وقد وردت هذه الكلمة في الحديث الشريف؛ ففي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان النبي صلّى الله عليه وسلم يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سُبْحَانَكَ اللَّهُم وَبِحَمْدِكَ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنُ، وفي حديث ابن عباس: اللَّهُم فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأويلَ[7].

فإذا وقفنا عند قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾[8] وقوله صلى الله عليه وسلم (يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنُ) نكون بذلك قد وقعنا على المراد الصوفي من

---

(١) سورة الشمس، آية ٨.
(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص٣١.
(٣) سورة يوسف، آيات ٣٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥،.
(٤) سورة يوسف، الآيتان ٦، ١٠١.
(٥) سورة الكهف، آية ٨٢.
(٦) سورة آل عمران، آية ٧.
(٧) ابن منظور: لسان العرب ١/١٣١، ٢/١٠٩٥ (وكلا الحديثين صحيح الإسناد).
(٨) سورة آل عمران، آية ٧.

التأويل كمظهرٍ من مظاهر المعرفة. فهو عند القوم هبةٌ إلهية، بها يُتأول القرآن وتُدرك معانيه بنورٍ ربانيٍّ يتجلى على قلب العارف، فيرى به ما لا حصر له من المعاني الخفية على العوام[1].

إلاَّ أن الإمام الجيلاني لم يقف بالتأويل عند كلام الله في القرآن فحسب، بل نراه وقد جاءته هذه الهبة المعرفية لا يكتفي بهذه التأويلات القرآنية المبثوثة بين ثنايا مؤلفاته بل نراه يقول أيضاً:

وَقَفْتُ عَلَى الإِنْجِيلِ حَتَّى شَرَحْتُهُ وَفَكَّكْتُ فِي التَّوْرَاةِ رَمْزَةَ عِبْرَانِي[2]

وهكذا يغوص العارف على درّ الحقائق الكامنة في كلام الله، فيستخرجها إلى ساحل صدره، فيتفرد بمعارف وعلوم، لا يحظى بها غير المقربين الواصلين.. ولهذا نرى الإمام يُقصر التأويل على أهله، ويمنع عنه المبتدئ في الطريق، فيقول لمريده: عليك بصدق الحديث، لا تتأول.. فالمتأول غادر[3].

وتجدر الإشارة أخيراً، إلى أن العارف حين يتأول الكلمات، لا يخرج بمعناها عن المفهوم العام، بل هو يقدّر تقديراً بعيداً يحتمله سياق الكلمات، دون أن يُغاير بتأويله ما يُبديه ظاهر اللفظ. والأمثلة على ذلك في آثار الإمام الجيلاني عديدة، منها تأوله للحديث الشريف «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً» قائلاً:

كان صلى الله عليه وسلم يُنقل من حالة إلى أخرى، ويسير في منازل القرب وميادين الغيب، وتتغير عليه خلع الأنوار. فتبين له الحالة الأولى عند

---

(١) يمكن الرجوع فيما يتعلق بالمفهوم الصوفي للتأويل، والفرق بينه وبين التفسير، وطبقة الأولياء الذين يجوز لهم التأويل، إلى: الفتوحات المكية، السفر الثاني فقرة ٤٠ ـ إلجام العوام عن علم الكلام ص١٧ ـ الصلة بين التصوف والتشيع ص٤٠٨ ـ عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية ص١٩٠.

(٢) الجيلاني: قصيدة على الأولياء (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيت الخامس عشر.

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٣١ (والإشارة هنا إلى تأويل المبتدئ الذي يطلب الرخص الشرعية بتأويلاته).

ثانيها ظلمةً ونقصًا، فيلقن الإستغفار والتوبة لأنها أحسن أحوال العبد.. فلَكَ برسول الله أُسوةٌ في الاعتراف بالقصور، والاستغفار في الأحوال كلها[1].

(رابعًا) الشهود

يقول تعالى ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾[2]. فذلك هو التوحيد (الشهودي) الذي يعتبره الصوفية أعلى درجات التوحيد، إذ هو معاينة قلبية لله، وإقرار بوحدانيته شهودًا ـ لا قولاً وتقليدًا ـ فحين يصح القلب، تتجلى عليه هذه المعارف الغيبية التي بها يشهد العارف ربه عز وجل، فلا تؤثر فيه بعد ذلك رؤية الخلق، ولا يتكدر صفاء سره[3].

وللشهود عند الصوفية مفهوم محدد، فهو (رؤية الحق بالحق)[4] تلك الرؤية التي يجعل أهل الطريق لها ثلاث درجات[5].. فالدرجة الأولى تعرف باسم (المُحَاضَرَة) وهي حضور القلب لتلقي أنوار الحق تعالى وبراهين ألوهيته من وراء الحجاب، ثم تأتي الدرجة الثانية (المُكَاشَفَة) وهي تلي المحاضرة لأنها تكشف القلب لحقائق الالوهية دون افتقار لدليل وبرهان، والدرجة الثالثة الأخيرة هي (المُشَاهَدَة) حيث يشهد العارف ببصيرته سطعات أنوار الغيب ـ ويسمع خطاب الحق تعالى في الكون ـ وإلى ذلك الإشارة في قوله عز وجل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[6].

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٨.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٨.

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٢٠.

(٤) القاشاني: اصطلاحات الصوفية ص١٥٣.

(٥) د/ الشرقاوي: الفاظ الصوفية ومعانيها ص٢٧٩.

(٦) سورة ق، آية ٣٧.

وإذا وصل العارف مرتبة الشهود، عاين بعيني قلبه وبصيرته تجليات الحق تعالى، تلك التجليات التي تظهر بها حقائق الأسماء والصفات الإلهية في كل لحظةٍ بأمر، ولكل عارفٍ بحقيقة.. ومن هنا يقول الإمام (إِنَّ اللهَ لا يَتَجَلَّى عَلَى عَبْدٍ فِي صِفَتَيْنِ، وَلاَ فِي صِفَةٍ لِعَبْدَيْنِ) وهي العبارة التي أعقبها الإمام بكلام شديد الرمزية والإيجاز، للإشارة إلى تنوع التجليات الشهودية[1].. فأعجب به عبد الكريم الجيلي، وراح يُفصِّل ما رمزه الإمام وأوجزه، ليستوعب بذلك القسم الأكبر من كتابه الأشهر: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل.

ويرى الإمام الجيلاني أن الشهود (مقيد ومطلق) فالشهود المقيد يكون حين يقف العارف تحت سماء الأنوار مع شعوره بذاته، فهنا يكون شهوده مقيداً بانتهاء وملازمًا لاستتار، لأنه شهودٌ من حيث حد الشاهد.. أما الشهود المطلق، فلا يصح إلاَّ بتمام تجرد العارف، إذ إن وقوفه مع حدِّه لا يسع الشهود المطلق؛ يقول الإمام: فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مِنْ وَرَاءِ حَدِّهِ، فَشُهُودُهُ مُطْلَقٌ[2].

والمعرفة الحاصلة من الشهود نوعان: الأول هو معرفة الحقائق العلوية باطلاع القلب على مكنون غيب الغيب، وشهوده لما سُطِرَ أزلاً في اللوح المحفوظ. وإلى ذلك أشار الإمام في (الوسيلة) حين قال:

وَقَالُوا فَأَنْتَ الْقُطْبُ قُلْتُ مُشَاهِدٌ   وَتَالِ كِتَابَ اللهِ فِي كُلِّ سَاعَةِ
وَنَاظِرُ مَا فِي اللَّوْحِ مِنْ كُلِّ آيَةٍ   وَمَا قَدْ رَأَيْتُ مِنْ شُهُودٍ بِمُقْلَتِي[3]

والمعرفة الشهودية الأخرى، هي معرفة الذات الإلهية من حيث الصفات والأسماء. وهي أعلى مراتب المعرفة على الإطلاق، ولا تثبت أنوارها بقلب

---

(١) بهجة الاسرار ص٨٢.
(٢) بهجة الأسرار ص٨٢.
(٣) الجيلاني: قصيدة الوسيلة (ديوان عبد القادر الجيلاني) أبيات ٣٤، ٣٥.

العارف إلاّ عند (الجمع) حيث تنكشف تجليات الجمال والجلال، تلك التجليات التي تبهر العقول وتخرق الرسوم[1].

وفي هذه المعرفة الذاتية يكون (مشهد الوحدة) الذي ذكره الإمام في تجليات شهود الذات بقوله: تَبْدُو مِنْ جَنَابِ الْقُدْسِ الأَشْرَفِ هَيْبَةٌ تُمِيتُ الْعِلَلَ، وَانْفِرَادٌ يَمْنَعُ التَّعَدُّدَ، وَوَصْفٌ يُوجِبُ الْوَحْدَةَ.. وقوله: إِذَا بَدَتْ قُوى أَفْعَالِ الصِّفَاتِ، اسْتَتَرَتْ آثَارُ بَوَادِيهَا، لِتَعَالِي الْوَحْدَةِ عَنْ مُجَاوَرَةِ التَّعَدُّدِ[2].. وقوله:

وَيَـا وَاحِـدٌ مَـا ثَـمَّ إِلاَّ وُجُـودُهُ   وَيَا صَمَدٌ ـ قَامَ الْوَجُودُ بِـهِ عَلاَ[3]

وهكذا تتضح عند الإمام الجيلاني جوانب نظرية (الوحدة) تلك النظرية التي بدت في إشارات متقطعة وردت في شذرات منسوبة إلى بعض رجال التصوف السابقين عليه ـ كالبسطامي ـ ثم تدفقت من بعده على يد صوفية كبار مثل ابن الفارض وابن عربي وابن سبعين والسهروردي، فضللت الباحثين وأثارت المستشرقين.. وراحوا يُطلقون عليها تسميات متعددة، فيجعلونها عند ابن الفارض باسم (وحدة الشهود) وعند ابن عربي (وحدة الوجود) وعند ابن سبعين (الوحدة المطلقة) وعند السهروردي (وحدة الوجود النوراني) وهي أسماء متعددة لحقيقة واحدة؛ فما هذا الشهود غير معرفة ذوقية يكون فيها العارف (فانيًا) كما لم يكن، ويكون فيها الحق تعالى (باقيًا) كما لم يزل؛ فهي رؤية الحق بالحق حيث تتلاشى الأغيار.. ولهذا فقد رأينا أن هذه الفكرة التي يعطيها شهود الذات ـ عند سائر الأقطاب ـ لا إسم يصلح لها غير (الوحدة الإلهية) التي عليها الله منذ كان.

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢٢.

(٢) بهجة الأسرار ص١٢٠.

(٣) قصيدة الأسماء الحسنى (ديوان عبد القادر الجيلاني) بيت ٣٧.

(خامسًا) الأسرار

يعود الامام الجيلاني إلى مراتب المعرفة الشهودية التي سبق الإشارة إليها (المُحَاضَرَةُ ـ المُكَاشَفَةُ ـ المُشَاهَدَةُ) فيضيف إليها (المُحَادَثَةُ) مشيرًا إلى أن المحاضرة تكون بالبرهان، والمكاشفة بالحقائق، والمشاهدة بالأنوار.. أما المحادثة، فتكون بالأسرار الإلهية[1].

ووفقًا لما يشير إليه الإمام، فإن العارف إذا ارتقى وتوالت عليه المواهب الربانية، دخل إلى علم القلوب والأسرار، ذلك العلم الذي يسميه الإمام الجيلاني (العلم الخاص) فإذا دخل إليه العارف، صار سلطان دين الله المطلع على ما لم يطلع عليه غيره[2].

وحين يغرق العارف في بحار الأنوار، يكون آنذاك أهلاً للاختصاص بالأسرار[3]؛ فتتوالى عليه غرائب المعرفة التي يدعوها الإمام (جواهر خزائن الغيب)[4] تلك الجواهر التي دعا الإمام إليها سائر الأقطاب قائلاً:

فَيَا مَعْشَرَ الأَقْطَابِ لُمُّوا بِحَضْرَتِي ... وَطُوفُوا بِحَانَاتِي وَاسْعُوا لأَرْكَانِي
وَغُوصُوا بِحَارِي تَظْفَرُوا بِجَوَاهِرِي ... وَتِبْرِي وَيَاقُوتِي وَدُرِّي وَمُرْجَانِي[5]

ومحادثة الحق تعالى للعارف بالأسرار، مظهر من مظاهر (البَسْط) في حضرة القرب من الله، فلا تزال محادثة السر في هذه الخلوة العالية تؤنس العارف وتدعوه لمزيد بقاء بقرب الحق.. حتى إذا عاد العارف إلى (الفَرْق) قال لسان حاله:

---

(١) بهجة الأسرار ص٨٠.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٤٦.

(٣) الجيلاني: فتوح الغيب ص١٣٩.

(٤) الجيلاني: مقالة الايمان (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٥) الجيلاني: قصيدة على الأولياء (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ١٣، ١٤.

أَنَا الْبَدْرُ فِي الدُّنْيَا وَغَيْرِي كَوَاكِبٌ وَكُلُّ فَتىً يَهْوَى فَذَلِكُمْ عَبْدِي
وَبَحْرِي مُحِيطٌ بِالْبِحَارِ بِأَسْرِهَا وَعِلْمِي حَوَى مَا كَانَ قَبْلِي وَمَا بَعْدِي
وَسِرِّي لَهُ الأَسْرَارُ تُزْجَرُ فِي الدُّجَا كَزَجْرِ سَحَابِ الأُفْقِ مِنْ مَلَكِ الرَّعْدِ[١]

ثم يستبد الشوق بقلب العارف، ويحن إلى هذه المسامرة التي تُهيِّم أفكار الواهين وتزلزل جبال العقول باطلاعها على مخبئات الأسرار[٢]، فيناجي ربه قائلاً:

وَبِالْفَتْحِ يَا فَتَّاحُ نَوِّرْ بَصِيرَتِي وَعِلْمًا أَنِلْنِي يَا عَلِيمُ تَفَضُّلاَ
وَيَا قَابِضُ اقْبِضْ قَلْبَ كُلِّ مُعَانِدِ وَيَا بَاسِطُ ابْسُطْنِي بِأَسْرَارِكَ الْعُلاَ[٣]

وأسرار الحق المتجلية على قلوب العارفين كثيرةٌ متواترةٌ، منها (سر الحقيقة ـ سر العلم ـ سر القدر ـ سر الربوبية ـ سر سر الربوبية) وغير ذلك[٤]، وكلها عند أهل الطريق مما يلزم حفظه. فبرغم ازدحام هذه الأسرار بقلب العارف، إلاَّ أن التصريح بها من شأنه أن يوقع العارف في مزالق اللغة، فلا يقع اللفظ الضيق على المعنى الواسع.. وربما يذيع العارف سراً، فتكون إذاعته إيذانًا بنهايته على يد معاصريه؛ يقول السُهروردي في أبياته الشهيرة:

وَارَحْمَتَا لِلْعَاشِقِينَ تَكَلَّفُوا سَتْرَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى فَضَّاحُ
بِالسِّرِّ إِنْ بَاحُوا تُبَاحُ دِمَاؤُهُمْ وَكَذَا دِمَاءُ الْعَاشِقِينَ تُبَاحُ[٥]

والاستثناء الأوحد لقاعدة كتم الأسرار، يكون إذا ما أتى (الإذن) من الله للعارف آمرًا إياه بنشر بعض المكنونات، وهاديًا له إلى اللفظ الصائب، وواهبًا لمستمعيه نور الفهم.. ومن هنا قال ابن عطاء الله: مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي

---

(١) الجيلاني: قصيدة سقاني حبيبي (ديوان عبد القادر الجيلاني) أبيات ٧، ٨، ٩.
(٢) الجيلاني: مقالة الايمان (ديوان عبد القادر الجيلاني).
(٣) الجيلاني: قصيدة الأسماء الحسنى (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ١٥، ١٦.
(٤) راجع المفهوم الصوفي لكل سرٍّ من هذه الأسرار، في (اصطلاحات الصوفية) للقاشاني، ص١٠٠ وما بعدها.
(٥) د/ أبو ريان: أصول الفلسفة الاشراقية عند شهاب الدين السهروردي ص٣١.

التَّعْبِيرِ، فُهِّمَتْ فِي مَسَامِعِ الْقَلْبِ عِبَارَتُهُ، وَجُلِّيَتْ لَهُمْ إِشَارَتُهُ.. تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ، فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ.. وَرُبَّمَا بَرَزَتِ الْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةَ الأَنْوَارِ، إِذَا لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِيهَا بِالإِظْهَارِ[1].

ويعبر الإمام الجيلاني عن هذه الدقيقة في قصائده، فنراه بعد إشاراته العديدة للأسرار المتجلية على قلبه، يشير إلى الإذن الوارد من الله بإبراز بعض الأسرار. يقول الإمام:

وَلاَحَتْ لِيَ الأَسْرَارُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... وَبَانَتْ لِيَ الأَنْوَارُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةِ
وَشَاهَدْتُ مَعْنًى لَوْ بَدَا كَشْفُ سِرِّهِ ... لِصُمِّ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لَدُكَّتِ[2]

ثم يقول الإمام:

وَمَا قُلْتُ هَذَا الْقَوْلَ فَخْرًا وَإِنَّمَا ... أَتَى الإِذْنُ حَتَّى تَعْرِفُونَ حَقِيقَتِي[3]

خوف العارفين:

لا يستوفي الكلام عن (المعرفة عند الإمام الجيلاني) حقَّه، إلاَّ بالتلبث حينًا عند هذه الرقيقة التي طالما ألمح إليها الإمام، مشيرًا بعبارةٍ ذوقيةٍ إلى خوف العارفين بالله[4]، وإلى ذلك الوجل الذي تُورثه التجليات المعرفية. فالمعرفة الربانية عند الإمام الجيلاني على قسمين: جلالٌ وجمالٌ.. فإذا كانت تجليات الجمال الإلهي بقلب العارف تورث المسامرة والحديث والإلهامات والبشرى، فإن تجليات الجلال والعظمة تورثه الخوف المقلق والوجل المزعج والغلبة العظيمة على القلب[5].

وخوف العارفين يكون بنوع من الوجد الشديد الحادث عند تكشف

---

(١) ابن عطاء الله: الحكم العطائية (بشرح الشيخ زروق) ص٢١٦ ـ ٢١٨.
(٢) الجيلاني: القصيدة الشريفة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ٢٢، ٢٣.
(٣) الجيلاني: قصيدة الوسيلة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيت التاسع عشر.
(٤) يختلف مفهوم «الخوف» هنا عن مفهومه باعتباره حالاً للسالكين المبتدئين.
(٥) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢٢.

الحقائق لبصيرة العبد، وهو ظاهرٌ من أحوال النبي عليه الصلاة والسلام.. فقد روى ابن مسعود أنه قرأ سورة النساء على النبيّ، حتى إذا بلغ قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[١] فقال عليه الصلاة والسلام: «كُفَّ..» ودمعت عيناه[٢].

وهذا الخوف الناشئ من المعرفة، أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال (أَنَا أَعْرَفُكُمْ بِاللهِ، وَأَنَا أَشَدُّكُمْ مِنْهُ خَوْفًا) وهو لا يعتمل في باطن العبد وقلبه فحسب، وانما يظهر أثره أيضًا على جوارحه، ومن هنا كان النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو قبلة العارفين ـ يُسمع من صدره أزيزٌ كأزيز المرجل في الصلاة من شدة الخوف[٣].. يقول الإمام الجيلاني: كان ذلك لما يراه النبي من جلال الله عزَّ وجلَّ، وما ينكشف له من عظمته تعالى[٤].

وعلى هذا النحو يبقى العارف تحت سماء التجليات مضطرب الباطن ممتلئ القلب بالخوف من هيبة الله، ولا يزال العارفون ـ طبقًا لوصف الإمام الجيلاني: قلوبهم حزينةٌ منكسرةٌ بين يديّ الحق عزَّ وجل، خائفين وجلين، كلما كشف لهم قناع جلاله وعظمته لقلوبهم، ازداد خوفهم.. تكاد قلوبهم تتقطع وأوصالهم تنفصل، حتى تفتح أبواب الرحمة والجمال لهم، فيسكن ما بهم[٥].

وتنوع التجليات الإلهية بين تجليات الجمال التي تورث الأنس وتجليات الجلال المورثة للخوف، هو لحكمة ربانية ومشيئة. فالله تعالى لا يفتأ يقلّب قلب العارف بين تلك التجليات، ليبقى العارف متعلقًا بمولاه فلا يلتفت إلى

---

(١) سورة النساء، آية ٤١.

(٢) أخرجه مسلم في فضل استماع القرآن، والبخاري في فضائل القرآن والبكاء عند قراءة القرآن (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١/١٥٥).

(٣) خبر مشهور، رواه الدارمي في الصلاة/ ١٥٧ ـ والنسائي في السهو/ ١٨ ـ وابن حنبل في المسند ٤/٢٥، ٢٦.

(٤) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢٢.

(٥) الجيلاني: الفتح الرباني ص٤٢.

سواه.. وليكون هذا العارف لربه فقط، فلا ينظر باطنه إلى الخلق وانما يظل دومًا معلق الهمة بالحضرة الإلهية، مخلصًا في وقوفه بين يدي الله بلا تفرق نظر. وإلى ذلك أشار الإمام مستشهدًا بما جاء في التوراة من أن «مَنْ ازْدَادَ عِلْمًا فَلْيَزْدَدْ وَجَعًا»[1] ليقول بأن هذا الوجع هو الخوف من الله عزَّ وجلَّ والذل له.. فالعارفون: همهم همٌّ واحدٌ، يراقبون الله عزَّ وجلَّ في بواطنهم كما يراقبونه في ظواهرهم، يهذبون القلب كما يهذبون الجوارح، حتى إذا تم لهم هذا كفاهم هَمَّ الشهوات بأسرها، فلا يُبقي في قلوبهم إلاَّ شهوة واحدة - هي طلب الله عزَّ وجلَّ والقرب منه ومحبته فحسب[2].

* * *

وبعد.. فإذا كان الإمام الجيلاني قد أبان عن حقائق المعرفة الربانية جملةً وتفصيلاً، فإنه يجعل هذه المعرفة نهايةً من نهايات الطريق، باعتبارها (عمل الأبد) الذي أشار إليه في قوله: الزُّهْدُ عَمَلُ سَاعَةٍ، وَالْوَرَعُ عَمَلُ سَاعَتَيْنِ، وَالْمَعْرِفَةُ عَمَلُ الأَبَدِ[3].. فالزهد إذا ما تحقق به السالك ساعةً من عمره، صار له طبعًا بلا كلفة. والورع إذا ما سكن إليه الصوفي وقتًا، انخلعت من قلبه الميول إلى الحرام والمتشابه والحلال الطلق. أما المعرفة فهي عمل كل الساعات وكل الأوقات، فلا تزال حقائقها تنزل بقلب العارف لتجعله في كل لحظة ولمحة، في خَلْقٍ جديدٍ.

وهنا نتساءل، هل المعرفة هي منتهى سلوك الطريق الصوفي عند الإمام الجيلاني؟ وهل جعل الإمام بعد هذه التجليات الربانية مقامًا يرفع له الله عباده المخلصين؟ وهل لخواص العارفين شوقٌ لمرتبة أرفع؟

على هذه التساؤلات يجيب الفصل التالي.

---

(١) وردت هذه العبارة في العهد القديم (سفر التكوين) بلفظ: «مَنْ ازْدَادَ حِكْمَةً، ازْدَادَ غَمًّا».

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني ص١٢٥.

(٣) بهجة الاسرار ص٧٧.

القطبية

القطبية هي تاج القرب والوصول إلى الله، ومنتهى سعي المتفردين المخلصين بعد تجردهم للمولى عزَّ وجلَّ.. وأهل مرتبة القطبية هم آحاد مفردون التقت عندهم زاوية السير إلى الله والعناية السابقة على الخلق؛ فهم قومٌ أخلاهم الله من التشاغل بالسوى، فرحلوا إليه عبر هذا الطريق الطويل، فوجدوا في النهاية أن طلب الله لهم بعنايته الأزلية، كان سابقًا على سعيهم إليه.

وللقطبية حقائق خاصة ظل الصوفية يحجمون عن الكلام فيها تفصيلاً، فلا يشيرون إليها إلاَّ رمزًا من وراء حجاب المصطلح الدقيق الذي من شأنه أن يُقصر المعنى على أهله، ولا يجعل تلك الحقائق الخاصة مشاعًا. وحول حقائق القطبية عند الإمام الجيلاني، تلك الحقائق التي ظهرت من خلال إشارته المكثفة، تدور السطور التالية:

القُطْبُ:

لا يكاد التراث الصوفي يحتوي على مؤلَّفٍ مستقلٍ يتناول حقيقة القطب؛ بحيث يستلزم بحث هذه النقطة عند كبار الصوفية، الرجوع إلى شذرات متفرقة من مؤلفاتهم، لتكوين ملامح صورة القطب. لكن الإمام الجيلاني كفانا مؤنة جمع الشذرات، حين وضع في (وصف القطب) مقالةً مستقلةً، لا

نكاد نجد لها مثيلاً في كتابات غيره من أئمة الصوفية.

وإذا كانت مقالة «وصف القطب» قد تركزت فيها الإشارات الصوفية الرمزية، وعمد فيها الإمام إلى تكثيف الرموز وقصر العبارات؛ فإن تحليل هذه المقالة وفك رموزها، من شأنه أن يدلنا على النظرة القادرية للقطب.

بدأ الإمام الجيلاني مقالته بالإشارة إلى أن بيان أوصاف القطب، أمرٌ يشبه المحال، فقال: «أَنَّى لِلْوَاصِفِ أَنْ يَبْلُغَ وَصْفَ الْقُطْبِ..»[1] ثم يعدّد الإمام أسباب استحالة الوصف الكامل للقطب، فيورد بذلك بعض حقائقه!

وأول الحقائق التي يشير إليها الإمام، علو القطب على سائر السائرين إلى الله، وتمكنه من جميع منازل القرب والوصول؛ فللقطب في كل مسالك الطريق علامةٌ وموطنٌ، وله في كل مقامات النهاية ومعارج المراقي قَدَمٌ.

ويؤكد الإمام الجيلاني على رفعة القطب، وعلو مرتبته على الأولياء حين يصفه قائلاً: وَهُوَ حَامِلُ لِوَاءِ الْعِزِّ، وَمُنْتَضِي سَيْفِ الْقُدْرَةِ، وَحَاكِمُ دَسْتِ الْوَقْتِ، وَوَلِيُّ عَهْدِ التَّوْلِيَةِ وَالْعَزْلِ .. فَلاَ مَرْقَى لِلأَوْلِيَاءِ فَوْقَ مَرْقَاهُ[2].

وهنا نلاحظ أن الإمام الجيلاني يجعل القطب (وليّ عهد) تولية الأولياء وعزلهم من مراتبهم[3]، فهو لم يجعله صاحب الحق المطلق في التولية والعزل، وانما هو فحسب وليّ عهد هذا الأمر الذي لا يكون بحكم الاستحقاق إلاّ لقطب الأقطاب الذي سنعرج إليه في الصفحات التالية.

ويعود الإمام الجيلاني لتقرير بعض حقائق وأوصاف القطب مشيرًا إلى أمرٍ طالما أكَّد عليه أهل الطريق الصوفي، وهو كون القطب أشدّ أهل الله اقتفاءً للشرع.. وهنا نعود لتقرير الحقيقة التي ذكرناها في غير موضع من

---

(١) الجيلاني: مقالة وصف القطب (ديوان عبد القادر الجيلاني) ص١٦٢.

(٢) الجيلاني: مقالة وصف القطب (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٣) راجع ما ذكرناه عن انتكاس الولي وعزله في الكتاب الأول من هذه المجموعة.

هذا البحث، تلك الحقيقة القائلة بوقوف تصوف الإمام الجيلاني عند حدّ الشريعة الظاهرة ـ مهما بلغ الصوفي منتهى الوصول.

ثم يصرح الإمام بوصفٍ محيِّرٍ من أوصاف القطب، فيقول بأنه (كائنٌ بائنٌ)[1].. وهو الوصف الذي بيَّن الإمام معناه في الغُنية حين أشار إلى معنى الكائن البائن الذي يكون بجسمانه وحقيقته البشرية بين معاصريه، لكنه بائن عنهم في حقائقه وأفعاله وبواطنه[2]. وهنا تجدر الإشارة إلى ما استشهد به السُهروردي من قول يحيى بن مُعاذ الرازي، فقد سُئِلَ الأخير عن وصف العارف مرتين، قال في الأولى: هو رجلٌ معهم بائنٌ عنهم.. وقال في الأخرى: هو عبدٌ كان فبان[3].

وطبقًا لهذه الإشارة الذوقية، فالقطب على درجته الروحية العالية، لا ينسلخ من وجوده الزماني، بل هو يعيش بين الناس، ويؤدي بظاهره ما يؤدونه من حقوق، وبهذا المعنى يكون القطب (كائن) ولكنه من بعد ذلك مُخفيٌّ للحقائق التي يتفرد بها، فلا مرقى للعوام من الخلق لمعرفة حقائق باطنه وخزائن قلبه، فهو بهذا (بائن) عنهم.

ويتوقف الإمام عند السر وراء إخفاء حقائق القطبية، فقد امتُنِعَ على أهل الله أن يخرقوا عالم المُلْك والحكمة الذي يعرفه الناس، بسهام أسرار عالم الغيب والقدرة الذي يسكنه القطب.. هذا بالوجه الأول، وبالوجه الثاني، فإن جملة القطب وتفصيله انما تنطوي في حواشي تمكين النبي صلّى الله عليه وسلم ـ وقد وقف النبي على شط الظاهر وخاطب الناس على قدر عقولهم.. ولولا وجوب

---

(١) الجيلاني: مقالة وصف القطب (ديوان عبد القادر الجيلاني).

(٢) الجيلاني: الغنية ٣/١٢٧٢.

(٣) السُهروردي: عوارف المعارف ص٢٥٥.

ويعقب السهروردي على عبارة يحيى بن مُعاذ بقوله: فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم، معوقين بتوقيت الأجل.. جعلهم الله من جنوده في خلقه (عوارف المعارف، نفس الموضع).

الكتم بهذين الوجهين لخرق سهم القدرة سياج العلم، وشاهد أهل الكون من أمر القطب عجبًا[1].

وكان الإمام الجيلاني قد أعقب مقالته في وصف القطب، بقصيدة من روائع شعره تحدث فيها عن مقامه هو في هذه المرتبة. وبين أبيات القصيدة يُلمح الإمام إلى بعض حقائق قطبيته، ويشير إلى منزلته ومكانته ضمن سائر الأقطاب فيقول:

أَنَا مِنْ رِجَالٍ لاَ يَخَافُ جَلِيسُهُمْ رَيْبَ الزَّمَانِ وَلاَ يَرَى مَا يَرْهَبُ
قَوْمٌ لَهُمْ فِي كُلِّ مَجْدٍ رُتْبَةٌ عُلْوِيَّةٌ وَبِكُلِّ جَيْشٍ مَوْكِبُ[2]

فإن كان القطب على هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة، فهل هو على رأس الترتيب الطبقي لأولياء الله؟ وهل بعد مرتبة القطب منازل ودرجات..

قطب الأقطاب:

إذا كان الإمام الجيلاني قد أشار إلى نفسه في الأبيات السابقة، باعتباره (واحد) من الأقطاب، فإنه سوف يشير إلى نفسه في مواضع أخرى إشارة تثير كوامن الحيرة. فبعدما فصَّل الإمام حقائق القطب على هذا النحو العالي من المرتبة، نراه يتعالى على هذه المرتبة فيقول وقد وصل إلى ما فوق القطبية:

أَنَا الْوَاحِدُ الْفَرْدُ الْكَبِيرُ بِذَاتِهِ أَنَا الْوَاصِفُ الْمَوْصُوفُ عِلْمُ الطَّرِيقَةِ
مَلَكْتُ بِلاَدَ اللهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَإِنْ شِئْتُ أَفْنَيْتُ الأَنَامَ بِلَحْظَةِ
وَقَالُوا: فَأَنْتَ الْقُطْبُ، قُلْتُ مُشَاهِدٌ وَتَالِ كِتَابَ اللهِ فِي كُلِّ سَاعَةِ[3]

فإذا كان الإمام الجيلاني لم يرض بكونه قطبًا في الأبيات السابقة، فإنه

(١) الجيلاني: مقالة وصف القطب (ديوان عبد القادر الجيلاني).
(٢) الجيلاني: قصيدة ما في الصبابة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ٥، ٦.
(٣) الجيلاني: قصيدة الوسيلة (ديوان عبد القادر الجيلاني) ابيات ٣٢، ٣٣، ٣٤.

سوف يصل إلى قمة الترقي في الحضرة، فيعلو مقامه على مقام القطب بمراحل، فيقول:

قَالَتِ الأَوْلِيَاءُ جَمْعًا بِعَزْمٍ ... أَنْتَ قُطْبٌ عَلَى جَمِيعِ الأَنَامِ
قُلْتُ كُفُّوا ثُمَّ اسْمَعُوا نَصَّ قَوْلِي ... إِنَّمَا القُطْبُ خَادِمِي وَغُلَامِي[1]

ثم يقول الإمام:

أَنَا قُطْبُ أَقْطَابِ الوُجُودِ بِأَسْرِهِ ... أَنَا بَازُهُمْ وَالكُلُّ يُدْعَى بِغِلْمَانِي[2]

بهذا نكون قد انتهينا إلى مقام (قطب الأقطاب) عند الإمام الجيلاني، هذا المقام الذي كثرت إشارات كبار الصوفية إليه، لتجتمع هذه الإشارات فيما عُرِفَ باسم نظرية الإنسان الكامل.

واستنادًا إلى ما ذكره الإمام عن قطب الأقطاب، يمكن القول بأنه كان مصدرًا مباشرًا لكلٍّ من ابن عربي والجيلي في قولهم بالإنسان الكامل - هذه النظرية التي اعتبرها دارسو التَّصوف: حجر الزاوية في التصوف الإسلامي منذ القرن السادس الهجري[3] - وهذا الرأي الذي نقول به، يرجع إلى أن الحقائق الخاصة بالإنسان الكامل عند ابن عربي والجيلي - والمحقق عند ابن سبعين - قد وردت جميعًا عند الإمام الجيلاني، فهو قد أشار بلفظٍ موجزٍ إلى كل ما استفاض فيه من بعده الصوفية الكبار.. وذلك ما سيتضح عند استعراض حقائق قطب الأقطاب التي يمكن أن نوجزها فيما يلي:

(١) الجيلاني: قصيدة طف بحاني (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ٥، ٦.
(٢) الجيلاني: قصيدة على الأولياء (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيت التاسع.
(٣) انظر، مادة الإنسان الكامل بدائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) المجلد الثالث ص٤٨ وما بعدها.. مع ملاحظة أن نيكلسون يسعى في هذه المقالة إلى تأصيل نظرية الإنسان الكامل بتعسفٍ شديدٍ، مُرجعًا إياها إلى المذاهب والديانات السابقة على الإسلام. وهي القضية التي ناقشناها باستفاضة في بحثنا للماجستير، مؤكدين بالأدلة القاطعة على الأصل الاسلامي لهذه النظرية (انظر: الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي، ص١٣١ وما بعدها).

(أولاً) الحقيقة الوجودية

المراد بالحقيقة الوجودية لقطب الأقطاب، كونه واسطة بين الله والعالم بحكم التوجه الإيجادي لمقام (كُنْ) حيث يتولى قطب الأقطاب ـ أو الإنسان الكامل ـ التصرف في الكون باعتباره (مظهر) للقدرة الإلهية.

وكان كبار الصوفية قد تعرضوا لهذه الحقيقة، واتفقوا على أن الواصل إلى هذا المقام هو (الفيَّاض) الذي يقبل منه العالم في كل زمان، وهو (الكامل) الذي يجمع حقائق الوجود العلوية والسفلية باعتباره المظهر الأتم للوجود[1].

هذه الحقيقة الوجودية لقطب الأقطاب، أفاض الإمام الجيلاني في تصويرها الشعريّ، فنراه يتحدث عن نفسه وقد جعله الله قطبًا للأقطاب، فيُخبر بأن مرتبته التي فاقت على رتبة الكل، جعلت وجوده يسري في كل حقيقة من حقائق الكون.. يقول الإمام:

وَسِرِّي بِسِرِّ اللهِ سَارَ بِخَلْقِهِ ... فَلُذْ بِجَنَابِي إِنْ أَرَدْتَ مَوَدَّتِي
وُجُودِي سَرَى فِي سِرِّ سِرِّ الْحَقِيقَةِ ... وَمَرْتَبَتِي فَاقَتْ عَلَى كُلِّ رُتْبَةِ[2]

فهنا يعبر الإمام الجيلاني عن سريان قطبيته في الخلق وبلوغ سره إلى سر الحقيقة ـ الذي يعني في المصطلح الصوفي: حقيقة الله في كل شيء[3] ـ وهو وقد بلغ هذا القدر.. فهو قادرٌ على التصرف في الموجودات بحكم الحقيقة:

وَكُلُّ بِلَادِ اللهِ مُلْكِي حَقِيقَةً ... وَأَقْطَابُهَا مِنْ تَحْتِ حُكْمِي وَطَاعَتِي
وَأَمْرِي بِأَمْرِ اللهِ إِنْ قُلْتُ كُنْ يَكُنْ ... وَكُلٌّ بِأَمْرِ اللهِ فَاحْكُمْ بِقُدْرَتِي[4]

---

(١) انظر، الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي ص٨٩، ٩٣، ١١١، ١١٩.
(٢) الجيلاني: القصيدة الشريفة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ٥، ١٥.
(٣) القاشاني: اصطلاحات الصوفية ص١٠٠.
(٤) الجيلاني: القصيدة الشريفة (ديوان عبد القادر الجيلاني) البيتان ١٤، ١٦.

فإذا كان الأقطاب وآحاد الأولياء هم أوتاد الأرض وقوامها[١]، وهم الذين يندفع البلاء بهم، وبهم تمطر السماء..[٢] فإن قطب الأقطاب هو صاحب التصريف التام في الأكوان، حيث تكون (بِسْمِ اللهِ) منه، بمنزلة (كُنْ) من الله[٣]. وقد تعرض الإمام تفصيلاً لهذه النقطة في قصيدته الخمرية التي سارت بعض أبياتها على نفس النهج الذي سارت عليه أبيات ابن الفارض في التائية الكبرى[٤] والجيلي في النادرات العينية[٥]، فعرض لمظاهر حقيقته الوجودية كقطبٍ للأقطاب فقال:

وَوَلاَّنِي عَلَى الأَقْطَابِ جَمْعًا ... فَحُكْمِي نَافِذٌ فِي كُلِّ حَالِي
فَلَوْ أَلْقَيْتُ سِرِّي وَسْطَ نَارٍ ... لَذَابَتْ وَانْطَفَتْ مِنْ سِرِّ حَالِي
وَلَوْ أَلْقَيْتُ سِرِّي فَوْقَ مَيْتٍ ... لَقَامَ بِقُدْرَةِ الْمَوْلَى سَعَى لِي
وَلَوْ أَلْقَيتُ سِرِّي فِي جِبَالٍ ... لَدُكَّتْ وَاخْتَفَتْ بَيْنَ الرِّمَالِ
وَلَوْ أَلْقَيْتُ سِرِّي فِي بِحَارٍ ... لَصَارَ الْكُلُّ غَوْرًا فِي الزَّوَالِ[٦]

(ثانيًا) الحقيقة المعرفية

تعني الحقيقة المعرفية لقطب الأقطاب، كما وراثته للعلوم اللدنية، وكونه واسطة معرفية تفيض عنها أنوار المعارف لمَنْ هم دونه في السلم الروحي. فإذا كان كبار الصوفية قد توقفوا عند هذه الفكرة التي تعتبر إحدى السمات الرئيسية لنظرية الإنسان الكامل، وقالوا بأن هذا العبد هو (المظهر الأتم للعلم

(١) الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٥.
(٢) المرجع السابق ص٤٤.
(٣) الجيلاني: مقالة الاسم الاعظم (ديوان عبد القادر الجيلاني).
(٤) ابن الفارض: التائية الكبرى (ديوان ابن الفارض) ابيات ٦٣٨ - ٦٤١.
(٥) عبد الكريم الجيلي: النادرات العينية ابيات ٥١٢ - ٥٢٧.
(٦) الجيلاني: القصيدة الخمرية (ديوان عبد القادر الجيلاني) أبيات ١٢ - ١٦.

الإلهي في الكون) فإن الإمام الجيلاني قد سبق إلى الإشارة إلى هذه الحقيقة المعرفية..

وتقرير سبق الإمام الجيلاني يتضح من مقارنة ثلاثة أبيات شعرية، عبَّر بها الإمام الجيلاني وابن الفارض والجيلي عن وصولهم لهذا المقام، وكونهم نبعًا فياضًا للمعرفة.. يقول الإمام الجيلاني:

فَلاَ عَـالِـمٌ إلاَّ بِعِلْمِـيَ عَـالِـمٌ   وَلاَ سَالِكٌ إلاَّ بِفَرْضِي وَسُنَّتِي[1]

وكأن ابن الفارض يطابق قول الإمام حين يقول في واحدٍ من أبيات التائية الكبرى:

فَمَـا عَـالِمٌ إلاَّ بِفَضْلِيَ عَـالِـمٌ   وَلاَ نَاطِقٌ فِي الْكَوْنِ إلاَّ بِمَدْحَتِي[2]

وعلى نفس القَدَم يقف عبد الكريم الجيلي، ليعبر عن تحققه بهذا المقام قائلا:

وَكُـلُّ عَلِيمٍ فِـي الْبَـرِيَّـةِ إنَّـهُ   لِقَطْرَةِ مَاءٍ مِـنْ بِحَارِيَ دَافِـعُ[3]

ومن هذه المقارنة تتضح حقيقة قطب الأقطاب من حيث المعرفة، كما اتضحت قبلاً حقيقته من حيث الوجود. ومن المقارنة أيضًا، يظهر اتفاق الإمام الجيلاني الذي يُدعى تصوفه دومًا بالتصوف (السُّنِّي) مع هؤلاء الصوفية الذين يقال عن تصوفهم (فلسفي) ولذا فقد رأينا هذه التقسيمات للتصوف، غير مخبرة بحقيقة الحال.. وان هي محض تمييز متعسف وضعه ابن خلدون، ثم سار عليه مؤرخو التصوف ودارسوه.

ثم يضع الإمام الجيلاني الأساس الأخير لنظرية الإنسان الكامل، أعني تلك الفكرة التي تُرجع الكمالات الوجودية والمعرفية لقطب الأقطاب، إلى أمرٍ

(١) الجيلاني: قصيدة الوسيلة (ديوان عبد القادر الجيلاني) بيت ٣٧.
(٢) ابن الفارض: التائية الكبرى (ديوان ابن الفارض) بيت ٣٣١.
(٣) الجيلي: النادرات العينية، بيت ٥٠٧.

وحيد هو (ظهور الصفات الإلهية) وتجلي الأسماء على القلب.. عرش الله؛ تقول الغوثية: يَا غَـوْثَ الأَعْظَـمِ، مَـا ظَهَـرْتُ فِـي شَـيءٍ كَظُهُـورِي فِـي الإِنْسَانِ (١).

(ثالثا) الكامل والأكمل

إذا كان قطب الأقطاب، أو الإنسان الكامل، أو المحقق الوارث.. هو الأكمل بالإضافة إلى الكاملين من الأقطاب؛ فإن الأكمل بالنسبة له هو (النَّبي) عليه الصلاة والسلام - وتلك هي القاعدة الصوفية التي يقوم عليها مقام قطب الأقطاب، والتي عني كبار الصوفية بالإفصاح عنها كلما تعرضوا لذكر صفات الكاملين من الأولياء.(٢).

وقد أكَّد الإمام الجيلاني على هذه القاعدة مرارًا، جاعلاً من الحقيقة المحمدية شمسًا يستضيء بنورها قطب الأقطاب.. ولن نخوض هنا في الكلام عن الحقيقة المحمدية وقيام الوجود بمحمد عليه الصلاة والسلام، فقد تعرضنا لذلك بالتفصيل في تعليقاتنا على ديوان الإمام الجيلاني. وانما نقتبس من إحدى مقالات الإمام الجيلاني نصًا، يشير إلى هذه النظرة القادرية التي تقع على حقيقة المصطفى صلى الله عليه وسلم، يقول الإمام:

يَا مُحَمَّدُ.. أَنْتَ سُلْطَانُ الْحَقِيقَةِ، أَنْتَ إِنْسَانُ عَيْنِ الْوُجُودِ. عَلَى عَتَبَةِ بَابِ مَعْرِفَتِكَ، تَخْضَعُ أَعْنَاقُ الْعَارِفِيْنَ. فِي حِمَى جَلاَلَتِكَ تُوضَعُ جِبَاهُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ(٣).

وأخيرًا.. فهل بعد قطب الأقطاب مقام من مقامات القرب؟ ومن هم أهل هذا المقام الذي يفوق ما أشرنا إليه من حقائق خاصة بقطب الأقطاب؟

---

(١) الجيلاني: مقالة الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).
(٢) انظر: ابن سبعين وفلسفته الصوفية ص٢٨٧ - شرح مشكلات الفتوحات (مخطوط) ورقة ٢٣أ - الإنسان الكامل ٤٨/٢ - آداب المريدين ص٧٦ - التائية الكبرى، بيت ٣٣٣.
(٣) الجيلاني: مقالة الحلاَّج (ديوان عبد القادر الجيلاني).

الأفراد:

يبدو الطريق إلى الله عند الصوفية، كما لو كان بغير منتهى.. فمهما وصل العبد من منزلة عند ربه، فلا تزال فوقه منازل ودرجات. ولهذا قال بعض أهل الطريق: مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ وَصَلَ، فَقَدْ كَذَبَ[1].

وبالكلام عن الأفراد من عباد الله، يمتد الترتيب التصاعدي للمقربين إلى غير نهاية.. فهؤلاء الطبقة من العباد انفردوا بقربهم حتى خرقوا كل ترتيب، ونزلوا منزلةً لا يعلمها إلاّ الله تعالى، ولهذا قال هذا الصوفي بكذب من أدعى أنه وصل. فالوصل بالله والوصول إليه، هي كلمات مجازية تشير إلى تمكن الصوفي من الصفاء القلبي، وقربه من الله وترقيه الدائم إليه، فمن هنا يكون كلام الصوفية في الوصال والوصول والوصل والاتصال صحيحًا، لكن القول بالوصول لمقام ما فوقه مقام ونهاية ليس بعدها مطلب.. فهو - كما يقول اليافعي - وَهْمٌ، لأن فضل الله تعالى ليس له نهاية[2].

بهذا المفهوم الذوقي ترتقي فوق قطب الأقطاب طبقةُ (الأفراد) التي تقطعت إشارات الصوفية إليها، بحيث غدت من أشد نقاط غايات الطريق بعدًا وعمقًا. فعندما يشرح القاشاني معنى الأفراد، يوجز ويقتصر قائلا: هم الرجال الخارجون عن نظر القطب[3]. ويكتفي القاشاني بهذا التعريف الغامض الذي نقله من اصطلاحات الشيخ الأكبر، وهو التعريف الذي يتضمن أن الأفراد: بَشَرٌ.. مما يخالف ما يقرره صوفي كبير، هو عبد الغني النابلسي الذي أشار إلى الأفراد إشارة أخرى يُفهم منها أن الأفراد هم طبقة (الملائكة العالون) الذين لم يؤمروا بالسجود لآدم، فإذا ظهر هؤلاء العالون المجردون من الملائكة في صورةٍ آدميةٍ، فهم طبقًا لعبارة النابلسي: الأفراد الخارجون

(١) اليافعي: نشر المحاسن الغالية ص١٨.
(٢) اليافعي: نشر المحاسن ص١٨، ١٩.
(٣) القاشاني: اصطلاحات الصوفية ص٣١.

عن نظر القطب، المهيَّمون في الحق[1].

ولما كان ابن عربي مولعًا بالكلام في الدقائق الصوفية وغوامض المفاهيم الذوقية، فقد نظرنا في مؤلفاته عسى أن تتضح طبيعة هذه الطبقة من خلق الله. فوجدناه يُلمح ويرمز ويقطع العبارات كالآخرين، وفي المرات القليلة التي عرض لمفهوم الأفراد، لا يزيد على القول (هُمْ طَائِفَةٌ خَارِجَةٌ عَنْ حُكْمِ الْقُطْبِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِمْ تَصَرُّفٌ.. وَلَهُمْ مِنَ الأَعْدَادِ مِنَ الثَّلاثَةِ إِلَى مَا فَوْقَهَا)[2] ويعلق الدكتور عثمان يحيى على الفقرة فيقول: يقصد ابن عربي بالأعداد معنًى رمزيًا، حيث الواحد = ذات الحق، الاثنان = مرتبة الألوهية، الثلاثة = أول وجود في الكون.. وعلى هذا النحو تتسع المفاهيم الخاصة بالأفراد، لتزيد في أمرهم غموضًا.

وللإمام الجيلاني بضع إشارات لهذه الطبقة الخارجة عن سلطان قطب الأقطاب، فهو في أحد أبياته الشعرية يجعل من نفسه واحدًا من هؤلاء الأفراد، فيقول بأنه (الْوَاحِدُ الْفَرْدُ الْكَبِيرُ) وقد وردت هذه الكلمات ضمن الأبيات التي ترفّع فيها الإمام الجيلاني واستنكف أن يدعوه قُطبًا[3].

ثم تأتي الغوثية، هذه المقالة الذوقية الفريدة؛ لتقف على حقيقة الأفراد من أهل الله دون أن تصرح باسمهم. فهم وفقًا لنص الغوثية (عِبَادٌ) مهيَّمون في الله، لا يُطلع الحق تعالى على أحوالهم أحدًا من أهل الدنيا ولا أحدًا من أهل الآخرة، لا من البشر ولا من الملائكة! خلقهم الله لنفسه لا لشيء سواه، فليس لسواه فيهم نصيب.. ولهم في الغوثية علامات؛ كلها احتراق! فهم في الدنيا: المحترقون عن الطعام والشراب والشهوات والخطرات، المحترقون في البقاء بنور اللقاء[1].. وهم الذين وقفوا تحت سطعات أنوار العزة؛ تلك

(١) النابلسي: المعارف الغيبية (ملحق بالنص المحقق لقصيدة النادرات) ص١٣٣.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية، السفر الثالث فقرة ٢١٦.

(٣) الجيلاني: قصيدة الوسيلة (ديوان عبد القادر الجيلاني) أبيات ٣٥ وما بعده.

(١) الجيلاني: مقالة الغوثية (ديوان عبد القادر الجيلاني).

الأنوار التي ـ كما يقول النِّفَّري ـ ما أتت على شيء إلاَّ أحرقته[1].

وتصرح الغوثية بأمرٍ خطيرٍ، حين ترفع من مرتبة هؤلاء الأفراد من العباد، فتقول بأنّهم (عِبَادٌ سِوَى الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ..) فهل المراد هنا ارتفاع مرتبة الأفراد عن رُتبة النبوة، هذا ما لا تسمح به أقوال الإمام الصريحة في مواضع عديدة.. فبقي علينا أن نتأول هذه المرتبة بالإضافة إلى النبوة، فنقول ان الأفراد اختصوا بدقيقةٍ واحدةٍ من الرفعة، بينما نال الأنبياء والمرسلون كل الدقائق والرفعات. فبذلك يختص الأفراد بشيء كهذا الذي اختص به الخضر دون موسى، لكنه لم يرفع مرتبة الخضر على رتبة كليم الله! ولهذا الرأي دعامةٌ شرعيةٌ، ففي الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وابن حنبل، جاء ذكر هذه الطائفة من العباد الذين: «يغبطهم النبيون والشهداء والصديقون[2] ..» كاشارة إلى الأفراد من خلق الله.

أما ارتفاع الأفراد عن الأقطاب، فأمرٌ ظاهرٌ ليس بحاجةٍ إلى تأويل. وقد ورد في الحديث الشريف، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب ولعليّ بن أبي طالب ـ وهما الأقطاب في وقتهما ـ أنهما سيلتقيان بعد وفاته برجلٍ من أهل اليمن، فإذا لقياه فليسألاه الدعاء ويطلبا منه أن يستغفر الله لهما، فالله تعالى يقبل دعاءه واستغفاره.. وكان هذا الف د هو: أُويسُ بن عَامِر القَرَني[3].

---

(١) النفري: المواقف والمخاطبات ص٢.

(٢) الحديث في سنن الترمذي، كتاب الزهد/ ٥٣ ـ ومسند ابن حنبل ٥/٢٢٩، ٢٣٩، ٣٢٨، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣.

(٣) القاري: المعدن العدني في فضل أويس القرني (مخطوط) ورقة ٣ وما بعدها.

فروع القادرية

لِي فِي كُلِّ أَرْضٍ خَيْلٌ لاَ تُسْبَقُ
وَلِي فِي كُلِّ جَيْشٍ سُلْطَانٌ لاَ يُخَالَفُ
وَلِي فِي كُلِّ مَنْصِبٍ خَلِيفَةٌ لاَ يُعْزَلُ،
..وَعِزَّةِ رَبِّي وَجَلاَلِهِ، إِنَّ يَدِي عَلَى مُرِيدِي
كَالسَّمَاءِ عَلَى الأَرْضِ!
إِنْ لَمْ يَكُنْ مُرِيدِي جَيِّدًا، فَأَنَا جَيِّدٌ..
وَعِزَّةِ رَبِّي وَجَلاَلِهِ، لاَ بَرِحَتْ قَدَمَايَ مِنْ بَيْن
يَدَيْ رَبِّي، حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي وَبِكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ.

الإمام الجيلاني

تمهيد:

شاء الحق تعالى ألا ينقطع ذكر الإمام الجيلاني في الأرض بعد وفاته، فأمال الله عزَّ وجلَّ قلوب المريدين إلى قبلة هذا الإمام وهَدْيه، وجعل أفئدةً من الناس تأوي إليه.. فلم تتوقف (الطريقة القادرية) طيلة القرون الممتدة من حياة الإمام وحتى اليوم.

وخلال صفحات الأبواب الثلاثة السابقة، رأينا الملامح الرئيسية للطريق الروحي الذي رسم الإمام بدايته وعلاماته وغاياته، ليكون دليلاً يهدي الهاربين من سجن الدنيا، العارجين إلى رحاب الحق تعالى.

وكان لا بد من التوقف بهذا الباب عند طريقة الإمام الجيلاني بعد وفاته، لنقف على حقيقة دعاوى القائلين بانهيار التصوف في القرون المتأخرة، وانقطاع الإمداد الروحي الذي كان في عهود الأوائل.. خاصةً وقد درجت معظم الدراسات الصوفية على ترديد قضية واهمة تقول بهبوط الطرق الصوفية إلى مهاوي الجهل.

وربما نتفق على أن الطرق الصوفية اليوم لا تخلو من جهالٍ ومتهوسين دخلوا المسيرة الروحية للانتفاع والتبطل، لكن هذا الحكم يغدو ظالمًا إذا ما انسحب على الكل.. فلا يزال بهذه الأمة طائفة من أهل الخير والحق، جعلهم الله أنوارًا للخلق! وقد اقتضت حكمة الحق ألا تُترك هذه الأمة بلا هادين

مرشدين إليه تعالى، وألا تخلو الأرض من أولياء قائمين بالحجة.

لهذا جاء هذا الباب الأخير، لننظر فيه إلى (الطريقة القادرية) التي قامت على ملامح الطريق الصوفي الذي رسمه الإمام الجيلاني، ولنستعرض الخطوط الرئيسية لانتشار القادرية خلال القرون الماضية، ولنقترب أخيرًا من فروع القادرية في مصر.. لنرى كيف تصرفت يد الزمان بمريدي الإمام وأهل طريقته.

والباب خمسةُ فصول.. الأولُ تمهيديٌّ يشير إلى اتساع الطريقة القادرية وانتشارها في ربوع البلدان، والأربعة التالية يختص كل فصلٍ منها بفرعٍ قادريٍّ من الفروع الأربعة للطريقة بمصر.

والله الموفق،

الفصل الأول

انتشار القادرية

يبدو أن النموذج الأول للطرق الصوفية في الاسلام، موغل في القدم. فإذا اعتبرنا (الطريقة) هي انتظام جماعة من الإخوان في عقد روحي يجمعهم ويعطي لهم تفردًا وخصوصية، فإنه يمكن القول ـ طبقًا لهذا المفهوم ـ ان الطرق الصوفية قد بدأت في الظهور منذ عصر النبوة، وكان حضورها المبكر متمثلاً في جماعة وردت في فضلها جملة أخبار وأحاديث نبوية شهيرة؛ هي جماعة (أهل الصُفَّة) التي سكنت مسجد النبي بالمدينة، وضمت العديد من عُبّاد الصدر الأول وزهاده، أمثال بلال بن رباح، وسلْمان الفارسي، وعمّار ابن ياسر، وعبد الله بن مسعود، والمقداد بن الأسود.. وكان عريف أهل الصفة، هو الصحابي الجليل القدر: أبو هُريرة[1].

وقد أفاض مؤرخو التصوف وأقطابه في الكلام عن أهل الصفة، وأفردوا لهم الأبواب الطوال والمؤلفات المستقلة[2]. وعن أهل الصفة وأحوالهم يقول الهجويري:

(١) هناك تفاوت في تعداد أهل الصفة بين كتب الطبقات، وهو التفاوت الذي يعلله أبو نعيم بقوله: كان عدد قاطني الصفة يختلف على حسب اختلاف الأوقات والأحوال؛ فربما تفرق عنها وانتقص طارقوها من الغرباء والقادمين فيقل عددهم، وربما يجتمع فيها واردوها من الوراد والوفود فينضم إليهم فيكثرون (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ١/٣٤٠). إلا أن الصفة لم تكن تنقطع من القاطنين، الذين يسميهم أبو هريرة: أضياف الإسلام.

(٢) بالإضافة إلى الأبواب الخاصة بأهل الصفة في المؤلفات الصوفية الشهيرة، كالحلية وكشف =

إعلم أن الأمة مجتمعة على أنه كان للنبي عليه السلام فريق من الصحابة، كانوا يلازمون مسجده، وهبوا أنفسهم للعبادة وكفوا أيديهم عن الدنيا، وأعرضوا عن الكسب.. وكتاب الله عز وجل ناطقٌ بفضائلهم، وللرسول عليه السلام في مناقبهم أقوال كثيرة(١).

ويقول أبو نعيم:

هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء.. لا يأوون إلى أهلٍ ولا مال، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارةٌ ولا مالٌ. لم يحزنوا على ما فاتهم من الدُّنيا، ولا يفرحون بما أُيدوا به من العُقبى.. فهم الرجال الذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله(٢).

ولما كانت هذه الصفات، هي بعينها السمات التي اختص بها الصوفية دومًا، فقد جاء ذكر أهل الصفة في المصادر الأصلية لمؤرخي التصوف القُدامى، كما استند إليهم الباحثون المحدثون الذين عنوا بالكشف عن أصول التصوف، انطلاقا من أن هذه الأصول: إسلاميةٌ خالصةٌ.. وهو المنطلق الذي أزعج المستشرق ريكندروف(٣).

المحجوب، هناك عدة مؤلفات ورسائل مستقلة في بيان فضلهم ومكانتهم وطبقاتهم ـ وإن كان معظمها لم يصل إلينا ـ فمن ذلك:

ـ طبقات النساك، لأبي سعيد بن الأعرابي (ذكره الدكتور النشار في: نشأة الفكر الفلسفي ٨٤/٤).

ـ تاريخ أهل الصفة، للسلمي (ذكرته معظم ترجمات السلمي وفهارس كتبه).

ـ منهاج الدين في مناقب أهل الصفة، للهجويري (ورد ذكره في كشف المحجوب ص٢٨٤).

ـ التحفة في الكلام على أهل الصفة، للسبكي.

(١) الهجويري: كشف المحجوب ص٢٨٥.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء ٣٣٧/١؛ ٣٤٧.

(٣) ريكندروف: مادة أهل الصفة، دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) المجلد الثالث ص١٠٦.

واستمرت الطرق الصوفية في شكل التفاف المريدين حول كبار الشخصيات التي سلكت طريق الحق تعالى، وودعت الدنيا قبل سلوكها ودعت الخلق إلى محبة الله. فظهرت في القرون الأولى للهجرة بعض الطرق ـ كالسّالمية والحلاَّجية[1] ـ وإن كانت لم تكتسب هذه السمات التي عرفت بها الطرق الصوفية التي انتشرت على نطاق واسع، فيما بعد القرن السادس الهجري؛ وهي السمات التي تراكمت كتقاليد ومراسم، مثل العهد بين الشيخ والمريد، وحلقات السماع والإنشاد الصوفي، والأحزاب والاوراد، والموالد السنوية.

* * *

وبخصوص الطريقة القادرية، فقد كانت واحدة من أهم الطرق الصوفية وأوسعها انتشارًا، خاصة أن هناك عوامل عديدة تضافرت لتؤدي في النهاية إلى قيام هذه الطريقة واستمرارها قوية بعد وفاة مؤسسها ـ وأهم هذه العوامل أربعة:

---

(١) السالمية: فرقة من المتكلمين السنيين ذوي النزعات الصوفية، تكونت في البصرة إبان القرنين الثالث والرابع الهجريين بين المالكية من أهل السنة. وقد أسس هذه الطريقة في الأصل، أبو عبدالله سهل التستري (المتوفى ٢٨٣ هجرية) إلا أن الطريقة انتسبت إلى أكبر تلاميذه، أبي عبدالله محمد بن سالم المتوفى ٢٩٧ هـ، وإلى ابنه أبي الحسن أحمد ـ المعروف بابن سالم البصري ـ المتوفى ٣٥٠ هـ، والذي أخذ عنه واحدٌ من كبار الصوفية في القرن الرابع الهجري، هو أبو طالب المكي صاحب كتاب «قوت القلوب»، وقد كان ابن سالم معاصرًا لأبي نصر السراج الطوسي ـ صاحب اللمع ـ وكانت بينهما مناظرات حول بعض الموضوعات الصوفية (انظر اللمع في التصوف/ تحقيق عبد الحليم محمود ص٤٧٢) وقد لاقت السالمية معارضة شديدة، ولم تستمر واضحة المعالم، وإنما وصلت أصولهم إلينا عن طريق خصومهم من الحنابلة، خاصة أبا يعلى الفراء المتوفى ٤٥٨ هجرية، والإمام الجيلاني (راجع المزيد عن السالمية في: الغنية ص٩٤، وفي مادة: السالمية بدائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية ـ ص٦٩ وما بعدها).
أما الحلاجية فتنتسب إلى أبي المغيث الحسيني بن منصور الحلاج. المقتول ببغداد سنة ٣٠٩ هجرية (راجع، شخصيات قلقة في الإسلام ـ مقالة ماسينيون).

(أولاً) اهتم الإمام الجيلاني بإرساء قواعد طريقته على الأصول الواضحة في الكتاب والسنة، مما جنّب آراءه خطر الوقوع في مزالق التأويلات والخوض في الفرعيات، فظلت طريقته واضحة المعالم حيدة التناول بعد وفاته بقرون.

(ثانيًا) ترك الإمام الجيلاني ذريةً كثيرةً، فقام أولاده وأحفاده على إحياء طريقته من بعده فخلفه في مشيخة الطريقة أبناؤه[1]: عبد الوهاب المتوفى ٥٩٣ هـ[2]، وعبد الرزاق المتوفى ٦٠٣ هـ[3]..

وقد كان أبناء الإمام يجمعون بين التصوف والحديث وعلوم الدين الأخرى، وكان عبد الرزاق منهم حافظا ثقة[4].. ثم تولى أمر الطريقة أحفاد

---

(١) D. S. Margoliouth: Art. (Kadiriyya) in: Ency. of Islam. Vol. 4 P. 380.

(٢) هو الشيخ الفقيه الزاهد الواعظ، عبد الوهاب بن عبد القادر (ولد في شعبان سنة ٥٢٢ ببغداد، وتوفي بها في شوال سنة ٥٩٣) قام بالتدريس بالمدرسة القادرية في حياة والده ـ نيابةً عنه ـ ثم تولى المدرسة بعد وفاة الإمام الجيلاني ولم يكن في أولاد أبيه أميز منه، فقد كان فقيهًا فاضلاً، حسن الكلام في مسائل الخلاف، له لسان فصيح في الوعظ، وقد جعله الإمام الناصر لدين الله على ديوان المظالم.. ترجم له الذهبي في تاريخ الإسلام، وابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (قلائد الجواهر ص٥٣).

(٣) هو الشيخ الزاهد الورع المحدث، أبو بكر عبد الرزاق بن عبد القادر (ولد في ذي القعدة سنة ٥٢٨، وتوفي ببغداد ليلة السبت سادس شوال سنة ٦٠٣، وكان يوم وفاته مشهودًا) وهو أشهر أبناء الإمام الجيلاني في ميدان الحديث، وكانت له أحوال صوفية باهرة، حتى روى عنه أنه: مكث ثلاثين سنة، لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله عز وجل.. وله ترجمات مطولة في كتب الطبقات، انظر: التقييد لابن نقطة، ورقة ١٤٦ ـ تاريخ ابن الدبيثي، ورقة ١٥٩ ـ التكملة للمنذري ٩٨٠/٢ ـ الجامع لابن الساعي ٢١٤/٩ ـ تاريخ الإسلام ١٣٣/١٨ ـ العبر ٦/٥ ـ تذكرة الحفاظ ١٣٨٥/٤ ـ البداية والنهاية ٤٦/١٣ ـ الذيل لابن رجب ٤٠/٢ ـ عقد الجمان للعيني ١٧/ ورقة ٢٩٨ ـ النجوم الزاهرة ١٩٢/٦ ـ شذرات الذهب ٩/٥ ـ التاج المكلل ص٢١٨ ـ قلائد ص٥٤ (سير أعلام النبلاء ٤٢٦/٢١).

(٤) ابن حجر العسقلاني: تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة) القسم الاول ص٣٩٥.

الإمام، أمثال عبد السلام بن عبد الوهاب المتوفى ٦١١ هـ[١]، ونصر بن عبد الرزاق المحدث المتوفى ٦٣٣ هـ[٢]، وولده أبو نصر محمد بن نصر المتوفى ٦٥٦ هـ[٣].

(ثالثًا) تلقى العديد من الصوفية الوافدين من أقطار العالم الإسلامي، الطريقة القادرية وخرقة الصوفية تلقينًا ومبايعةً من الإمام الجيلاني ـ سواء في بغداد أو في مكة المكرمة عندما حج إليها حجته الثانية[٤] ـ وقد عمل هؤلاء على نشر الطريقة بأقطارهم الدانية والقاصية في حياة الإمام وبعد وفاته.. ويضاف إلى ذلك أيضًا، أثر الدعوة القادرية التي قام بها بعض أولاد الإمام وأحفاده في سياحاتهم بديار المسلمين، سواء لطلب العلم أو للسير على قدم التجريد.

(رابعًا) أدت فاجعة القرن السابع الهجري ـ أعني سقوط بغداد على أيدي المغول الهمجية سنة ٦٥٦ هجرية ـ إلى إضفاء لون من اللامركزية على الطريقة القادرية، فلم تعد مدرسة الجيلاني وأسرته ببغداد محط أنظار القادرية

(١) الشيخ عبد السلام بن عبد الوهاب، تفقه على والده وجده، ودرس وأفتى وتولى عدة ولايات، وكان حنبليّ المذهب.. ولد في ذي الحجة سنة ٥٤٨، وتوفي ببغداد في ثالث رجب سنة ٦١١ ودفن بمقبرة الحلبة (قلائد الجواهر ص٥٦).

(٢) هو أشهر أحفاد الإمام الجيلاني، قاضي القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق، تولى التدريس بمدرسة جده وبالمدرسة الشاطبية، وكان له قبول عظيم.. ولد في ربيع الآخر سنة ٥٦٤، وتوفي في شوال سنة ٦٣٣ وكانت جنازته عظيمة. انظر ترجمته في: فوات الوفيات ١٩٢/٤ ـ الحوادث الجامعة ص٨٦ ـ ذيل ابن رجب ١٨٩/٢ ـ شذرات الذهب ١٦١/٥ ـ التاج ٤٤/٣ ـ سير الأعلام ٣٩٦/٢٢.

(٣) هو الشيخ أبو نصر محمد بن نصر بن عبد الرزاق، تفقه على والده وغيره، وكان يشبه الإمام عبد القادر، تولى القضاء والحكم بدار الخلافة، ثم عزل نفسه تنزهًا وتورعًا، وتفرغ للتدريس بمدرسة الإمام الجيلاني حتى توفي في شوال سنة ٦٥٦، ودفن بجوار جده بالمدرسة (قلائد الجواهر ص٥٩). وقد توفي الشيخ أبو نصر محمد، في السنة التي سقطت فيها بغداد على يد التتار وخربت المدرسة القادرية وتوقفت سلسلة مشايخها في القرن السابع الهجري.

(٤) انظر ما ذكره الشطنوفي عن تلقي العديد من صوفية الإسلام لطريقة الإمام الجيلاني في حياته (البهجة ص١٣١ وما بعدها).

في العالم الإسلامي، وإنما اعتبرت فروع القادرية بالبلدان أصولاً للطريقة تستلهم قوتها من ذاتها ومن مؤلفات الإمام الجيلاني التي كانت قد ملأت الأرض آنذاك.

وهكذا اجتمعت أسباب انتشار القادرية في أرجاء العالم الإسلامي، وإذا كان ماسينيون يرى أن هذا الانتشار لم يبدأ إلا بعد نصف قرن من وفاة الإمام الجيلاني[١]، فإننا نرى خلافًا لذلك أن حركة انتشار القادرية لم تتوقف لا في حياة الإمام ولا بعد وفاته؛ وما يقوله ماسينيون هنا يفتقر إلى الأدلة التاريخية من ناحية، وينافي من ناحية أخرى ما ذكره أصحاب التراجم من استمرار دعوة الإمام وتولي أولاده أمر القادرية عقب وفاة مؤسسها.. وهو أخيرًا يتعارض مع ما سبق وأن قرره مستشرق آخر - أعني مرجليوث[٢] - الذي ذكر أن بعض الصوفية كانوا يدعون للطريقة القادرية في حياة الإمام الجيلاني، منهم علي بن الحدّاد الذي تمكن من جذب الأتباع للطريقة في اليمن، ومنهم محمد البطائحي الذي استوطن بعلبك والبلاد الشامية، ومنهم أيضا محمد بن عبد الصمد الذي دعا إلى الطريقة بمصر[٣]، ولقد اعتمد مرجيلوث في هذا على ما ذكره صاحب البهجة[٤].

فإذا نظرنا للخريطة الروحية للعالم الإسلامي بعد وفاة الإمام الجيلاني بقرون، وجدنا القادرية قد أصبحت على مر السنين أوسع الطرق الصوفية انتشارًا على الإطلاق، حتى أن ابن تيمية يقول في القرن السابع للهجرة إنه كلما قابل واحدًا من عامة المسلمين وجده عضوًا في الطريقة القادرية[٥]، وفي القرن الثامن نجد شهادة اليافعي (أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعي اليمني،

---

(١) L. Massignon; Art. (TARIKA) in; Ency. of Islam, Vol. 4 P. 666.

(٢) D. S. Margoliouth: Art. (KADIRIYYA) P. 381.

(٣) Abid; P. 381.

(٤) راجع، البهجة ص١٠٩ : ١١٢

(٥) ابن تيمية: بغية المرتاض ص١٢٤ - وانظر أيضا: مادة «قادرية» بدائرة المعارف الاسلامية ص٣٨٢ (الطبعة الانجليزية).

المتوفى ٧٦٨ هجرية) حين يقول إن شيوخ اليمن ـ الأكابر منهم والأصاغر ـ يرجع أكثرهم في لبس الخرقة إلى الشيخ عبد القادر[١]، بعضهم لبسها من يده راحلين إليه ـ لما قدمت أعلام فضائله عليهم ـ والأكثرون من الذين أرسلها إليهم[٢]. ولا يفوتنا في هذا المقام إلا أن نشير إلى أن مدرسة صوفية كبيرة قامت في زَبيد اليمن على يد الشيخ شرف الدين الجبرتي المتوفى ٨٠٦ هجرية، والذي كان قادريًا يميل أحيانًا إلى مؤلفات ابن عربي، وفي هذه المدرسة تخرج أحمد الرّدّاد قاضي اليمن والفيروز آبادي صاحب القاموس.. وتخرج أيضاً: عبد الكريم الجيلي[٣].

وفي بلاد الشام استقرت الطريقة القادرية منذ وقت مبكر، خاصةً بعد نزول أحد أحفاد الإمام الجيلاني، وهو السيد شرف الدين يحيى بن أحمد بن محمد بن عبد الرزاق بن الإمام الجيلاني، الذي استوطن حُماة سنة ٧٣٤ هجرية[٤]. وقد ظلت الزاوية القادرية ببلاد الشام عامرة حتى القرن الحادي عشر الهجري، حيث تلقى العهد القادري على يد شيخها عبد الرزاق بن شرف الدين ـ من ذرية الإمام الجيلاني ـ واحدٌ من كبار صوفية الإسلام، واكبر الشخصيات الصوفية في القرنين الحادي والثاني عشر.. أعني الشيخ عبد الغني النابلسي، المتوفى ١١٤٣ هجرية.

ولقد أسهم النابلسي في تجديد التراث الصوفي في عصره، عن طريق العديد من المؤلفات والشروح التي بلغت ما يقرب من مائة وعشرين مؤلفًا.. وكان النابلسي قادريًا بارزًا، برغم من أنه جمع في تصوفه بين الطريقتين القادرية

---

(١) اليافعي: روض الرياحين ص٢٩٦.

(٢) اليافعي: خلاصة المفاخر في اختصار مناقب الشيخ عبد القادر ورقة ١٣٧ب.

(٣) انظر التفاصيل المتعلقة بشيخ هذه المدرسة ورجالها في: الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي (دار النهضة العربية ـ بيروت) ص٣٤ وما بعدها.

(٤) النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، ص٤٩.

والنقشبندية[1]. ولقد أشار النابلسي إلى الطريقة القادرية عند تلقيه لها على يد شيخه عبد الرزاق بأبيات شعرية شهيرة له، يقول فيها:

أَيَا سَاكِنِينَ الشَّرْقِ قَدْ شَرَقَتْ بِكُمْ ... عُيُونِي بِرَفْعِ حِينَ شَامَتْ سَنَا الْبَرقِ
فَقُومُوا بِعُذْرِي عِنْدَكُمْ، إنَّ مُبْتَدَى ... غَرَامِي بِكُمْ، قَدْ كَانَ مِنْ أَقْرَبِ الطُّرْقِ
وَمَا ذاكَ إلاَّ إنَّنِي كُنْتُ غَافِلاً ... أَظُنُّ جِدَارِي لَيْسَ يُؤْذِنُ بِالْخَرْقِ
فَمُدَّتْ يَدٌ شَرْقِيَّةٌ قَادِرِيَّةٌ ... بِهَا نَشْأَتِي، خَضْرَاءُ طَيِّبَةُ العِرْقِ[2]

ولقد حدثنا النابلسي في رحلته إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، عن ازدهار الطريقة القادرية بفلسطين، حيث كانت المدرسة القادرية بالقدس الشريف عامرة آنذاك، وكان يقوم على شئونها الشيخ أبو الوفا العَلَمي القادري وأولاده، وقد نزل النابلسي بهذه المدرسة أواخر شوال سنة ١١٠٤ هجرية[3]، حيث التقى بالإخوان، وجرت بينهما مباحثات علمية ومذاكرات فقهية، تشهد بازدهار المدرسة القادرية بالقدس آنذاك.. وهي مدرسة لا نملك اليوم أن نعرف شيئًا عنها، فقد حال بيننا وبين القدس فاصل الشوك والنار. وفي مكة المكرمة، ظل الرباط القادري ـ الذي أنشئ في حياة الإمام الجيلاني ـ قائمًا حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، ولقد تعرض لذكر هذا الرباط، صالح بن مهدي المقبلي في كتابه: العَلَمُ الشَّامِخُ فِي إِيثَارِ الْحَقِّ عَلَى

(١) الطريقة النقشبندية إحدى الطرق الصوفية التي ينتمي شيوخها إلى بلاد الروم والهند، وقد نسبت إلى الخواجة بهاء الدين نقشبند. وكان شيوخ هذه الطريقة حتى زمان الشيخ بهاء الدين، يذكرون الله خفية في الانفراد، وجهرًا في الجمع، فأمرهم هذا الشيخ بالذكر سرًا في الانفراد والجمع على السواء.. فكان لذكرهم السري هذا، أثره البالغ في قلوب المريدين؛ فقيل لذلك الأثر (نَقْش) أما كلمة (بَنْد) فتعني الربط، فصار المعنى: ربط النقش. والنقش يعني بلوغ الكمال الإنساني، فيسمى الكامل (نَقْشَبَنْد) أي لازم النقش أو مربوط النقش (انظر، التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس في عصر النابلسي، لعبد القادر أحمد عطا ـ دار الجيل، بيروت ـ ص٢٣٣ وما بعدها).

(٢) جامع الأوراد، المسمى: منحة الجواد وتحفة العباد (دار مكتبة الحياة ـ بيروت، ١٩٦٦) ص٨، ٩.

(٣) الحقيقة والمجاز، ص١١٠، ١١٤، ١١٩.

الآباء وَالْمَشَايخَ[1].

ويذكر مرجليوث أن الطريقة القادرية قدمت إلى آسيا الصغرى واستانبول على يد الشيخ إسماعيل الرومي، الذي أسس الخانقاه المعروفة باسم «قادري خانة» بالتوبخانة، وقد لُقب هذا الشيخ بلقب «بيرتيزني» أي الشيخ الثاني للقادرية؛ إذ عمل الشيخ إسماعيل الرومي على إحياء التراث القادري، وأسس ما يقرب من ٤٠ تكية قادرية في هذه المناطق، وظل يعمل لنشر الطريقة القادرية هناك حتى وفاته سنة ١٠٤١ هجرية[2].

وكان انتشار القادرية في أفريقيا على أوسع نطاق، فقد عملت القادرية على نشر الإسلام بأفريقيا الوسطى، فكانت أول طريقة صوفية تدخل الصومال - حيث أسس الشيخ حسن جبرو سنة ١٨١٩ ميلادية، مركزا لها ببلدة (بورديرة) على نهر جوبا - وكان من كبار مشايخها المتأخرين هناك: الشيخ عبد الرحمن بن عبدالله الشاشي، الشهير بالشيخ صوفي، المتوفى ١٩١٩ ميلادية.. وهو مؤسس الزاوية القادرية في مقديشيو.

كذلك فقد قام الشيخ عويس بن محمد البراوي القادري بنشر الطريقة في جوبا العليا، وأسس مسجدًا وزاويةً في (تُوجِجْلة) وهي البلدة التي توفي ودفن بالقرب منها سنة ١٩٠٩ ميلادية، ولا يزال يقام له حتى اليوم احتفال سنوي كبير يستمر ثلاثة أيام حول ضريحه[3].

وكانت القادرية على هذا النحو هي أول طريقة أُدخلت إلى افريقيا، وهي

---

(١) المقبلي: المعلم الشامخ ص٣٨١؛

(٢) Ency. of Islam, Art. (KADIRIYYA) P. 382.

(٣) عبد القادر القادري: الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي (مقالة بمجلة صوت الحق - المغرب العربي) ص٥٠ ويمكن الرجوع فيما يتعلق بانتشار القادرية في افريقيا إلى:
- د/ عبد الرحمن زكي: المسلمون في العالم اليوم.
- سير توماس ارنولد: الدعوة إلى الإسلام (ترجمة/ حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي).
- م. لويس: تراث الإسلام.

إلى اليوم من أكثر الطرق وأكبرها من حيث عدد الاتباع.. فقد دخلت السودان الغربي عن طريق مركز النيجر الإسلامي في «تمبكتو» منذ القرن التاسع الهجري، وفي نفس الوقت دخلت «لاهور» في الشمال، ثم دخلت بعد ذلك إلى «كانو» في شمال نيجيريا حيث وفدت هجرة إسلامية قوية بزعامة مشايخ القادرية منذ ثلاثة قرون.. وقد كانت هذه الشعوب الوثنية ترحب بالقادرية باعتبارهم كُتَّابًا وفقهاء ومعلمين، وكانت دعوة القادرية للإسلام والتصوف - كما ذكر توماس أرنولد - ذات طابع سلمي للغاية، تعتمد على الإرشاد وتأثير المعلم في تلاميذه[1].

وتقول المصادر التاريخية إن الطريقة القادرية قد انتشرت في الأندلس قبل سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هجرية[2].. وكما انتشرت الطريقة في أقصى الغرب من العالم الإسلامي، وصلت إلى أقصى الشرق، حيث استقرت فروع القادرية بالهند منذ وقت مبكر، ولا تزال هذه الفروع عامرة حتى اليوم، وأهم فروع القادرية بالهند فرعان هما: قادرية بناوة Banawa وقادرية جُسرزمار Gurzmar[3].

أما المدرسة القادرية ببغداد، فبعد أن تمت توسعتها في عهد الإمام الجيلاني، ثم على يد ولده الشيخ عبد الرزاق، دُمرت ضمن غيرها من معالم بغداد عندما خربها المغول سنة ٦٥٦ هجرية.. إلاَّ أن المدرسة أعيد بناؤها بعد ذلك، وظلت على مر السنين بين وقائع الدهور وأحوال التحسن والإصلاح، حتى أصبحت اليوم ضاحية من ضواحي بغداد تُعرف باسم باب الشيخ عبد القادر - وهو الاسم الحديث لباب الأزج - وتضم مسجدًا كبيرًا

---

(١) الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي، ص٤٨، ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص٤٩.

(٣) انظر:
- J. S. Triminghan: The Sufi Orders in Islam (Oxford University Press London, Oxford, New York 1940) P. 271.
- L. Massignon: Art. (TARIKA) in, Ency. of Islam 4/670.
- D. S. Margoliouth: Art. (KADIRIYYA) in, Ency. of Islam 2/382.

ومكتبة تحوي آلافًا من كتب التراث الصوفي والقادري.. ولا يزال القادرية من ذرية الإمام الجيلاني قائمين على شئونها[1].

وهكذا يؤدي استعراضنا للخريطة الروحية للعالم الإسلامي عبر القرون التالية لوفاة الإمام الجيلاني، إلى القول بأن الطريقة القادرية كانت دومًا ـ وما تزال ـ نبراسًا يهدي إلى الإسلام بمعناه الذوقي الرحيب، ومدرسةً تربويةً عملت على إصلاح نفوس الملايين من المريدين..

واليوم، لا تكاد أقاليم العالم الإسلامي ـ شرقًا وغربًا ـ تخلو من زاوية أو مركز للقادرية، بل إننا نجد تجمعات للقادرية في العديد من الاقطار الأوربية والولايات الامريكية، وغير ذلك من بلدان العالم.

* * *

وبعد.. فقد أردنا أول الأمر أن نعقب بحثنا حول الإمام الجيلاني وطريقته، باستقصاء لفروع القادرية في العالم الإسلامي، فوجدنا الأمر يعظم ويتسع، حتى يخرج عن حيز الإمكان. ومن ثَمَّ فقد ارتحلنا عبر ربوع مصر، لنقدم على الصفحات التاليات صورة لفروع القادرية بمصر، فكان أن انتهى السعي إلى معرفة فروع أربعة:

- القادرية الفارضية
- القادرية القاسمية
- القادرية الشرعية
- القادرية النيازية

وتفصيل القول حول هذه الفروع، هو ما خصصنا له الفصول الآتية من هذا الباب..

---

(١) راجع الوصف التفصيلي للمدرسة القادرية اليوم، والقائمين على شئونها من ذرية الإمام الجيلاني المعاصرين، مع نبذة تاريخية عن المدرسة.. في: الشيخ عبد القادر الكيلاني، للسامرائي (مطبعة الأمة ـ بغداد) ص٤١ وما بعدها.

القادرية الفارضية

تُعد الطريقة القادرية «الفارضية» أقدم فروع القادرية بمصر عهداً، إذ ترجع جذورها التاريخية ـ كما سنرى ـ إلى القرن السابع الهجري.. وقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية إلى هذه الطريقة[1]، كما أشار إليها الدكتور التفتازاني[2] وترمنجهام[3] ضمن الفرعين المعروفين للقادرية بمصر.

ومقر هذه الطريقة هو «جامع السادة القادرية» الكائن بالقرافة الصغرى بالقاهرة، وهو مسجد عتيق تفوح منه رائحة القرون، يقع على يمين الشارع المسمى بشارع سكة القادرية، والمؤدي إلى قرافة الإمام الشافعي[4].. وترتبط

(١) L. Massignon: Art. (TARIKA) in, The Encyclopaedia of Islam Vol. 4, p. 670.

(٢) د/ التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي (دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٣) ص١١٠.
: الطرق الصوفية في مصر (مقالة مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، مجلد ٢٥، الجزء الثاني ١٩٦٨) ص٧٢.

(٣) J. S. Trimingham: The Sufi Orders p. 270.
والإشارة الواردة في دائرة المعارف الإسلامية وفيما كتبه ترمنجهام والدكتور التفتازاني، تفيد بأن فرعي القادرية بمصر هما، القادرية الفارضية ـ وهي ما نتناولها الآن ـ والقادرية القاسمية، التي هي موضوع الفصل التالي.. وكلاهما مسجلٌ بالمجلس الأعلى للطرق الصوفية بمصر.

(٤) انظر الوصف التفصيلي لهذا المسجد وطرازه المعماري، في: مساجد مصر للدكتورة سعاد ماهر (الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة) المجلد الثاني، ص١٤٩.

أصول القادرية الفارضية بهذا المسجد ارتباطًا وثيقًا، وهذا ما يدعونا إلى شيء من البحث التاريخي.

★ ★ ★

بُني «جامع السادة القادرية» في أواخر القرن السابع الهجري، يقول حب «الخطط التوفيقية» إن بداخل هذا الجامع عدة أضرحة للقادرية، إنه يعرف أيضًا بجامع «عُلَيّ» وفيه يقوم القادرية بعمل «حَضْرَة» كل ليلة جمعة، ومولد كل عام.. ويضيف علي مبارك ان هذا الجامع مكتوبٌ على بابه تاريخ سنة: «سبع وتسعين وستمائة».. وان شعائره واحتفالاته مقامة إلى اليوم[1].

أما المقريزي، فقد ذكر هذا الجامع تحت عنوان «الزاوية العدوية» إذ نسبها إلى الشيخ عَدِيّ بن مُسَافِر بن إسماعيل بن موسى بن مروان الهكَّاري القرشي الأموي، الذي صحب الإمام عبد القادر وغيره من مشايخ التصوف في عصره[2].. ويبدو أن هيئة الآثار المصرية قد أخذت بقول المقريزي، وحصرت ذلك الجامع ـ بما فيه من أضرحة للقادرية ـ تحت اسم: مَسْجِدُ عَدِيّ بن مُسَافِر[3].

والحقيقة ان نسبة الجامع إلى «عدي بن مسافر» تخالف الوقائع التاريخية، فقد كان هذا الشيخ من أهل العراق، ولم تذكر المصادر التاريخية أنه نزل بمصر.. يقول ابن الأثير في تأريخه لسنة ٥٥٧ هجرية: «وفيها، في المحرم، توفي الشيخ عدي بن مسافر الزاهد المُقيم ببلد الهكارية من أعمال الموصل، وهو

---

(١) علي مبارك: الخطط التوفيقية، الجزء الثاني ص٢٠٤.

(٢) المقريزي: الخطط «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ، الجزء الثالث ص٤٣٦.

(٣) انظر، مساجد مصر ١٤٩/٢.

من الشام ـ من بلد بعلبك ـ فانتقل إلى الموصل، وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحي وأطاعوه.. وهو مشهور جداً »[1]. ومن المشهور جداً أيضاً، أن الشيخ عدي بن مسافر قد توفي ببلدة « لآلِشْ » بجبل هكار، وهي البلدة التي استوطنها، ودُفن بزاويته المنسوبة إليه هناك، وظل قبره بها ظاهراً يُزار[2].

والراجح لدينا، أن هذا الجامع بُني في الأصل على يد واحدٍ من مريدي الشيخ عديّ بن مُسافر أو مُحبيه، ثم ما لبث القادرية عند نزولهم بمصر أن سكنوا إليه، نظراً لصلة ابن مسافر بالإمام الجيلاني[3].. ويؤيد هذا الترجيح أمران، أحدهما ما ذكره النابلسي ـ في رحلته إلى مصر سنة ١١٠٥ هجرية ـ من أن ابن مسافر ليس مدفوناً بالقرافة الصغرى، وأنما المدفون هناك « أولاد الشيخ عبد القادر الجيلاني.. يعني من ذريته، وهم أربعة: السيد رضي، والسيد أحمد، والسيد محمد، والسيد علي، وكل واحد منهم في قبر مستقل، وعندهم الآن أناس من ذريتهم يخدمونهم »[4] والأمر الثاني الذي يؤيد هذا الترجيح، هو هذه الأوقاف الموقوفة على جامع القادرية، التي رأينا عدة حجج لها، تحمل اقدمها تاريخ سنة ٨٦٠ هجرية[5].. مما يعني أن القادرية كانوا هناك قبل

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (دار صادر ـ بيروت) الجزء الحادي عشر ص٢٨٩.

(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار، ص١٥٢.. وإن كان الشطنوفي قد ذكر أن وفاة عديّ بن مسافر كان سنة « ثمان وخمسمائة »!! ويبدو أن تصحيفاً وقع في النسخة المطبوعة للبهجة، فقد ذكرت غالبية المصادر أن وفاته كانت بين ٥٥٥، ٥٥٧ هجرية.

(٣) انظر الصلة بين عدي بن مسافر والإمام الجيلاني في (البهجة ص١٥٠: ١٥٤ ـ قلائد الجواهر ١٠٧).

(٤) النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٣٤٤/ جغرافيا (اعدها للنشر وقدمها د/ أحمد عريدي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦) ص٢٠١.

(٥) يوجد هذا الوقف بالشهر العقاري بالقاهرة، أوقفه: « السيفي قوزي بن عبدالله القرضمي الملكي الأشرفي الظاهري، على ذرية سيدي عبد القادر بمصر.. » وشرط الواقف، أن يدفن بزاوية السادة القادرية بالقرافة الصغرى.. وإن كنا لم نستدل على قبر له هناك!!

هذا التاريخ[1].

وهكذا استقرت القادرية منذ هذا الوقت المبكر بمصر، واتخذت من زاوية عديّ بن مُسافر مقرّا.. ويبدو أن هذا الأمر من مآثر القادرية بمصر، إذ لو كانت هذه الزاوية أُخليت، وظلت على نسبتها للشيخ عديّ بن مُسافر، لكانت حتى اليوم من مراكز جذب اليزيدية، الذين يتمسحون بالشيخ عديّ ابن مُسافر.. ولكانت مصر قد ابتليت بهم[2].

★ ★ ★

(١) في نص هام للتادفي، يقول: وبالقاهرة إلى يومنا هذا من ذرية سيدنا الشيخ عبد القادر، جماعة مستكثرة، بالزاوية التي بالقرافة المعروفة (قديمًا) بسيدي عديّ بن مُسافر، والآن بهم.. (قلائد الجواهر ص٦٩) والمعروف أن التادفي كتب القلائد سنة ٩٥٠ هجرية.

(٢) اليزيدية: طائفة من الأكراد يسكن أكثرهم في جهات الموصل وولاية أروان الروسية، ومنهم طوائف في نواحي دمشق وبغداد وحلب. وهم من أغرب طوائف المبتدعة، يدينون بعبادة الشيطان ويقولون بالتناسخ، ولهم في كتم نحلتهم والاحتفاظ بأسرارهم مبالغة شديدة، طوت أمرهم عن الناس زمنًا طويلاً.
ولليزيدية كتابان، احدهما (كتاب الجِلْوة) وهو يتضمن ما خاطب الله به عباده ـ أي اليزيدية ـ كما يتضمن كلامًا في قدم الباري وبقائه، وفيه القول بتناسخ الأرواح، وإن الكتب التي بأيدي أصحاب الديانات جميعًا.. كتبٌ محرَّفة! والكتاب الآخر لليزيدية هو (مُصْحَفُ رَشْ) أي الكتاب الأسود، وفيه حديث خلق السماوات والأرض وخلق الملائكة والعرش وآدم وحواء وغير ذلك من أخبار القرون الخالية.
وللشيخ عديّ بن مسافر المقام الأكبر عند اليزيدية، وقبره هو الكعبة التي يحجون إليها، وشيخهم الأعظم سادن مقامه، وعند عقد الزواج يسفون شيئًا من تراب مقبرة الشيخ عَديّ! ويزعمون أنّ الله ورسوله يتذللون بين يدي عَديّ بن مسافر، وان الله هو الذي أنزله بجبل (لالِش) وهذا الجبل عندهم أفضل من الكعبة، ويسجدون له ولمقام الشيخ عَديّ، ويقولون ان من لا يسجد له كافر.
وأخيرًا، فاليزيدية تعتقد في أن الشيخ عَديّ بن مسافر، سوف يحمل أمته في طبق، ويحمله على رأسه ويذهب بهم إلى الجنة.. (احمد تيمور: اليزيدية ومنشأ نحلتهم ـ المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٧ ـ ص٣ وما بعدها).

ولكن مَنْ هي هذه الذرية القادرية التي استوطنت هذه الزاوية؟ وما هي الصلة بين هذه الذرية وبين القادرية الفارضية.. ولم سُميت القادرية الفارضية بهذا الاسم؟

يقول أحمد تيمور إن جماعة القادرية الذين نزحوا إلى مصر، ونزلوا بهذه الزاوية وتولوا شئونها والنظر على أوقافها، كان من عادتهم دفن موتاهم فيها، وتلك القبور التي بإيوانات الجامع، ليست إلاَّ من بقايا قبورهم[1]. ويمكن أن نتعرف على ستة من أصحاب هذه الأضرحة الباقية إلى اليوم، وهم[2]:

- محمد بن علي بن حسين بن محمد الأكحل بن شِرْشِيق بن عبد العزيز بن الإمام الجيلاني، توفي بالطاعون سنة ٨٤٠ هجرية.

- ابنه؛ موسى بن محمد بن علي بن حسين، المتوفى أيضا بالطاعون سنة ٨٤١ بعد أبيه بيسير.

- ابنه؛ زين الدين محمد بن موسى بن محمد بن علي، شيخ طائفة القادرية في وقته.. قيل إنه مات سنة ٨٥٥ هجرية بعد تعلُّلٍ مدة طويلة، وصُلِّي عليه في محفلٍ شهده أمير المؤمنين لصداقة كانت بينهما، ثم رجعوا به إلى زاوية عَديّ بن مُسافر (محل سكناه).. فدفن فيها عند أبيه وجده.

- حسن بن محمد بن عبد القادر بن علي بن محمد الأكحل بن شِرْشيق، المتوفى ٨٦٧ هجرية.

- أخوه؛ علي بن محمد بن عبد القادر.. المتوفى ٨٥٣ هـ.

- ابنه؛ عبد القادر بن حسن بن محمد.. المتوفى ٨٧٩ هـ.

وعلى هذا النحو، تكون هذه الذرية من نسل (الشيخ عبد العزيز) بن

---

(١) أحمد تيمور: اليزيدية ومنشأ نحلتهم، ص٣٥.

(٢) انظر ما ذكره التادفي عن هذه الذرية القادرية الآتي ذكرها في (قلائد الجواهر ص٦٨: ٧١).

الإمام الجيلاني.. وإذا كان شمس الدين محمد الأكحل بن شِرْشيق المتوفى ٧٣٩ هـ[١] ـ وفقًا لما ذكره المؤرخون ـ لم ينزل مصر، وإنما قضى حياته محدثًا بدمشق.. فإن أول من قدم مصر من القادرية، هو حفيده: عُلّيّ بن الحسين بن محمد الأكحل بن شِرشيق، المعروف باسم (عُلّي[٢] القادري) وباسم (علاء الدين البغدادي) والملقب أيضًا بلقب: قاضي الحقيقة. وكان علاء الدين البغدادي[٣] أول من استوطن مصر من القادرية، وقد حاز الشيخ الوافد

---

(١) هو من كبار أحفاد الشيخ عبد العزيز بن عبد القادر الجيلاني.. يقول ابن حجر في الدرر: محمد بن شِرْشيق بن محمد بن عبد العزيز بن عبد القادر بن صالح الجيلي، شمس الدين أبو الكرم.. حفيد الشيخ عبد القادر، ولد في رمضان سنة ٦٥١ وكان يعرف بالحيالي (في قلائد الجواهر: الجبالي) نسبة إلى الحيال بسنجار، نزلها جده الأعلى عبد العزيز في حدود سنة ثمانين وخمسمائة.. حفظ القرآن وتفقه وسمع بدمشق، وكان مشهورًا بالصلاح والعبادة، ولم يمس كفه ذهبًا ولا فضةً في طول عمره.. وكان هو وأهل بيته معروفين بمناصحة الإسلام والمسلمين، مات في سلخ ذي القعدة أو في أول ذي الحجة سنة ٧٣٩، وأولاده: الحسام عبد العزيز، والبدر حسن، والعز حسين، والظهير أحمد (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد الدكن ـ الهند، المجلد الثالث ص٤٥٢) وقد ترجم له أيضًا، الذهبي في الذيل على تاريخ الإسلام، وابن تغري بردي في المنهل الصافي، وشمس الدين الجزري في تاريخه، والتادفي في القلائد.

(٢) اعتقد احمد تيمور أن (عُلّيّ) محرف من (عدي) ابن مسافر، وقال بعدم وجود الاول على الإطلاق.. وهو قول يفتقر إلى الدليل، ويخالف ما ذكرته المصادر التاريخية التي اعتمدنا عليها.

(٣) هو الشيخ الصالح علاء الدين علي بن حسين بن شمس الدين محمد الأكحل بن شِرْشيق. يقول التادفي: استوطن مصر هو وأولاده بعد دخول الملك الأشرف برسباي القاهرة، كان حسن الخلق والخلق ذا هيبة ووقار، وكان عين القادرية في زمانه بالديار المصرية.. مولده ـ على ما أخبرتني به الست الشريفة فاطمة بنت الشيخ حيدر ـ في سنة أربع وثمانين أو خمس وثمانين وسبعمائة، وكانت وفاته شهيدًا بالطاعون في نهار الخميس يوم عاشر صفر سنة ٨٥٣ ودفن بالتربة المعروفة بسيدي عدي بن مسافر، ودفن له في هذا المكان المذكور جملة من أولاده (قلائد الجواهر ص٦٨).

وقد زار مصر ـ قبل الشيخ علاء الدين ـ العديد من أبناء الإمام الجيلاني وأحفاده، لكنه كان أول من استوطنها منهم.

شهرة واسعة عند العامة والخاصة.. حتى بعد وفاته، فقد ظل مريدوه بمصر يقيمون حضرته الأسبوعية ومولده السنوي، وهو ما أشار إليه كُلٌّ من النابلسي في رحلته والمقريزي في الخطط[1].. ثم توقفت هذه المراسم في بداية القرن الحالي[2]، حتى عادت هذه الاحتفالات مرة أخرى على يد الشيخ الحالي للطريقة.

أما لقب «الفارضية» فهو مستمد من أحد مشايخها المتأخرين، المعروف بالشيخ محمد الفارضي - إذ كان يتولى إثبات فروض النساء على الرجال - المتوفى في شوال سنة ١٢٨٥ هجرية[3].. والذي يتصل نسبه بالإمام الجيلاني على النحو التالي، فهو: محمد بن سليمان بن سليمان زهير الخضيري بن حسن بن علي بن أحمد بن نور الدين بن عبد الجواد بن أحمد بن محمد بن (قاضي الحقيقة) علاء الدين (عَلِيّ) البغدادي بن حسين بن محمد الأكحل بن حسام الدين شِرْشيق بن عبد العزيز بن الإمام عبد القادر[4].

وأما الشيخ الحالي للطريقة، فهو السيد مسعود حجازي الذي ينتسب إلى الشيخ محمد الفارضي، من حيث كون الأخير لم ينجب إلا ابنتين، هما «عائشة النبوية» و«سارة»، وكانت الثانية عقيمة، أما الأولى فقد انجبت عدة أبناء، منهم السيد مسعود مسعود، وهو جد السيد مسعود بن عبد السلام حجازي

---

(١) الحقيقة والمجاز ص٢٠١، خطط مصر ٣/٤٣٦.

(٢) يظهر ذلك من قول أحمد تيمور «ثم أبطلت الآن» يقصد الحضرة والمولد السنوي (انظر: اليزيدية ص٢٩).

(٣) يعتقد ترمنجهام أن القادرية الفارضية، طريقة تستمد أصولهامن الشاعر الصوفي عمر بن الفارض (The Sufi Orders.. P. 271) وهو خلط أدى إليه تشابه اللقب بين ابن الفارض والشيخ محمد الفارضي!
وتجدر الإشارة هنا إلى أن (ابن الفارض) لم تُعرف له طريقة صوفية بعد وفاته.. ولا يزال قبره بجبل المقطم بالقاهرة، منزويًا خاليًا من الوراد في معظم الأوقات.

(٤) اعتمدنا فيما يتعلق بنسب الشيخ محمد الفارضي على «شجرة النسب» المحفوظة لدى الشيخ الحالي للطريقة، بالإضافة إلى حجج الأوقاف المحفوظة بالشهر العقاري بالقاهرة.

مسعود القادري[١].

وقد سُجل السيد مسعود حجازي بالمجلس الأعلى للطرق الصوفية ـ كنائب عن والده في مشيخة «القادرية الفارضية» سنة ١٩٧٧، ثم أصبح شيخًا للطريقة بعد ذلك بخمس سنوات.. وهو شخصية نشطة مستنيرة، يعمل بكل طاقته على بعث الطريقة لسابق عهدها بعد الانقطاع الطويل الذي بدأ مع نهايات القرن الماضي.

وقد اتخذ الشيخ الحالي للطريقة من جامع السادة القادرية مقرًا، كما كان الأمر في العهد الأول، ثم عمل على إحياء فروع طريقته بالمحافظات المحيطة بالقاهرة، متخذًا في كل فرعٍ منها نائبًا للطريقة، وهذه الفروع على وجه التحديد هي:

ـ فرع بمحافظة الجيزة، ببلدة (كَفْر طُهُرْمُسْ) وبه مسجد ملحق به مركز لتحفيظ القرآن[٢].

ـ فرع بمحافظة الدقهلية، ببلدة (شِرْبين).. وهو في حكم المندثر.

ـ ثلاثة فروع بمحافظة الشرقية، موزعة بين (أبي حماد) و(منيا القمح) و(كفر مسعود حجازي).. وبكل فرعٍ منها مسجدٌ ملحقٌ به مركز لتحفيظ القرآن.

* * *

(١) السيد/ مسعود حجازي، ولد بمحافظة الشرقية سنة ١٩٤١، وحصل على درجة الليسانس من قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، ثم عمل لفترة بالبرامج التعليمية بالتلفزيون، انتقل بعدها إلى مجمع اللغة العربية، حيث يشغل الآن منصب: مراقب عام ادارة المعجمات وإحياء التراث!

(٢) راجع (مشيخة السادة القادرية الفارضية) للاستاذ مسعود حجازي ص٥٦.

أما التقاليد الصوفية المتبعة عند القادرية الفارضية، فهي تبدأ بتلقي المريد للعهد من شيخه[1]: فيجلس المريد تجاه الشيخ ملاصقًا ركبتيه بركبتي شيخه، واضعًا يده اليمنى بيد شيخه - بعد صلاة ركعتين نفلاً لله تعالى - ثم يقرأ الفاتحة لحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وإخوانه المرسلين والنبيين - صلوات الله عليهم - وآله وأصحابه والتابعين.. ثم يقول الشيخ لمريده: قل «استغفر الله، استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، أشهد الله وملائكته ورسله وأنبياءه بأني تائب إلى الله تعالى منيب إليه وأن الطاعة تجمعنا وأن المعصية تفرقنا، وأن العهد عهد الله ورسوله وأن اليد يد شيخنا وأستاذنا الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني - قُدِّسَ سِرُّهُ - وعلى ذلك بأني أحل الحلال وأحرم الحرام أي اجتنبه وألازم الذكر والطاعة بقدر الاستطاعة، ورضيت شيخنا المشار إليه شيخًا لي، وطريقته طريقة لي، والله على ما نقول وكيل.

ثم يقول الشيخ - سرًا - ثلاث مرات: «يا واحدٌ يا ماجدٌ أنفحنا بنفحةٍ منك» ويقرأ آية المبايعة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

وبعد ذلك يتلو الشيخ على مريده كلمة التوحيد «لا إله إلاَّ الله» ويوصيه بالوصايا اللازمة من تقوى الله وطاعته وتحمل الأذى والصفح عن عثرات الأخوان.. وغير ذلك من الأمور التي عرضنا لها عند الكلام عن «حسن الخلق» في الباب الثاني من هذا البحث.

وأخيرًا يدعو الشيخ لمريده بالهداية، ويقدم له كأسًا به ماء قراح - وأحيانًا

---

(١) انظر، كيفية مبايعة الشيخ لمريده في الطريقة العلية القادرية (الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، ص٢٩، ٣٠، ٣١).

(٢) سورة الفتح، آية ١٠.

بسكر ـ ـ ويقرأ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[1] ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وسورة الفاتحة. والإخلاص ثلاث مرات، ويشرب المريد الكأس.. ومن وقتذاك يُعدُّ قادريًا.

فإذا انخرط هذا المريد في سلك القادرية الفارضية، فعليه بمداومة الفرائض والنوافل وفضائل الأعمال، وعليه أيضًا حضور (الحَضْرة الأسبوعية) التي تُعقد بعد صلاة العشاء من كل يوم اثنين بجامع السادة القادرية.. وقد رتَّب الشيخ الحالي للطريقة وسائل انتقال المريدين من وإلى مكان الحَضْرة، حتى يتلافى مشقة الانتقال على مَنْ يقيمون بعيدًا..

وفي هذا الالتقاء الروحي الأسبوعي، تُقرأ بعد صلاة العشاء بعض آيات القرآن، ثم الفتح الأول من الصلوات وحتى الفتح الرابع منها، ويقرأ بعد ذلك حزب النصر.. وقد جُمعت هذه الصلوات في كتيب خاص يوزع على الاخوان[3].

وبعد الانتهاء من قراءة هذه الصلوات، يترنم الحاضرون بأبيات قصيدة الإمام عبد القادر الجيلاني المُسماة بقصيدة (أسماء الله الحسنى) والتي يقول مطلعها:

شَرَعْتُ بِتَوْحِيدِ الإِلَهِ مُبَسْمِلاً   سَأَخْتِمُ بِالذِّكْرِ الْحَمِيدِ مُجَمِّلاً[4]

---

(١) سورة يس، آية ٥٨.

(٢) سورة الأسراء، آية ٨٢.

(٣) بمطابقة ما ورد في كتاب (الأدعية والصلوات الخاصة بالطريقة القادرية الفارضية) يتضح انه لم يخرج عما أثبته الشيخ إسماعيل بن سعيد القادري في كتابه الجامع: الفيوضات الربانية (راجع صفحات ١٥١ ـ ١٨٥) حيث يتضح أن «الفتح الأول» عند القادرية الفارضية هو جزء من «ورد الصلاة الكبرى» في الفيوضات، وهكذا الأمر في بقية الفتوحات والأوراد.. ويبدو أن الشيخ الحالي للقادرية الفارضية قد انتقى من الفيوضات ما لا يستعصى فهمه على مريديه؛ أما حزب النصر فقد ورد في الفيوضات كما هو عند القادرية الفارضية، بتمامه!

(٤) انظر نص القصيدة بديوان عبد القادر الجيلاني.

ويختتمون مجلسهم بالذكر، وهو على ما يرى شيخ الطريقة ذكرٌ شرعيٌّ، يعني أنهم يجلسون - في وقارٍ - يرددون الأسماء الحسنى بلا ترنح ولا تمايل.. ولا هوس.

وأخيرًا، يقرأ الحاضرون الفاتحة: لأولاد سيدي عبد القادر.. وللسيد محمد شِرْشيق، ولوالده السيد شِرْشيق، ولابنه السيد الحسين، ولحفيده السيد علاء الدين الشهير بعُلّيّ.. وللسيد محمد الفارضي، ولابنتيه السيدة سارة والسيدة عائشة النبوية وزوجها السيد مسعود حجازي المتوفى بأراضي الحجاز.. ولأولادهم وذريتهم، آمين!

★ ★ ★

وبعد.. فإذا كانت القادرية الفارضية هي أقدم فروع القادرية بمصر، فإنها اليوم تولد ميلادًا جديدًا.. وربما شاء الحق تعالى، فانبعثت هذه الطريقة التليدة في السنوات القادمات، وقامت بدورها في إحياء التراث الديني والتربوي.. وهو الدور الذي قامت به القادرية في العالم الإسلامي لقرونٍ طوالٍ.

الفصل الثالث

القادرية القاسمية

القادرية القاسمية هي ثانية الطرق المسجلة بالمجلس الأعلى للطرق الصوفية بمصر(١)، وهي واحدة من أعرق فروع القادرية وأقدمها عهدًا بالديار المصرية.. وكان ماسينيون قد ذكر أن تاريخ هذا الفرع القادري يرجع إلى القرن التاسع عشر(٢)، إلاّ أن الشواهد تدل - كما سنرى - على أنها أقدم من ذلك عهدًا.

إسناد الطريقة:

تستمد الطريقة القادرية القاسمية اسمها، من الجمع بين الإمام عبد القادر وبين أحد مشايخها المتأخرين، هو السيد قاسم بن محمد الكبير، الذي كان أحد كبار المشايخ في عصره. وقد اجتهدنا لمعرفة بعض أخبار هذا الشيخ، فلم نقع له على أية ترجمات - أو حتى إشارات عابرة - لا بين أيدي القاسمية، ولا بين رفوف المكتبات.

والأثر الوحيد المكتوب، فيما يتعلق بهذا الفرع القادري، هو تلك الإجازة التي ينيب بموجبها شيخ الطريقة نوابه في الأقاليم.. ومن هذه الإجازة يتضح

---

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص ١١٠ - الطرق الصوفية في مصر ص٧٢.

(٢) Art. (TARIKA) in; Ency. of Islam Vol. 4, P. 670.

أن سلسلة مشايخ القاسمية تتصل بالإمام الجيلاني عن طريق ولده الشيخ عيسى بن عبد القادر[1]، الذي تسميه العامة بمصر الشيخ عيسى (أبو رُمَّانَة).

ومن شيخ القاسمية سمعنا قصة غريبة تؤرخ لبداية الطريقة القادرية بمصر! وطبقا لحكاية شيخ القاسمية، دخلت امرأة على الإمام الجيلاني في مدرسته ببغداد، تشكو إليه مرضًا عضالاً: كان الأطباء قد وصفوا لعلاجه الرُّمّان، ولم يكن الوقت أوان رُمَّان.. فأسرع الشيخ عيسى بن عبد القادر، ومد يده في الهواء وأحضر لها رُمَّانَة! فقال له الشيخ عبد القادر إن بغداد لن تسعهما معًا، وأمره بنزول مصر، فبدأت الطريقة القادرية ـ القاسمية ـ في مصر على يديه!!

ويتضح من هذه الحكاية لون التفكير الغالب على القاسمية، وتأثرها ببدع العامة ومتأخري الصوفية وتعلقهم بحديث الكرامات. ومما لا شك فيه، أنه ليس ثمة حقيقة تاريخية وحيدة فيما رواه شيخ القاسمية[2]، ولو كان الشطنوفي

---

(١) هو الفقيه المحدث عيسى بن القادر الجيلاني، تفقه على يد والده وسمع منه الحديث الشريف، ودرس وحدَّث ووعظ وأفتى، ووضع مؤلفات منها (جواهر الأسرار ولطائف الأنوار) قدم مصر وكان يعظ بها على المنابر وله قبول من الناس، توفي في الثاني عشر من رمضان سنة ٥٧٣ هـ ودفن بالقرافة بمصر (قلائد الجواهر ص٥٣/ عبد القادر الجيلاني للسامرائي ص٣٥).

(٢) ينقل التادفي عن تاريخ ابن النجار قوله: خرج عيسى بن عبد القادر من بغداد بعد وفاة والده، ودخل الشام وسمع بدمشق سنة ٥٦٢ هـ ثم انه دخل مصر وأقام بها إلى حين وفاته ـ وقد ذكر له التادفي أبياتًا في الحنين إلى موطنه، منها:

تَحَمَّلْ سَلاَمِي نَحْوَ أَرْضِ أَحِبَّتِي ... وَقُلْ لَهُمْ إِنَّ الْغَرِيبَ مَشُوقُ
فَإِنْ سَأَلُوكُمْ كَيْفَ حَالِيَ بَعْدَهُمْ ... فَقُولُوا: بِنِيرَانِ الْفِرَاقِ حَرِيقُ
فَلَيْسَ لَهُ إِلْفٌ يَسِيرُ بِقُرْبِهِمْ ... وَلَيْسَ لَهُ نَحْوَ الرُّجُوعِ طَرِيقُ
غَرِيبٌ يُقَاسِي الْهَمَّ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... وَمَنْ لِغَرِيبٍ فِي الْبِلاَدِ صَدِيقُ

وتشعرنا هذه الأبيات بأن الشيخ عيسى، لم يطِب له المقام بديار مصر، وأن المنية وافته قبل الرجوع لبغداد.. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أخاه يحيى ـ أصغر أولاد الإمام الجيلاني ـ كان قد أقام بمصر زمنًا، لكنه عاد إلى بغداد وتوفي بها سنة ٦٠٠ هـ، ودفن بجوار أبيه (قلائد الجواهر ص٥٥).

قد سمع هذه الحكاية، لكان قد حشدها ضمن حكايات البهجة، إلاّ أن الواضح هو أن تأليفها كان تاليًا للعصر الذي عاش فيه مقرئ الديار المصرية، نور الدين الشطنوفي.

وفي إجازة شيخ الطريقة القاسمية لنوابه، ترد العبارة التالية:

«أَذِنَ الْغَوْثُ الأَعْظَمُ وَالْمَلاَذُ الأَفْخَمُ، سَيِّدِي عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلاَنِي، أَنْ يَفْتَحَ...[1] مَجَالِسَ الذِّكْرِ، وَيَفْتَتِحَ الزَّوَايَا، وَيُعْطِي الْعُهُودَ، وَيُرْشِدَ السَّالِكِينَ، وَيَشُدَّ الْحِزَامَ، وَيَرْفَعَ عَلَى رَأْسِهِ الْبَيْرَقَ الأَخْضَرَ وَالْخِرْقَةَ الْخَضْرَاء[2]، وَيَسِيرَ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي بِلاَدِ اللهِ، عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَحُكْمِ الْخُلَفَاءِ السَّالِفِينَ، عَلَى سَائِرِ الْفُقَرَاءِ، وَالْمُرِيدِينَ وَالسَّادَاتِ الصُّوفِيَّةِ وَالدَّوْلاَتِ الْقَادِرِيَّةِ.. وَالآذِنُ لَهُ هُوَ حَضْرَةُ الشَّيْخِ حُسَيْن أَحْمَد الْقَادِرِي[3].

وقد أوردنا هذا النص بتمامه، لما يشير إليه من أمور.. أولها، ذلك التحديد الدقيق لمهام نائب الشيخ في الطريقة، وهو تحديد لم يترك لهذا الشيخ مهمة خاصة به، بل يقوم بموجبه النائب، مقام شيخ عموم الطريقة؛ وهي مسألة أدت إلى استقلال فروع الطريقة القاسمية عن شيخها، على النحو الذي سنراه عند عرضنا لفرع القادرية القاسمية بالفيوم.

والأمر الثاني الذي يتضح من إمعان النظر إلى هذه الفقرة، هو ذلك الطابع الشمولي الذي يتميز به التصوف المتأخر عمومًا، وقد تجلى هذا الطابع في إشارات مثل «يسير شرقًا وغربًا في بلاد الله» وفي تعبير مثل «الدولات القادرية». وذلك الطابع الشمولي يرتبط بدوره بأمرٍ آخر، هو استقرار فكرة

---

(١) يُكتب في هذا الموضع، اسم النائب القادري المأذون له بما في الإجازة.

(٢) كانت العمامة الخضراء في القرون الأولى، علامة على الاشراف من آل بيت النبوة، ثم اتخذتها القادرية شارة لها (انظر، طبقات الشرنوبي ـ القاهرة، بدون تاريخ ـ ص٧٢).

(٣) انظر الورقة الرابعة من إجازة القادرية القاسمية المحفوظة لدى شيخ الطريقة ونوابه في الأقاليم، وتوجد نسخة منها بالمجلس الأعلى للطرق الصوفية بالقاهرة.

« الحكومة الباطنية » في وجدان القادرية القاسمية، باعتبارها واحدة من تيارات التصوف المتأخر، الذي ظهرت فيه بوضوح فكرة الحكومة الباطنية التي كانت نتيجة حتمية لنمو وانتشار مذهب الصوفية[1].

الشيخ الحالي للطريقة:

وفقا لوثائق وقرارات المجلس الأعلى للطرق الصوفية بمصر، فالشيخ الحالي لعموم الطريقة القادرية القاسمية، هو الشيخ حسين أحمد علي القادري، المقيم بالزقازيق بمحافظة الشرقية.

وعند لقائنا بالشيخ، عرفنا منه أنه لم يتلق العهد القادري ومشيخة الطريقة من والده - على عادة القادرية - وإنما تلقاها من ابن عم له هو « الشيخ محمد عبد القادر علي » وذلك بعد وفاة الأخير، وزُهد أولاده في مشيخة الطريقة، نظرًا لأنهم - كما يقول شيخ القاسمية الحالي - « متعلمون تعليمًا عاليًا، ويتولون وظائف عامةً.. » كما لو كانت الطريقة ستخفض تعليمهم العالي، وتحرمهم وظائفهم الغالية!

وهكذا آلت مشيخة الطريقة للشيخ حسين القادري، الذي يثبت انتسابه للطريقة وسلسلة مشايخها على النحو التالي:

« الشيخ[2] حسين أحمد القادري، شيخ عموم السادة القادرية بمصر وأقطارها، قد بلغ طريق القوم عن السيد محمد، عن والده السيد عبد القادر، عن والده السيد علي، عن والده السيد محمد، عن والده السيد أحمد عن والده السيد قاسم عن والده السيد محمد الكبير، عن والده زين الدين.. عن علي.. عن مصطفى.. عن زين العابدين أحمد.. عن شرف الدين محمد درويش.. عن

---

(١) انظر التناول التفصيلي لهذه الفكرة في: الحكومة الباطنية للدكتور/ حسن الشرقاوي - بتقديم د/ محمد علي أبو ريان (الطبعة الأولى ١٩٧٥) ص١٢ وما بعدها.

(٢) إجازة القادرية القاسمية، الورقتان ٣، ٤.

حسام الدين.. عن نور الدين محمد.. عن شمس الدين.. عن محمد.. عن والده شرف الدين عيسى (ابو رمانة)[1] عن والده سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني...»[2].

وليس ثمة تعليقات لنا حول مدى صحة هذه السلسلة من عدمها، فالعهدة في ذلك على من أثبتها، إذ أن معظم الوارد ذكرهم في هذه السلسلة، ممن لم تتوقف عندهم المصادر التاريخية.. بل ان هذا السند يورد في معظم الأحيان (الكُنى والألقاب) دون أسماء المشايخ، مما يقضي على أية محاولة للتتبع التاريخي!

أما فيما يتعلق بالبيانات الشخصية لشيخ عموم القادرية القاسمية الحالي، فقد وُلد الشيخ حسين أحمد سنة ١٩٣٢، ونال دراسة أزهرية من صغره، ثم تخرج في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة ١٩٦٣، ويعمل حاليًا مفتشًا للمواد العربية بمنطقة الزقازيق الأزهرية.

اتجاهات الطريقة:

لم يضع الشيخ الحالي للقاسمية ـ أو أحد مشايخها المتقدمين عليه ـ أية مؤلفات للمريدين ومن ثم فقد فشلت محاولاتنا لتلمس أية جوانب فكرية أصيلة لهذه الطريقة.. وقد عولت القاسمية في المراسم والتقاليد الصوفية ـ كالعهد وتلاوة الأوراد ـ على ما ورد في «الفيوضات الربانية» دونما أية إضافات.

ويبدأ المريد القادري سلوكه عند القاسمية بتلقي العهد القادري من شيخ عموم الطريقة أو احد نوابه بالأقاليم.. وبهذا يصير قادريًا، على الطريقة القاسمية!

---

(١) هكذا في النص!

(٢) تستمر سلسلة التلقي، حتى تتوقف عند النبي صلى الله عليه وسلم.

وجوهر الطريقة يقوم على الوعظ والإرشاد.. ففي الغالب تبدأ الطريقة اجتماعاتها بدعوة من أحد النواب المنتشرين بالمدن والقرى المجاورة، فيقف شيخ عموم الطريقة خطيبًا في المريدين، يقص عليهم مناقب الإمام الجيلاني وشيئًا من كراماته، ويدعوهم لمداومة الذكر والأوراد القادرية، ثم تبدأ بعد ذلك «الحَضْرَة» التي تتلى فيها مجموعة من أوراد وصلوات القادرية كما وردت في «الفيوضات». وأخيرًا ينبه شيخ عموم الطريقة مريديه إلى ضرورة مطالعة مؤلفات الإمام الجيلاني، وخاصة كتاب: الغُنية.. ثم ينفض المجلس.

وفيما سبق يتضح غروب الفكر الصوفي الأصيل في سماء القاسمية، وبقاؤها واحدة من الطرق الصوفية ذات الطابع العملي الشكلي المتوارث.. ولعل ذلك ما جعل العامة يدخلون في هذه الطريقة بيسر، وبأعداد كبيرة، حتى أنه بسؤال شيخ الطريقة عن عدد مريديه، أجاب بما يعني أن هذا العدد: لا يقع تحت الحصر.

إلا أن الجانب التنظيمي الشكلي واضح تمامًا لدى القاسمية، فعلى حين يقيم شيخ عموم الطريقة بوسط الدلتا، يمتد نوابه في المحافظات المجاورة. فيوجد بكل بلدة «شيخ ناحية» وبكل مجموعة من القرى والبلدات المتجاورة «خليفة»، وبكل محافظة «خليفة خلفاء».. وكلٌّ من هؤلاء يعمل على تنظيم الطريقة في حدود المنطقة الخاصة به، ويسلم الأمر إلى من يعلوه في هذا الهيكل التنظيمي الذي ينتهي عند شيخ عموم الطريقة، المُقيم بقلب الدلتا.

ولقد ساعد هذا الإطار التنظيمي على انتشار القاسمية، إلا أن هذا الانتشار قائم في الحقيقة على الزيادة العددية فحسب.. تلك الزيادة التي أدت إلى اختفاء القادرية القاسمية، من فرط تواجدها فوق السطح!

وكان شيخ القادرية القاسمية قد أشار إلينا بضرورة التعرف على فرع الطريقة بالفيوم، فكانت إشارة موفقة، فقد رأينا هناك دولة قادرية ذات

مذاقٍ خاص، يرأسها رجل من صوفية الجنوب الورعين، هو الشيخ محمود الفزاري.

فرع القاسمية بالفيوم:

قيض الله تعالى لقادرية الفيوم شيخًا على درجة عالية من العلم والمعرفة، هو الشيخ محمود عبد التواب الفَزَاري، من قبيلة «فَزَارَة» العربية التي شارك رجالها في فتح مصر ثم استوطنوا الفيوم وما حولها في جنوب مصر، وقد نشأ هذا الشيخ نشأة صوفية من صغره، وتلقى معالم الطريق من والده ثم من شيخه/ أحمد عبد الحي الأشهب، شيخ القادرية هناك في وقته.. وتلقى الشيخ الفَزَاري تعليمًا أزهريًا حتى تخرج في كلية اللغة العربية سنة ١٩٦٣، إلا أنه عاد وحصل على بكالوريوس العلوم من قسم الجيولوجيا بجامعة الإسكندرية سنة ١٩٦٧، وأكمل دراسته العليا في جامعة ويزيربورج بألمانيا، حيث حصل على درجة الماجستير في الجيولوجيا التطبيقية Aplaygiology ثم سجل هناك موضوعه للدكتوراه (اكتشاف المعادن بالأشعة فوق البنفسجية) وعمل بعد ذلك مستشارًا فنيًا لشركة «فيليبس هوزمان» حيث تنقل في العديد من الدول العربية والأوروبية والآسيوية، مما يسر له الالتقاء بالقادرية في هذه البلدان، خاصةً في ألمانيا والهند ونيجيريا.

وعاد الشيخ الفزاري إلى مصر ليتولى شؤون القادرية بالفيوم بعد وفاة الشيخ الأشهب، وركز في تصوفه على الدور الاجتماعي والحضاري للطريقة إلى جانب دورها الروحي، فأقام مركزًا إسلاميًا للطريقة القادرية على هيئة نموذج مصغر من مسجد الصخرة بالقدس الشريف[1]، وقام ببناء العديد من المساجد والكتاتيب ـ لتحفيظ القرآن ـ إلى جانب بعض المؤسسات العلاجية.

(١) يقع هذا المركز القادري على طريق «القاهرة/ الفيوم» السياحي، على أطراف بلدة: سنهورس.

أما عن تصوف الشيخ الفزاري، فهو لا يقوم على الطابع الجزافي الذي رأيناه عند القاسمية، فالعهد القادري عنده ليس مشاعًا بين العوام، وإنما هو للخصوص.. ويستدل الشيخ الفزاري على ذلك بقوله تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[1] فهنا وردت الإشارة إلى المؤمنين، وليس إلى عامة المسلمين، وقد تكرر مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ..﴾[2].

ولهذا فلا يبدأ الشيخ المريد المبتدئ بتلقينه العهد القادري، وإنما على هذا المريد أن يجتاز طريقًا يؤهله لتلقي هذه البيعة المحمدية، ويلخص الشيخ الفزاري هذا الطريق في خطوات سبع، هي:

(١) الانتهاء من حياة الغفلة والجهالة:

وهذه الخطوة الأولى تشكل الأساس الذي يقوم عليه سلوك المريد بعد ذلك، وهي خطوة يتخذها المريد بنفسه، أي لا بد وأن تنبع من داخله أولاً، ثم تليها بقية المراحل التالية.. وهنا ينتبه الإنسان من سباته الدنيوي على حقائق الإيمان الإسلامي.

(٢) التوبة:

وهي كما أسلفنا أول مراتب السالكين، ويقصد بالتوبة هنا، التوبة النصوح الخالصة، التي تتضمن الإقرار بالذنب واستشناعه وعقد العزم على عدم الرجوع إليه.

(٣) الاستغفار:

يهتم الشيخ الفزاري بهذه الخطوة من خطوات الطريق، فيأمر المبتدئ بدوام ترديد «استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» ليلاً

---

(١) سورة الفتح، آية ١٨.

(٢) سورة الممتحنة، آية ١٢.

ونهارًا، فيرددها في النهار ٦٠٠ مرة وفي الليل مائتين.. وذلك لأن ذنوب الليل أقل من ذنوب النهار عددًا؛ وهي عمومًا مسألة يراد بها إشغال المبتدئ بالذكر والإنابة بما يحفظه عن الآثام.

(٤) هجر ملذات الدنيا:

يقول شيخ الفيوم بأنه على المريد أن يتخفف من الشواغل الحسية العارضة، بأن يهجر الملذات الدنيوية في بدايته، فيحفظ النفس من التعلق بالمتاع الفاني، موجهًا إياها إلى طريق القرب من الباقي.

(٥) المتابعة:

تعد هذه المرحلة، أكثر مراحل الطريق جدةً وتميزًا عند قادرية الفيوم.. فعلى ما يرى شيخها، فإن ملازمة المريد للشيخ ـ على النحو الوارد في آثار الصوفية الأوائل ـ أمر كان ممكنًا في الماضي، إلا أنه اليوم أكثر صعوبة نظرًا لتعقد دروب الحياة اليومية ومتطلباتها.. وعلى الرغم من ذلك فالملازمة أمر لا غنى عنه، ومن هنا استنَّ الشيخ سنَّة (المتابعة) بديلاً، وذلك بأن يقوم واحد من أعضاء الطريقة ـ ممن له تجربة صوفية سابقة ـ بمتابعة المبتدئ عن قرب وتوجيهه الوجهات الصحاح، عارضًا أحواله على الشيخ كلما واتت الفرصة لذلك.

(٦) التقرب بالنوافل:

هنا تبدأ مرحلة تدخُّل الشيخ في الحياة الروحية للمريد؛ فيتفرس فيه، موجهًا إياه إلى ما يلائم حاله من النوافل والنوادب وفضائل الأعمال والرياضات.. فإن كان المريد كثير اللغو مجادلاً، وجهه الشيخ إلى دوام الذكر الباطني والتفكر، وهكذا الأمر في كل ما يقتضيه حال المريد؛ حتى يبدأ ـ بتعبير شيخ الفيوم ـ التغير السيكولوجي للمريد، فتنقلب غفلته إقبالاً على العلم، ومحبته لأهواء نفسه محبةً للإخوان، ويتبدل جدله صمتًا أبلغ من الكلام.

ثم تأتي بعد ذلك الخطوة السابعة الأخيرة في المنحى الروحي لحياة المريد، وهي تلقي البيعة والعهد القادري، وهو عهد نوراني ينعقد بين المريد وربه - بواسطة الشيخ - لا تهم فيهم (الصيغة) بقدر ما تهم الهمة والإرادة والصدق.

بذلك يصبح المريد في هذه الطريقة قادريًا، وينخرط في سلك الطريقة ويتأدب بآدابها المثلى.. وأهم هذه الآداب عندهم: إصلاح النفوس، ومحبة الإسلام والمسلمين.

ولم يسطر شيخ الفيوم لمريديه كتبًا، فالكتاب في رأيه «دليل العالم وليس دليل الجاهل» وإنما يكتفي أحيانًا بتوجيه المريد إلى قراءة ما كتبه الإمام الجيلاني والشيخ أحمد الأشهب[1].

أما الدور الاجتماعي للطريقة فواضح كل الوضوح، فالشيخ هناك يهتم كثيرًا بتقديم المعونة المستترة للأسر المستحقة، كما يهتم بالكتاتيب والمؤسسات العلاجية.. أما أكثر أعمالهم روعة، فهو هذا الجهد الهائل لاستصلاح الأراضي البور بصحراء الفيوم، إذ أقام الشيخ لهذا الغرض رباطات صوفية بالصحراء، وأعطى إياها اسمًا يتوافق مع مقتضيات العصر هو: شركة النور الجيلاني!

ويربط شيخ الفيوم بين إنبات الأرض الجرداء وبين إصلاح النفوس الغافلة، ولذا فهو يُلزم كل مريد قادري هناك بأن يروي فدانًا في الصحراء من هذه الأرض التي يصلحونها.. فدانًا على الأقل، مهما كانت المكانة الاجتماعية لهذا المريد بين الناس! وتتولى الطريقة حاليًا استصلاح ١٥٠٠ فدانًا بالفيوم، وبضعة آلاف أخرى بالصحراء الغربية، ويمتلك مريدو القادرية هذه الأرض بعد إحيائها، ومن يدري فربما كانت هذه الصحارى نواةً لعالمٍ

(١) ترك الشيخ أحمد عبد الحي الأشهب ثلاثة مؤلفات، يتولى الشيخ الفزاري طباعتها وهي:
- هداية المريد في معرفة عقائد التوحيد.
- هداية السالكين (شعر صوفي).
- النصيحة المرضية في عقائد الدين والأوراد القادرية.

جديدٍ نقيٍّ، يستلهم أصولاً خالصة من حركة الإحياء القادرية هناك.

وأخيرا.. فعند تقصي حقيقة الرابطة بين قادرية الفيوم وشيخ عموم الطريقة القادرية القاسمية، أفاد شيخ الفيوم بأنه ـ هو وكبار القادرية هناك ـ إنما تلقوا العهد القادري من مشايخ الطريقة القادرية العرابية، المنتشرة بشمال أفريقيا حتى بلاد المغرب، أما ارتباطه بالقادرية القاسمية ـ باعتباره نائبًا بالفيوم عن شيخ عموم الطريقة الساكن بوسط الدلتا ـ فهو محض ارتباط إداري في سجلات المجلس الأعلى للطرق الصوفية بمصر.

الفصل الرابع

القادرية الشرعية

في أعماق مسجد الإمام الشعراني[1]، وبعيداً عن هوس المدينة وصخبها، ينزوي فرعٌ من فروع القادرية بمصر.. فرعٌ وفد إلى مصر من بلاد المغرب العربي، يعرف باسم: الطريقة القادرية الشرعية.

وشيخ هذه الطريقة هو «عبد المنعم بن عبد النبي علي القادري المالكي» الذي انتسب إلى القادرية من وجهين.. الوجه الأول، هو تلقيه عن شيخه محمد حبيب الله الشنقيطي الذي أخذ عن شيخه ماء العينين القادري[2]، عن والده

(١) مسجد الشعراني: مسجد عتيق، يشرف على ميدان (باب الشعرية) بالقاهرة، به مقام الشيخ عبد الوهاب الشعراني - إمام التصوف في القرن العاشر الهجري - وهو على رحابته، ليس له من العناية ما يتناسب مع مكانة الشعراني.. انظر الوصف التفصيلي للمسجد في: الخطط التوفيقية ٢/٣٤٠/ مساجد مصر الجزء الثاني ص١٣٥.

(٢) الشيخ مصطفى محمد ماء العينين، توفي ١٩١٠ ودفن في زاويته التي بناها بمدينة سمارة بالصحراء المغربية. كان ماء العينين ووالده محمد فاضل من أجلّ مشايخ القادرية بالمغرب العربي، كما كان لطريقتهما القادرية دور في نشر الدعوة الاسلامية في أفريقيا السوداء، خصوصاً في عهد ماء العينين الذي عمل على توحيد مختلف الطرق وتوجيهها لمقاومة الأجنبي.. وقد أجاز ماء العينين في ورد السلسلة القادرية كل من: السيد عبد الحي القادري شيخ قادرية تطوان، مؤلف كتاب (بستان الأصاغر والأكابر في ترجمة الشيخ عبد القادر) والسيد محمد حبيب الله الشنقيطي - المذكور هنا - والذي ألف (كتاب الظاهري والباطني) وهي منظومة الورد القادري تقع في ٤٨ بيتا.. (انظر، عبد القادر القادري: الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي ص٥٠، ٥١) وللشيخ ماء العينين مؤلف صوفي بعنوان: السيف والموسى على قصة الخضر وموسى (طبع على الحجر بفاس، سنة ١٣٢١ هجرية).

السيد فاضل بن مامين القادري، عن السيد أحمد الشريف السنوسي عن السيد أحمد الريفي، عن السيد محمد بن علي السنوسي، عن السيد أبي العباس العرايشي (أحمد بن إدريس) عن أبي المواهب التازي عن أبي البقاء المكي، عن السيد محمد المدني، عن السيد عمر بن أحمد جبريل، عن السيد محمد بن يحيى الطواشي، عن والده أبي زكريا يحيى الطواشي، عن الشيخ صالح الفريري، عن كمال الدين الكوفي، عن أبي الفتح سعد الدين البغدادي، عن الإمام عبد القادر الجيلاني.

والوجه الآخر لنسبة شيخ القادرية الشرعية، هو أخذه الطريقة القادرية تلقينًا ومبايعةً عن شيخه ووالده محمد العسقلاني، والآخذ عن شيخه أحمد حمدي القادري - شيخ تكية المغربلين بالقاهرة - عن شيخه السيد فوزي القادري - شيخ تكية قصر العيني - عن الصوفي المعروف إسماعيل القادري[1]، عن شيخه السيد محمود القادري عن والده السيد زكريا الكيلاني - نقيب السادات ببغداد - عن شيخ الإسلام كمال الدين ابن أبي شريف، عن أبي العون الغزي عن رسلان الرملي عن نصرالله الجدلي عن عبدالله بن الناصح عن الإمام عبدالله بن محمد العجمي (عاش ١٨٥ عامًا، فقد ولد ٥٤٦، وتوفي ٧٣١)[2] عن الإمام عبد القادر الجيلاني[3].

ويستوقفنا فيما سبق أمران، الأول: إن نسبة شيخ الطريقة للقادرية - وفقًا لتلك السلسلة التي ذكرها - هي نسبة روحية لا يتصل بها نسب القرابة، وحسبنا ما أوردناه في فصل النسبة الأولى عند الكلام عن نسب الإمام عبد القادر في الكتاب الأول من هذه المجموعة، وإنما نكتفي هنا بالإشارة إلى أن

---

(١) هو السيد إسماعيل بن السيد محمد سعيد القادري، له شهرة خاصة عند متأخري القادرية، إذ أنه مؤلف كتاب (الفيوضات النورانية) الذي اشتمل على أوراد الإمام عبد القادر وصلواته وأشعاره.. وإن كان تاريخ وفاته غير معلوم لنا على وجه الدقة.

(٢) Ency. of Islam, Art (KADIRIYYA) P. 381.

(٣) الركائز الإيمانية ص١٠، ١١ - الدرر النورانية ص ٢٧، ٢٨.

هذه النسبة الروحية، التي تدعمها روافد صوفية صحراء بلاد المغرب، هي دعامات كافية لإرساء طريقة صوفية.. طالما قامت هذه الطريقة على أصليْ الإسلام (الكتاب والسنة) بقطع النظر عن مسألة التوارث.

والأمر الثاني الذي يستوقفنا هنا، هو تسمية الطريقة بالقادرية (الشرعية) فهل أراد شيخها أن يفصح عن الأسس التي تقوم عليها طريقته؟ ربما كان الأمر على هذا النحو، لكن الأوثق من ذلك، ما ذكره الشيخ في كتابيه اللذين وضعهما لمريديه، وهما:

- الركائز الإيمانية: «في أصول دعوة السادة القادرية الشرعية»

- الدرر النورانية: «في شرح مجلس ذكر طريقة السادة القادرية الشرعية»[1].

ففي الكتاب الأول (الركائز) يشير الشيخ إلى أن سبب تسمية طريقته بالقادرية الشرعية، مقتبس من (الأوراد الشرعية) التي أُلهم بجمعها، والتي لا تخرج في جملتها عن الكتاب والسنة، وما استخلصه منها الإمام عبد القادر.. فقد وجد شيخ القادرية الشرعية أن «مَنْ ينتسب لهذه الطريقة في هذه البلاد (المشرقية) عمومًا، لا يوجد عنده أصل الورد القادري المروي عن الإمام عبد القادر بنفسه، إنما توجد عنده أحزابه وتتمات ورده، دون أصل هذا الورد[2]»، وهكذا استمدت الطريقة اسمها من هذا الورد الشرعي الذي

---

(١) ذكر الشيخ في خاتمة «الدرر» أنه انتهى من تأليفه، ليلة الخميس الرابع من جمادى الأولى سنة ١٣٧٦ هجرية، أما «الركائز» فقد كتبه في الخامس والعشرين من صفر سنة ١٤٠٢ هجرية.. والكتابان مطبوعان، وبالإضافة لهذا فقد ذكر الشيخ في (الدرر النورانية ص٨) أن له كتابًا بعنوان: وصول المريد إلى الطريق السديد.
وقد بحثنا عن هذا الكتاب الأخير حتى وقعنا عليه، فوجدناه كتيبًا صغيرًا يشتمل على مبادئ وأحزاب وصلوات الطريقة، انتهى منه مؤلفه..» يوم الاثنين التاسع والعشرين من رجب عام ١٣٨١ هجرية.

(٢) الركائز الإيمانية، ص٣٠.

وضعه الشيخ في كتابه: الدرر النورانية.

ويبدأ المريد سلوكه بتلقي «البيعة المحمدية والعهد القادري الشرعي» من الشيخ، فيعاهد المريد أن يعمل بالكتاب والسنة وعمل الخير وأن يلتزم بقراءة أوراد القادرية وصلواتهم وكل ما جاء عنهم[1]. وقد وضع شيخ القادرية الشرعية لمريديه مبادئ ـ ألهمه الله بنشرها ـ كان قد ألزم نفسه بها، ودعا إليها أخوانه، وهذه المبادئ هي:

أولا: تعلم الشريعة والعمل بفرائضها.

ثانيا: تنقية القلوب وإحياء نورها بذكر الله.

ثالثا: حسن التوكل على الله والرضا بالقضاء والقدر.

رابعا: العمل على أن يأكل كل تابع من عمل يده وإتقان عمله.

خامسا: مساندة الإخوان وتوجيههم الوجهة الصحيحة.

سادسا: الاختلاف مرة في الاسبوع لعقد مجلس ذكر يناجي فيه العبد ربه.

سابعا: الاعتقاد في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنه الوسيلة العظمى.

ثامنا: نشر الدعوة، بتجميع القلوب على توحيد الله وحب رسوله.

تاسعا: الاهتمام بنظافة الظاهر والباطن.

---

(١) الدرر، ص٣، ٤،.. ونص العهد القادري الشرعي: أعاهد الله عهداً لا ينفصم في هذه اللحظة التي أنا جالس فيها بين يديه، أن أعمل بما جاء في كتابه وسنة نبيه، فأحافظ على فرائضه التي افترضها عليّ من صوم وصلاة وزكاة وحج، وأن أبر والديّ وأهلي واخواني في الطريق واخواني في الدين، وألا أحقد على أحد منهم ولا أغتابه، ولا أضره في نفسه وماله وعرضه، وأعاهده تعالى أن لا أقتل ولا أشرب الخمر ولا أزني ولا أسرق، وإني قد رضيت رضاه صادراً عن قلبي، بالانتساب إلى هذه الطريقة القادرية الشرعية.. كوسيلة أعمل بما جاءت به لوصولي إلى مرضاة ومعرفة الله عز وجل، وارتضيت ان يكون شيخي هذا مرشداً روحياً له الحرمة المطلقة من سمع وطاعة بلا مراجعة أو تهاون مني ما دام عاملاً بالكتاب والسنة..

عاشرا: الدعوة إلى معرفة الله وإصلاح وتعمير المساجد والعمل بما سلف[١].

وبالإضافة إلى هذه المبادئ، فقد اهتم شيخ الطريقة اهتمامًا خاصا بمجلس الذكر الذي يُعقد عقب صلاة العشاء ـ كل يوم جمعة ـ بمسجد الشعراني، وهو يفتتح كتابه الدرر النورانية بالحديث عن فضل الذكر والذاكرين، حاشدا العديد من الآيات والآثار النبوية التي تعلي من شأن الذكر وأهله، بل ويروي عن نفسه أنه كان ـ إذا أصابه مرض ـ «يزحف على يديه ويتحامل على نفسه» كي لا يتخلف عن مجلس الذكر، وحتى يكون قدوة لمريديه، وذلك لعلمه أن مجلس الذكر أنفع للمريد من أي مجلس، إذ أن هذا المجلس هو مأدبة الله تعالى وروضته من الجنة، كما ورد في الحديث الشريف: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا! قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حِلَقُ الذِّكْرِ...»[٢].

وكان الشيخ يخشى على مريديه من التخلف عن مجلس الذكر، وكان يرى في ذلك بابًا لقسوة القلب.. أما مَنْ انشغل من المريدين عن حضور هذا المجلس، وانتحل الأعذار، فهذا من أراد الله أن يكون قاعدًا مع القاعدين، لعلمه أنه من المنافقين[٣]..

---

(١) وصول المريد إلى الطريق السديد ص٦، ٧ ـ الركائز ص٣٢، ٣٣.. وقد نقل شيخ القادرية الفارضية هذه الوصايا العشر، واختتم بها كتابه عن مشيخة القادرية الفارضية بجمهورية مصر العربية (ص٥٨).

(٢) الدرر ص٢، ٤، ٥.. والحديث رواه ابن حنبل في المسند والترمذي في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (برقم ٨٥٩) وفي جمع الجوامع (برقم ١٧٣٢/ ٢٦٤٣) ورمز له بالحسن.

وهنالك حديث رواه الطبراني عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: يا رسولَ الله، وما رياض الجنة؟ قال: مجالس العلم».

(٣) الدرر ص٦ ـ ويذكر الشيخ في هذا الموضع ما حكاه الشعراني من أن أحد مريدي الشيخ =

وقد جمع شيخ القادرية الشرعية لمريديه جملة الأذكار المستحب تلاوتها، وهي في جملتها لا تخرج عن الآيات القرآنية التي ذكرت الأحاديث الشريفة أنها جالبة للنفع، دافعة للضر.. بالإضافة إلى الشهادتين وترديد بعض الأسماء الحسنى(١).

وكما أهتمت القادرية الشرعية بالذكر، اهتمت اهتمامًا خاصًا بصلاة النوافل، وعلى رأسها صلاة التسبيح(٢).. وهي عندهم أساس صلوات النافلة،

= علي وفا (شيخ الشاذلية) كان كثير الاعتذار عن مجلس الذكر، وبينما هذا المريد يعتذر عن حضور أحد المجالس، سمع الشيخ هاتفًا يقول:

أيُّها المُعْرِضُ عنَّا ... إنْ إعْراضَكَ مِنَّا
لَوْ أردْنَاكَ جَعَلْنَا ... كُلَّ مَا فِيكَ يُرِدْنَا

ويعقب صاحب الدرر على ذلك بقوله: وهذا ميزان للمريد لما يخفى على قلبه.

وتجدر الإشارة إلى أن هذين البيتين قد ذكرهما أبو المواهب الشاذلي، في معرض كلامه عن الإعراض والتولي والبعد عن الله، دون أن ينسبها إلى قائل (انظر: قوانين حكم الاشراق ص٨٦).

(١) انظر، وصول المريد ص٨، ٩.

(٢) صلاة التسبيح: جاء في الحديث النبوي - من طرق عديدة - أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعمه العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه: «يا عباس، يا عماه، ألا أعطيك، ألا أمنحك، ألا أحبوك، ألا أجعل لك عشر خصال إذا أنت فعلت، غفر لك ذنبك أوله وآخره.. تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة، قلت وأنت قائم (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشرًا، ثم ترفع رأسك من الركعة فتقولها عشرًا، ثم تسجد فتقولها عشرًا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرًا، ثم تسجد فتقولها عشرًا، ثم ترفع رأسك فتقولها عشرًا، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، تفعل ذلك في أربع ركعات، فإن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة!».

(انظر: سنن أبي داود، كتاب التطوع ١٤ - سنن ابن ماجة، كتاب الإقامة ١٨٩ - صحيح الترمذي، كتاب الوتر ١٩) وفيما ذكره أئمة التصوف في فضل صلاة التسبيح، يمكن الرجوع إلى

- أبو طالب المكي: قوت القلوب، الجزء الأول ص٤٣. =

التي لا بد لمن ينتسب إلى الطريقة من أدائها، لعظيم فضل هذه الصلاة[1].

ويقول شيخ القادرية الشرعية، إنه وُفِّقَ في نشر صلاة التسبيح بين أخوانه وتابعيه «وهم ممن أنار الله قلوبهم، وشرح صدورهم للإيمان.. وتستحب صلاتها في الجمعة مرتين، ليلة الجمعة ويوم الاثنين، وهو ما نحن عليه الآن»[2].

★ ★ ★

وفي الثامن والعشرين من رجب، سنة ١٤٠٦ هجرية انتقل شيخ القادرية الشرعية إلى جوار ربه، فانتقلت معه الطريقة إلى سراديب الاضمحلال والتشتت.. فقد شاء الحق تعالى ألا يُخلف هذا الشيخ أولادًا، ولم يَخلفه أحد من مريديه في مشيخة الطريقة، فتفلت الأتباع من الوثاق الروحي الذي كان يجمعهم، وابتلعهم الهوس.

ولقد رأينا الشفق الأخير لغروب هذه الطريقة، ففي مسجد الشعراني ـ يوم الجمعة ـ كان الباقون لإحياء ليلة الذكر ومجلس العلم لا يتجاوزون في عددهم أصابع يدٍ واحدة.. بعدما كان هذا المجلس ـ وفقًا لما ذكره القائمون على أمر المسجد ـ يموج بعشرات من الذاكرين والمتبتلين، ولقد جالسنا الباقين طويلاً، فما كان مجلس ذكرهم إلا صياحًا، وحادثناهم.. فلم نجد عندهم شيئًا من علوم الصوفية، ولم نجد لديهم خبرًا عنها...

وعمومًا، فاثناء سعينا وراء فروع القادرية في مصر، لم نصادف من أنوار القادرية شيئًا، مثل ما وجدناها في مشكاة روحية شفافة ـ تتلألأ بالإسكندرية ـ تعرف باسم: القادرية النيازية.

= ـ ابو حامد الغزالي: الإحياء، الجزء الأول ص٢٠٧.
ـ الإمام الجيلاني: الغُنية، الجزء الثاني ص١٤٤.

(١) وصول المريد، ص١٠.

(٢) المرجع السابق، ص١١، ١٣.

القادرية النيازية

في كشف المحجوب، يقول الهجويري: إن الله لا يترك الأرض أبدًا بلا حُجّة، ولا هذه الأمة بلا أولياء.. كما قال عليه الصلاة والسلام، لا تزال طائفة من أمتي على الخير والحق حتى تقوم الساعة[1].

والقادرية النيازية طائفة من أهل الحق والخير، شاء الحق تعالى أن تكون واحدة من الصور المشرقة للتصوف المعاصر، وموطنًا من مواطن النور في ديار المسلمين، وهذا الفرع القادري متصل النسب بالإمام الجيلاني عن طريق ولده الشيخ عبد الرزاق.

سند الطريقة:

يهتم رجال القادرية النيازية كثيرًا بالسند ـ بمعناه العام ـ وكثيرًا ما سمعناهم يرددون عبارة الإمام الشافعي الشهيرة «نَحْنُ أُمَّةُ السَّنَدِ».. إلا أن ما نعنيه بالسند هنا، هو التلقي الروحي لمشيخة هذا الفرع القادري سابقًا عن سابق، وذلك ما صاغه الشيخ إبراهيم حلمي القادري شعرًا في (المنظومة القادرية) حيث يتضح اتصال سند الطريقة النيازية بالنبي عليه الصلاة والسلام مرورًا بالإمام الجيلاني. فقد تلقى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي

(١) انظر، كشف المحجوب، ص٣٧٥.

صلى الله عليه وسلم، ثم تلقى عنه حبيب العجمي، وتلقى عنه داود الطائي ثم معروف الكرخي، الذي تلقى منه السري السقطي، ثم الجنيد، ثم الشبلي، ثم عبد الواحد بن زيد، ثم أبو الفرج الطرسوسي، ثم أبو الحسن الهكاري، ثم المخرمي.. الذي تلقى البيعة المحمدية عنه، الإمام عبد القادر الجيلاني.

وهذا الوجه لاتصال الإمام الجيلاني بالنبي عليه الصلاة والسلام، واردٌ عند كافة الفروع القادرية في الشرق والغرب، وثابتٌ في معظم المصادر الخاصة بالطريقة القادرية. وأما عن اتصال نسب القادرية النيازية بالإمام الجيلاني، فقد تلقى آخر مشايخ الطريقة (إبراهيم حلمي القادري) عن والده (محمد حلمي ـ المتوفى ١٣٥٥ هجرية) عن والده (الغوث عبد الرحمن نيازي ـ المتوفى ١٣١١ هجرية) الذي أعطى لهذا الفرع القادري اسمه.

وتلقى الغوث عبد الرحمن نيازي عن والده الشيخ القدوة عبد القادر الأربيلي، الذي تلقى عن المولى عبد الرحمن الطالباني، عن القطب محمود غياث، عن أحمد بن اسحق اللاهوري، عن محمد الأزميري، عن عبد الرزاق الحموي، عن الشيخ محمد المعصوم، عن يحيى البصري، عن عثمان الجيلي، عن والده الشيخ عبد الرزّاق، عن والده الإمام عبد القادر الجيلاني[1].

والقادرية النيازية وفدت إلى مصر من تركيا، منذ قرابة خمسة قرون، فقد نزل بعض شيوخها الأوائل في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، واستوطنوا الإسكندرية منذ ذلك التاريخ[2].

---

(١) راجع المنظومة القادرية المباركة، للشيخ ابراهيم حلمي القادري (مكتبة السادة القادرية النيازية بالاسكندرية) أبيات ٣٥ ـ ٧٨.

(٢) كان المنزل الذي سكنه القادرية النيازية بمنشية الإسكندرية لا يزال قائماً حتى وقت قريب، وكان على بابه نقش بتاريخ ٩٣٥ هجرية، أما المقر الحالي للطريقة فهو مسجد القادرية الكائن بمنطقة (فكتوريا) بشرق الإسكندرية وهو مسجد جامع يتألف من مصلى وضريح منفصل وقاعة للدرس ومكتبة، ولقد سميت شوارع المنطقة المحيطة بالمسجد بأسماء مثل: شارع عبد القادر الجيلاني ـ شارع مسجد القادرية ـ شارع إبراهيم حلمي القادري.

ولقد اجتهدنا للتعرف على أصول هذه الطريقة بتركيا، فلم نجد غير إشارة عابرة، كان ماسينيون قد أوردها عن (الطريقة النيازية) بتركيا، معتبرًا إياها أحد فروع الخلوتية هناك، وذكر ماسينيون في إشارته، أن شيخ هذه الطريقة توفي سنة ١٦٩٣ ميلادية[1]. وبرغم التقارب التاريخي بين وفاة شيخ هذه الطريقة وبين شيخ القادرية النيازية (عبد الرحمن نيازي) إلا أننا لا نرجح أن يكون المشار إليه عند ماسينيون هو القادرية النيازية إذ أن نزوهم بمصر، كان بتاريخ أسبق من تاريخ وفاة الشيخ الذي أشار له المستشرق الفرنسي الكبير.

ونظرًا لانعدام المصادر الخاصة بتطور هذا الفرع القادري، والتفصيلات الخاصة بانتقاله من البلاد العثمانية لمصر، فسوف يقتصر تناولنا على الحالة الراهنة لهذه الطريقة.. ونرى أن المدخل الصحيح لهذا التناول، هو شيخها: إبراهيم حلمي القادري.

الشيخ إبراهيم حلمي:

تواترت البيعة المحمدية شيخًا عن شيخ، حتى بلغت العلامة القدوة إبراهيم حلمي القادري، الذي وضع للقادرية النيازية، الأسس الشرعية والروحية التي قامت عليها الطريقة طيلة حياته وبعد وفاته.

والشيخ إبراهيم حلمي سكندريّ المولد والمنشأ والإقامة والوفاة! فقد ولد بالاسكندرية في ١٦ محرم سنة ١٣٢٢ هجرية، وتلقى الرعاية من أفراد البيت القادري الذي نشأ فيه، وظل متوليًا مشيخة الطريقة من وفاة والده سنة ١٣٥٥، وحتى انتقاله إلى جوار ربه وهو ساجد يصلي بمريديه تراويح ليلة القدر سنة ١٣٩٠ هجرية.

وكان الشيخ مدرسةً صوفيةً جمعت أشتات المعارف الدينية، ومن هذه المدرسة تخرج رجال.. كما ترك الشيخ العديد من المؤلفات، منها ما هو

(١) Encyclopedia of Islam, Art (TARIKA) Vol. 4, P. 671.

مطبوع ومتداول، ومنها ما رأيناه بخط الشيخ ولم يطبع بعد، وهذه المؤلفات هي:

★ مدارج الحقيقة (في الرابطة عند أهل الطريقة).

وهو كتاب رقيق، بيَّن فيه الشيخ ارتباط الشريعة والحقيقة، وعرج بين سطوره إلى معنى التصوف وحقائق الولاية ودقائق الرابطة بين الشيخ والمريد، وغير ذلك من الموضوعات الصوفية.. ثم اختتمه بقصيدة ميمية طويلة يقول مطلعها:

قِفَا نَبْـكِ جَهَـابِـذَةَ الأَنَـامِ   وَعَهْدًا قَـدْ تَقَضَّـى فِـي وِئَـامِ

ولهذا الكتاب نشرة أنيقة طبعت بالإسكندرية (١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م).

★ القرب (في محبة العرب)

وهو تحقيقٌ علميٌّ لنص مخطوط «القرب في محبة العرب» للعلامة العراقي (زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن أبي بكر بن إبراهيم، المصري الشافعي المحدث) المتوفى ٨٠٦ هجرية بالقاهرة[1].. ويشتمل التحقيق على مقدمة وافية حول موضوع الكتاب ونسخه المخطوطة وأهمية دراسة اللغة العربية كمدخل لفهم الدين[2]، كما تشتمل المقدمة على مخمسة شعرية بعنوان: سمط

---

(١) اشتهر العراقي بكتابه (المُغني عن حمل الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار) فقد ظل هذا الكتاب يطبع دومًا على هامش إحياء علوم الدين.. إلا أن العراقي له وراء ذلك عدة مؤلفات مثل: نظم الدرر، ألفية الحديث، الباعث على الخلاص (انظر ترجمته في: الضوء اللامع ٤/١٧١ - شذرات الذهب ٧/٥٥ - البدر الطالع ١/٣٥٤ - حسن المحاضرة ١/٢٠٤ - معجم المؤلفين ٥/٢٠٤).

(٢) يقول الشيخ في مقدمته: من البدهي أن حب العرب ولغتهم من الإيمان.. وقديمًا كان الاهتمام بلغة العرب وتفضيلها والدفاع عنها من وظائف علماء السلف، ولهذا المعنى ألف الزين العراقي ما ألف، والسيد البكري، وابن قتيبة، وابن حجر الهيتمي، ومحي الدين العطار وغيرهم.. (القرب في محبة العرب، ص٢٥، ٢٦) طبعة الإسكندرية ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م.

مفاخر العرب[1]، وأخيرًا يأتي النص المحقق للكتاب، وقد أثقلت صفحاته بهوامش طويلة تضمنت تعليقات وافية للشيخ المحقق.

★ تكذيب المدعى (بصحة رحلة الإمام الشافعي)

وهو تحقق (تاريخي/ فقهي) لما روي في بعض المؤلفات عن رحلة الإمام الشافعي إلى هارون الرشيد، وإجازته لأحمد بن حنبل وسفيان بن عُيينة والأوزاعي، وهي الرحلة المروية من طريق محمد البَلَويّ، والواردة في (مناقب الشافعي) لفخر الدين الرازي[2].. وفي هذا الكتاب يسرد الشيخ ابراهيم حلمي من الحقائق، ما يخالف صحة هذه الرحلة وما روي فيها من أن هارون الرشيد حرّض على قتل الشافعي رضي الله عنه، وقد اعتمد الشيخ في تكذيبه للرحلة على ما ورد في (توالي التأسيس) لابن حجر، وفي (المقاصد الحسنة) للسخاوي، وفي (تمييز الطيب من الخبيث) للشيباني.

وقد طبع هذا الكتاب ضمن سلسلة كتب الشيخ بالإسكندرية (١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م).

★ الجهاد

يحتوي هذا المؤلف على مطولتين شعريتين للشيخ، الأولى قصيدة لامية استهلها بقوله:

هَـزَّت الوِجْـدَانُ قَلْبِيَ فَـابْتَهَـلْ طُول لَيْلَـي مِـنْ ضِـرَامٍ وَوَجَـلْ

أما القصيدة الأخرى فتسمى (مَعَاهِدُ الْبِر) ويقول مطلعها:

مَعَاهِدُ الْبِرِ أَوْحَـشتْ مِـنْ أَعَـالِينَـا أَمْ الصَّبَابَةُ هَاجَـتْ مِـنْ تَنَـاجِينَـا

---

(١) المرجع السابق، ص٥٨ وما بعدها.

(٢) انظر، مناقب الشافعي، للرازي (تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا ـ مكتبة الكليات الأزهرية) ص٩٥.

وفي كلتا القصيدتين تصوير لأدق الرقائق الصوفية وأرق دقائق الطريق، مما يحتاج إيراده وبيانه وتفصيله بحثًا مستقلاً[1]..

★ شرح تعليم المتعلم

وهو شرح لطيف وضعه الشيخ على كتاب (تعليم المتعلم طريق التعلم) لبرهان الدين الزَّرْنُوجي[2]، وبرغم وجود عدة طبعات لهذا الكتاب، إلا أن الشيخ آثر القيام بمقابلة عدة نسخ خطية له - قبل الشرح - ليستخرج بذلك نصًا سليمًا[3].

ولا يزال هذا الشرح (مع بقية المؤلفات التالي ذكرها) مخطوطًا بيد الشيخ في مكتبة القادرية النيازية.

★ جلال الحق (في كشف أحوال شرار الخلق).

وفي هذا الكتاب يرد الشيخ على دعاوى الوهابية الغالية فيما يتعلق بالولاية ومحبة النبي - صلى الله عليه وسلم - وآل بيته.

★ محو الشبهات (في ثبوت المحو والإثبات).

وهو تناول ذوقي لقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ

---

(١) نشر هذا المؤلف بمطبعة الكوثر - الإسكندرية - بدون تاريخ.

(٢) هو أحد تلاميذ الفقيه الحنفي الشهير، برهان الدين المرغيناني الفرغاني (صاحب كتاب الهداية) لقب بالزرنوجي نسبة إلى (زرنوج) وهي بلدة مشهورة فيما وراء النهر، بعد خوجند، من أعمال تركستان.. (راجع، ياقوت: معجم البلدان ١٩٣/٣) ولا توجد للزرنوجي أية ترجمة في كتب الطبقات، ولم يتعرض لذكره غير المفهرسين؛ انظر: حاجي خليفة ص٤٢٥ - معجم سركيس للمطبوعات ص٩٦٩ - معجم المؤلفين ٤٣/٣ - Brocklman. Giesch. I. P. 837.

(٣) طُبع هذا الكتاب في ألمانيا ١٧٠٩، وليبزج ١٨٣٨، ومرشد آباد ١٢٨٦هـ، وقازان ١٩٠١، وتونس ١٢٨٦هـ، والأستانة ١٢٩٢ - ١٣٠٧هـ، ومصر ١٣٠٠ - ١٣٠١ - ١٣٠٧هـ.. وتوجد له اليوم طبعة (بتقديم وتحقيق مصطفى عاشور) أصدرتها مكتبة القرآن بالقاهرة ضمن سلسلة (من روائع المخطوطات العثمانية) القاهرة ١٩٨٦.

الْكِتَابِ﴾[1].

★ السير والسلوك

وهو مؤلف صوفي للمريدين، تحدث فيه الشيخ عن علامات الطريق إلى الله، وآداب سلوك هذا الطريق.

★ العدوى والوباء.

وهو كتاب في الأخلاق، تعرض فيه الشيخ لأثر الصحبة والرفقاء على الإنسان، وانعكاس ذلك على سلوكه.

★ الرسائل الصغرى.

وهي مجموعة من الرسائل الصوفية المتنوعة الموضوع، تعرض الشيخ فيها إلى العديد من رقائق القوم وحقائقهم.

★ مناقب الإمام الجيلاني

★ سهام الإصابة (في الدعوات المستجابة).

★ أبو بكر الصديق

★ رسالة التوحيد.

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد ترك الشيخ آثارًا شعرية لا يزال مريدوه يترنمون بأبياتها، ومن تلك الآثار قصيدة عينية لها بالغ الأثر في قلوب المريدين وقد سماها الشيخ بالقصيدة الغوثية.. وما دمنا نقول إن الشعر الصوفي هو أحد المداخل الهامة لفهم طريق القوم ومواجيدهم، فسوف نورد هنا بعضًا من أبيات هذه الغوثية، يقول الشيخ:

يَا سَيِّدِي أَنْتَ الْغِيَاثُ وَمَفْزَعِي ... وَلَئِنْ بَدَا لِلْغَيْرِ فَهْوَ تَمَنُّعِي
لَكُمُ الوَلاَ، وَدَخِيلُكُمْ يَشْكُو الضَّنَا ... وَالْعَبْدُ يُكْرَمُ بِالْوَلاَءِ الأَرْفَعِ

(١) سورة الرعد، آية ٣٩.

وَبِكُمْ عُرِفْتُ وَلِي لَدَيْكُمْ حُجَّةٌ   تَسْمُو عَلَى فَلَكِ الْوُجُودِ الشُّرَّعِ
وَالشَّمْسُ تَعْلَمُ أَنَّنِي مَعْهُودُكُمْ   وَلَهَا عَلَوْتُ وَكَانَ أَمْرُ تَطَلُّعِي
وَبِهَا فَسَالَ الدَّمْعُ مِنِّي تَمُدُّهُ   زَفَرَاتُ قَلْبِي وَاصْطِلاَمُ الْهُلَّعِ
وَعَلَى الْمَعَارِجِ سَيِّدِي أَرْقَيْتَنِي   وَخَلَوْتُ بِالْبَيْتِ الْمَشِيدِ وَلاَ دَعِي
أَقْرَأْتَنِي قِدَمًا كَرِيمَ خِطَابِكُمْ   وَبِهِ انْتَشَأْتُ وَكَانَ أَمْنُ تَضَعْضُعِي
بِالنُّورِ أَشْرَقْتَ الْحُرُوفَ وَكُنْتَ لِي   عَيْنًا وَقَلْبًا وَاصْطَنَعْتَ مَسَامِعِي
وَسَقَيْتَنِي كَأْسًا فَهِمْتُ مُنَاجِيًا   وَنَظَمْتُ أَرْوَعَ مَا يَكُونُ وَمَا مَعِي
فَأَنَا الْحَسِيبُ وَحُسْنُ ظَنِّي غَالِبٌ   وَلَدَيَّ مِنْ عَهْدِ الْغَرَامِ اللُّمَّعِ

وطريق التصوف عند الشيخ، يبدأ بوعي المريد والتفاته نحو استخلاص النفس من الأهواء والبدع، ولا يبدأ بالعهد القادري الذي يعتقد البعض أنه بداية الهداية.. فلم يكن الشيخ يعطي عهودا لمريديه، لا لرفضه (العهد) وإنما تحرزًا من تعلق المريد بشكليات الطريق ورسومه.

ولم تكن للطريقة على عهد الشيخ تلك التنظيمات الروحية المعتادة، فليس هناك شيخ ونائب ونقيب ومبتدئ، بل كان أهل طريقته أخوانًا متحابين، لا تفاوت بينهم إلا بقدر صدق الواحد منهم وإخلاصه مع ربه.. كذلك فقد آثر الشيخ عدم إدراج طريقته ضمن الطرق المسجلة بالمجلس الأعلى للطرق الصوفية، كما لو كان بذلك يغلق على طريقته آخر أبواب الشكلية[1].

ويمكننا أن نتعرف بعض الشيء على آراء الشيخ وتصوفه، من خلال ما نجده في (مدارج الحقيقة) حيث يتناول الشيخ موضوع (الرابطة) فيقرر أن الرابطة على ثلاثة أنواع: اختيارية علوية، اختيارية سفلية، طبيعية عادية. فأما الطبيعية فهي محبة الأهل والأولاد والقرابة، وأما السفلية فهي ربط القلب

(١) لم يكن هذا الموقف نابعًا من رفض الشيخ للمجلس الأعلى للطرق، فقد كان على صلات طيبة بمشايخه (مشايخ الشيوخ) آنذاك، وكان يرى أن للمجلس أهميته ووظائفه، لكنه لم يرد لمريديه أن يتعلقوا بما يخرج عن روح التصوف كتجربة فردية تنأى عن كل مظاهر العمومية.

بالخلال الذميمة على محبة ذاتٍ لجمالها وأما العلوية فهي ربط القلب بالخلال الحميدة على محبة الله ورسوله[1] .. وقد تنقلب الرابطة الاختيارية العلوية إلى رابطة اضطرارية، إذا حصل الاتصال الروحي فلا تحتاج إلى تكلف ـ كما كان عليه صحابة النبي وتابعوهم وأكابر الرجال من بعدهم.

وتنقسم الرابطة الاختيارية عند أهل الطريقة إلى ثلاث: رابطة الموت ورابطة الشيخ المربي، ورابطة الحضور بين يدي الله تعالى. وتلك هي علامات الطريق الصوفي عند الشيخ، وإن كانت الرابطتان الأولى والثانية في الحقيقة، وسيلتين شريفتين للثالثة المقصودة بالذات[2]. ويفرّق الشيخ بين الرابطة وبين المحبة، باعتبار أن المحبة ملزومة والرابطة لازمة.. وبإمعان النظر في الرابطة المقصودة بالذات؛ أعني رابطة الحضور، يتضح لنا اتفاق دلالتها الذوقية مع رياضة المراقبة التي أشار إليها أئمة التصوف السابقين[3].

وللشيخ جملة آراء حول الرؤيا والخيال وعالم المثال (الذي هو البرزخ الجامع بين عالمي الأرواح والأجسام الكثيفة) والنفس والقلب والروح، وغير ذلك من الموضوعات الصوفية التي يستدعي استعراض تحليلاتنا لها مجالاً أرحب.

وأخيرًا، فقد كانت للشيخ نكات ذوقية في تفسيره لآيات القرآن الكريم، يمكن أن نورد منها مثالاً.. ففي تناوله لقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4] يقول الشيخ:

---

(١) مدارج الحقيقة (الاسكندرية ١٣٨١ ـ ١٩٦٢) ص١٨.

(٢) المرجع السابق ص٢٠ وما بعدها.

(٣) يقول الشيخ إبراهيم حلمي القادري في المدارج (ص١٩) إن آداب الشروع في هذه الرابطة، أن يجلس العبد السالك على طهارة تامة مستقبلاً القبلة كجلسة الصلاة، مطرقًا برأسه ومغمضًا عينيه ساكن الظاهر والباطن، ذاكرًا ربه بنوع من الذكر الشرعي مع كمال الضبط وملاحظة المعنى حسب إرشاد مرشده، متخيلاً من يربط قلبه عليه على الوجه اللائق شرعًا.. (قارن ذلك بما ذكره الكلاباذي في التعرف ص٣٩ والسراج في اللمع ص٨٤ والقشيري في الرسالة ص٩٥ والمكي في القوت ١/٨٨ والغزالي في الإحياء ٤/٣٨١).

(٤) سورة الفاتحة، آية ٥.

إن الله تعالى جعل المصلي يقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] بنون الجمع، والمقام مقام تذلل وانكسار، لا مقام تعظيم واستكبار، والمتكلم واحد، وكان الأولى أن يقول إيَّاكَ أَعْبُدُ.. ولكن الله تعالى جعله في مقام يستلفت نظره إلى التوسل بعبادة العابدين، وأن يزج بعبادته الناقصة المعيبة ضمن عبادة العابدين حتى لا يعرضها وحدها على حضرة ذي الجلال، بل يضمها إلى عبادة الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين وسائر عباده المؤمنين، وحتى تكون صفقة واحدة، ثم يعرضها راجيًا قبول دعوته ضمن عبادة العابدين.. لأن جميعها لا يرد البتة ـ إذ بعضها مقبول لا محالة ـ ورد المعيب وإبقاء السليم في الصفقات لا يجوز في الشريعة الغراء.. فكيف يليق بكرم الله تبعيض الصفقة وهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين..[2]!

الطريقة بعد الشيخ:

نص الشيخ إبراهيم حلمي القادري على تولية ولده (محمد) قبل انتقاله إلى جوار ربه، وقد ورد النص بتولية الابن في إحدى قصائد الشيخ، حيث يقول في بعض أبياتها:

وَأَقَمْتُكَ عَنْ شَخْصِي بَدَلاً وَحَبَوْتُكَ مَا عِنْدِي بِيَدِي

ولا يزال السيد محمد إبراهيم حلمي قائمًا مقام والده كشيخ للطريقة منذ انتقال الوالد.. ولا يزال مجلسهم منعقدًا على النحو الذي رسمه الشيخ؛ فهناك؛ في تلك الأمسيات النورانية الرائقة، كنا نرتحل إلى عالمهم.. وما إن نخلص من أسر الشواغل، ونلج بابهم المطرز بالنقوش النحاسية، حتى تشيع في جنبات القلب طمأنينة السكينة، وتهب علينا نسمات شرقية قادرية، فتهدأ سورات الروح المتعب، ونتشوف إلى العتبات الطاهرات.

(١) سورة الفاتحة، آية ٥.

(٢) مدارج الحقيقة ص١٩.

وعلى بساط القادرية النيازية، نلحظ للوهلة الأولى حضور الشيخ إبراهيم حلمي القادري ـ رحمه الله ـ في هذه الجلسات اليومية، فلا يزالون يتذوقون دقائق الشيخ وتلويحاته العرشية وإشاراته لمريديه، وما برحوا يستهدون بتوجيهاته فيما تسوق إليهم الأيام من أمور.

ويبدأ هذا المجلس اليومي بقراءة الفاتحة بضريح الشيخ، ثم يجتمع الإخوان مع الشيخ في قاعة الدرس. ولهم في كل يوم شغل: فيوم السبت مخصص لتدارس السنّة، ويوم الأحد للحديث الشريف، والاثنين للفقه، والثلاثاء للتوحيد والتصوف، والأربعاء للتفسير[1].. ويوم الخميس تنعقد جلسة الذكر الشرعي والمراقبة، أما الجمعة فلا يجتمعون في المساء، إنما يجلسون بعد صلاة الجمعة لقراءة ياسين[2]، ثم ينصرف المريدون لتصريف شئونهم الخاصة.

وخلال سنوات طوال، لم نَرَ سماعًا واحدًا عند النيازية، ولم نَرَ مريدًا يخرج عن حد الأدب، ولم نر جُهالاً يتساقطون كالذباب على موائد الموالد.. وإنما رأينا ـ دومًا ـ مجلس علمٍ تحفُّه الملائكة.

---

(١) في الأيام التي سطرنا فيها هذه الكلمات، كانت المدرسة القادرية النيازية تقرأ: يوم السبت (مشكاة المصابيح) ويوم الأحد (صحيح البخاري بشرح القاري) ويوم الاثنين (الهداية للمرغيناني) ويوم الثلاثاء (عوارف المعارف للسهروردي) ويوم الاربعاء (تفسير القرطبي).

(٢) وردت الأحاديث النبوية في فضل قراءة ياسين من طرق كثيرة، راجع باب فضل قراءة القرآن في صحيحي البخاري ومسلم.

مراجع البحث

(أ) المطبوعات

١ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ (المطبعة التجارية الكبرى - القاهرة)

٢ - ابن تيْمية: مجموعة الرسائل والمسائل (دار الكتب العلمية - بيروت).

٣ - ـــــ: قاعدة في المحبة (ضمن جامع الرسائل، تحقيق د/ محمد رشاد سالم - مكتبة المدني، جدة - الطبعة الثانية.

٤ - ـــــ: شرح كلمات من فتوح الغيب (ضمن، جامع الرسائل)

٥ - ابن تَغْري بَرْدي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٤).

٦ - ـــــ: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية ١٩٣٥).

٧ - ابن جنّي: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار (الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثالثة).

٨ - ابن الجُوزي: تلبيس إبليس (دار الطباعة المنيرية - القاهرة ١٣٦٨ هجرية).

٩ - ــــ: المنتظم في تاريخ الملوك والامم (دائرة المعارف - حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٥٧ هجرية).

١٠ - ابن حجر العَسْقلاني: تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (الهيئة المصرية العامة للكتاب).

١١ - ــــ: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (دائرة المعارف - حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٥٠ هجرية).

١٢ - ابن خلكان: وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان (القاهرة - ١٢٧٥ هجرية).

١٣ - ابن شاكر: فوات الوفيات (مكتب النهضة - القاهرة، بدون تاريخ).

١٤ - ابن عربي: الفتوحات المكية (طبعة دار الكتب العربية - القاهرة، بدون تحقيق).

١٥ - ــــ: الفتوحات المكية، بتحقيق د/ عثمان يحي (الهيئة المصرية العامة للكتاب).

١٦ - ــــ: فصوص الحكم، تحقيق د/ أبو العلا

عفيفي (دار الكتاب العربي ـ بيروت).

١٧ - ـــــ : ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، تحقيق محمد الكردي (مطبعة السعادة ـ القاهرة، بدون تاريخ).

١٨ - ـــــ : اصطلاحات الصوفية (مكتبة عالم الفكر ـ القاهرة ١٤٠٧ هجرية).

١٩ - ـــــ : رسالة الأنوار (مكتبة عالم الفكر ـ القاهرة ١٤٠٧ هجرية).

٢٠ - ـــــ : كتاب محي الدين بن عربي إلى فخر الدين الرازي، تحقيق د/ محمد أحمد مصطفى (دار الطباعة المحمدية ـ القاهرة).

٢١ ـ ابن عطاء الله: الحكم العطائية بشرح الشيخ زروق، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ـ دار الشعب، القاهرة ١٤٠٥ هجرية).

٢٢ ـ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (مكتبة القدس ١٣٥٠ هجرية).

٢٣ ـ ابن الفارض: الديوان، تحقيق د/ عبد الخالق محمود ـ دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى).

٢٤ ـ أبو المواهب الشاذلي: قوانين حكم الإشراق إلى الصوفية بجميع الآفاق (مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٦٧).

٢٥ - أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة).

٢٦ - أبو ريان (دكتور محمد علي): أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السُّهروردي (دار النهضة العربية - بيروت - الطبعة الثانية).

٢٧ - بدوي (دكتور عبد الرحمن): شطحات الصوفية (وكالة المطبوعات - الكويت - الطبعة الثانية).

٢٨ - ــــ: شخصيات قلقة في الاسلام (وكالة المطبوعات - الكويت - الطبعة الثالثة).

٢٩ - بَرَكة (دكتور عبد الفتاح): الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية (مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧١).

٣٠ - البُوصيري: البردة (ضمن كتاب السفينة القادرية - المطبعة الرسمية، تونس ١٣٠٥ هجرية).

٣١ - التَّادفي: قلائد الجواهر في ترجمة الشيخ عبد القادر (المطبعة العثمانية ١٣٠٣ هجرية).

٣٢ - التِّرْمُذِي (محمد بن علي الحكيم): بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، تحقيق د/ نقولا هير (مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - بدون تاريخ).

٣٣ - ــــ: ختم الأولياء، تحقيق د/ عثمان يحيى

(المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٥).

٣٤ ـ ـــــ : المسائل المكنونة، تحقيق د/ ابراهيم الجيوشي (دار التراث العربي ـ القاهرة ١٩٨٠).

٣٥ ـ ـــــ : أدب النفس، نشره إبراهيم محمد الجمل بعنوان؛ أسرار مجاهدة النفس (مكتبة السلام ـ القاهرة ١٩٨٤).

٣٦ ـ ـــــ : كتاب الرياضة، نشرة إبراهيم محمد الجمل في؛ أسرار مجاهدة النفس (مكتبة السلام ـ القاهرة (١٩٨٤).

٣٧ ـ التفتازاني (د/ أبو الوفا): مدخل إلى التصوف الاسلامي (دار الثقافة ـ القاهرة ١٩٨٣).

٣٨ ـ ـــــ : ابن سبعين وفلسفته الصوفية (دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٣).

٣٩ ـ ـــــ : الطرق الصوفية في مصر (مقالة بمجلة كلية الآداب/ جامعة القاهرة ـ مجلد ٢٥/٢ ديسمبر ١٩٦٣).

٤٠ ـ تيمور (أحمد باشا): اليزيدية ومنشأ نحلتهم (المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٧ هجرية).

٤١ ـ جالينوس: رسالة إلى غلوقن في التأتي لشفاء الأمراض، تحقيق د/ محمد سليم سالم (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢).

٤٢ ـ الجُرْجَاني: التعريفات، تحقيق إبراهيم الابياري (دار الكتاب العربي ـ الطبعة الأولى).

٤٣ ـ الجِيلاني (الإمام عبد القادر): الغُنية لطالبي طريق الحق، تحقيق فرج توفيق الوليد (مكتبة الشرق الجديد ـ بغداد ١٩٨٨).

٤٤ ـ ـــــ: فتوح الغيب (البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية).

٤٥ ـ ـــــ: الفتح الرباني (البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأخيرة).

٤٦ ـ الجِيلي (عبد الكريم): الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل (مطبعة صبيح ـ القاهرة ١٩٦٠).

٤٧ ـ ـــــ: المناظر الإلهية (مكتبة الجندي ـ القاهرة ـ بدون تاريخ).

٤٨ ـ ـــــ: النادرات العينية، تحقيق يوسف زيدان (دار الجيل ـ بيروت ١٤٠٨ هجرية).

٤٩ ـ حَاجي خَليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (طبعة در سعادت ـ الهند ـ بدون تاريخ).

٥٠ ـ الخَرّاز (أبو سعيد): كتاب الصدق، تحقيق د/ عبد الحليم محمود (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٠).

٥١ ـ الخَوَانْساري: روضات الجنات في أخبار العلماء

السادات، تحقيق أسد الله اسماعيليان (طهران ١٣٩٢ هجرية).

٥٢ - الذّهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين (مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠١ هجرية).

٥٣ - الرُّومي (مولانا جلال الدين): المثنوي، ترجمة د/ محمد عبد السلام كفافي (المكتبة العصرية - بيروت ١٩٦٦).

٥٤ - السّامرائي (يُونس): الشيخ عبد القادر الكيلاني (مطبعة الأمة - بغداد الطبعة الثالثة.

٥٥ - سِبْط بن الجوزي: مرآة الجنان، تحقيق عبد الرحمن بدوي (ضمن شطحات الصوفية).

٥٦ - السرّاج الطُوسي: اللُّمع في التصوف، تحقيق د/ عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور (دار الكتب الحديثة - القاهرة ١٩٦٠).

٥٧ - سُعاد مَاهِر (دكتورة): مساجد مصر (المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية - القاهرة ١٩٧١).

٥٨ - السُّلَمي (أبو عبد الرحمن): طبقات الصوفية، بعناية أحمد الشرباصي (كتاب الشعب - القاهرة ١٣٨٠ هجرية).

٥٩ - ــــ: رسالة الملامتية، تحقيق د/ أبو العلا عفيفي (مؤلفات الجمعية الفلسفية

المصرية ـ دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هجرية).

٦٠ ـ ــــ : المُقدمة في التصوف، تحقيق يوسف زيدان (مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ١٤٠٧ هجرية).

٦١ ـ السَهْجَلي: النور من كلمات أبي طَيْفور، تحقيق د/ عبد الرحمن بدوي (ضمن: شطحات الصوفية).

٦٢ ـ السُّهروردي (شهاب الدين يحيى): حكمة الإشراق، نشرة كوربان (مجموعة دؤم مصنفات ـ طهران ١٩٥٢).

٦٣ ـ ــــ : الغربة الغربية، نشرة كوربان (مجموعة دؤم مصنفات ـ المجلد الثاني).

٦٤ ـ السُّهروردي (شهاب الدين عمر): عوارف المعارف (المجلد الخامس من إحياء علوم الدين ـ دار الندوة الجديدة، بيروت).

٦٥ ـ شِتَا (دكتور ابراهيم الدسوقي): التصوف عند الفرس (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٨).

٦٦ ـ الشَّرْجي (ابو العباس الزبيدي): طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص (الدار اليمنية للنشر والتوزيع ـ صنعاء ١٤٠٦ هجرية).

٦٧ ـ الشَّرْقاوي (دكتور حسن): الحكومة الباطنية (الاسكندرية ـ الطبعة الأولى ١٩٧٥).

٦٨ ـ ــــ : الشريعة والحقيقة (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الاسكندرية ١٩٧٦).

٦٩ ـ ــــ : ألفاظ الصوفية ومعانيها (دار الكتب الجامعية ـ الاسكندرية ١٩٧٥).

٧٠ ـ الشَّطَنوفي: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (دار الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٣٠ هجرية).

٧١ ـ الشَّعْرَاني: الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، تحقيق د/ حسن الشرقاوي (دار المعارف ـ الاسكندرية ١٩٨٣).

٧٢ ـ ــــ : اليواقيت والجواهر (البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٩).

٧٣ ـ ــــ : الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق طه عبد الباقي سرور (مكتبة المعارف ـ بيروت).

٧٤ ـ الشّيبي (دكتور كامل): الصلة بين التصوف والتشيع (دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية).

٧٥ ـ عامر النَّجّار (دكتور): الطرق الصوفية في مصر (دار المعارف ـ القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٨٦).

٧٦ ـ عبد الحيّ الأشْهَب (الشيخ): هداية السالكين لما تلزم معرفته من أصول العقائد وفروع الدين (مطبعة جريدة الفيوم ١٣٩٨ هجرية).

٧٧ - عبد السّلاَم الأسْمر: الوصية الكبرى (مكتبة النجاح - ليبيا
(الشيخ): ١٣٩٦ هجرية).

٧٨ - عبد القَادِر (دكتور محمد): عقيدة البعث والآخرة (دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية - بدون تاريخ).

٧٩ - العِرَاقي (العَلاَّمة): القُرب في محبة العَرب، تحقيق الشيخ إبراهيم حلمي القادري (نشرة عادل البهيّ الإسكندرية ١٣٨٠ هجرية).

٨٠ - عَطَا (عبد القادر احمد): التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس في عصر النابلسي (دار الجيل - بيروت، ١٤٠٧ هجرية).

٨١ - عَفيفي (دكتور أبو العلا): الملامتية والصوفية وأهل الفتوة (مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية - القاهرة ١٩٤٥).

٨٢ - ـــــ: الأعيان الثابتة في مذهب ابن عربي (الكتاب التذكاري لابن عربي).

٨٣ - عَلي مُبَارك: الخطط التوفيقية (طبعة بولاق - القاهرة).

٨٤ - العَيْدَرُوس (عبد القادر): النور المسافر عن أخبار القرن العاشر (اليمن - بدون تاريخ).

٨٥ - الغزالي (أبو حامد): إحياء علوم الدين (دار الندوة الجديدة - بيروت).

٨٦ - ـــــ: مشكاة الأنوار، تحقيق د/ أبو العلا

عفيفي (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٨٣ هجرية).

٨٧ - ـــ : المنقذ من الضلال (دار الأندلس - بيروت ١٩٨٣).

٨٨ - القادري (إبراهيم حلمي): مدارج الحقيقة في الرابطة عند أهل الطريقة (نشرة عادل البهيّ - الإسكندرية ١٣٨١ هجرية).

٨٩ - ـــ : الجهاد (مطبعة الكوثر - الاسكندرية).

٩٠ - القادري (الحاج سعيد): الفيوضات الربانية في المآثر والاوراد القادرية (مطبعة المشهد الحسيني - القاهرة، بدون تاريخ).

٩١ - القادري (عبد القادر): الزاوية والاجتماعي (مقاله بمجلة صوت الحق - وزارة شئون الأوقاف المغربية).

٩٢ - القادري (عبد المنعم بن عبد النبي): الركائز الإيمانية في أصول دعوة السادة القادرية الشرعية (القاهرة - بدون تاريخ).

٩٣ - ـــ : الدُرر النورانية في شرح مجلس ذكر طريقة السادة القادرية الشرعية (القاهرة ١٣٧٦ هجرية).

٩٤ - القاشاني: إصطلاحات الصوفية، تحقيق د/ محمد كمال جعفر (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨١).

٩٥ ـ القُشيري: الرسالة القشيرية (البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٧٩ هجرية).

٩٦ ـ الكَلاَبَاذِي: التَعرّف لمذهب أهل التصوف، تحقيق د/ محمود النواوي (مكتبة الكليات الأزهرية ـ الطبعة الثانية).

٩٧ ـ مَاسِينُيون (المستشرق): مادة السالمية بدائرة المعارف الاسلامية، الترجمة العربية للدكتور عبد الهادي أبو ريدة (دار الفكر ـ بيروت ـ بدون تاريخ).

٩٨ ـ المُحَاسبي (الحارث): بدء من أناب، نشرها عبد القادر احمد عطا بعنوان التوبة (دار الاصلاح ـ دار الاعتصام ١٩٧٧).

٩٩ ـ النَّشار (دكتور علي سامي): نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثامنة).

١٠٠ـ النِّفَّري: المواقف والمخاطبات، تحقيق آربري (مكتبة الكليات الأزهرية ـ بدون تاريخ).

١٠١ـ النَّوَوِي (يحي بن شرف): بُستان العارفين، تحقيق محمد الحجار (دار الصابوني ـ دمشق، بدون تاريخ).

١٠٢ـ نِيْكِلْسُون (المستشرق): في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة د/ أبو العلا عفيفي (لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٧).

١٠٣- **الهجْوَيرِي:** كشف المحجوب، ترجمة د/ إسعاد قنديل (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٩٤ هجرية).

١٠٤- **الهروي الأنصاري:** منازل السائرين (البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٩).

١٠٥- **اليافِعي (ابن أسعد):** نَشْر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية (البابي الحلبي ١٣٨١ هجرية).

١٠٦- **ياقوت (د/ أحمد سليمان):** الدرس الدلالي في خصائص ابن جِنّي (دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية ١٩٨٩).

(ب) المخطوطات

١٠٧ـ أدل الخيرات (أوراد الأيام السبعة) للجيلاني (مخطوط الأزهر ضمن مجموعة رقم ٨٠٥ خصوصي/ ٣٤٣٠٨ عمومي).

١٠٨ـ الإسفار عن رسالة الأنوار، للجيلي (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٢٧٧ تصوف/ طلعت).

١٠٩ـ جلاء الخاطر في الظاهر والباطن للإمام الجيلاني (مخطوط جامعة القاهرة رقم ١٥٧٤١/ تصوف).

١١٠ـ حزب التضرع والإبتهال للإمام الجيلاني (مخطوط جامعة القاهرة رقم ١٥٦٨٧/ تصوف).

١١١ـ الخصال العشرة التي جربها أهل المحاسبة، للحارث المحاسبي (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٤١٨٤/ تصوف ـ مصورات خارج الدار).

١١٢ـ خلاصة المفاخر في ترجمة الشيخ عبد القادر، لليافعي (مخطوط الأزهر رقم ١٢٠١/ رواق المغاربة).

١١٣ـ دعاء فتح البصائر، للإمام الجيلاني (مخطوط المكتبة المركزية لجامعة القاهرة، رقم ١٥٦٨٧/ تصوف).

١١٤- رسالة السفينة، لنجم الدين كُبْرى (مخطوط آيا صوفيا، رقم ١٦٩٧).

١١٥- شرح مشكلات الفتوحات المكية وفتح الأبواب المغلقات من العلوم اللّدنية، للجيلي (مخطوط بلدية الاسكندرية رقم ٨١٣٧٩د/ تصوف).

١١٦- عُقْد جواهر المعاني، منسوب للجيلاني (مخطوط بلدية الاسكندرية، رقم ١٦٠٩ ب/ تصوف).

١١٧- الماء الزلال في إثبات الكرامات للأولياء بعد الإنتقال (مخطوط دار الكتب المصرية).

١١٨- المعدن العدني في فضل أويس القرني، للقّاري (مخطوط بلدية الاسكندرية، رقم ١٦٧٨ ب/ تصوف).

(جـ) الرسائل الجامعية

١١٩- **جعفر صادق سهيل:** عبد القادر الجيلاني ومذهبه الصوفي (رسالة ماجستير بإشراف أ. د/ محمد كمال جعفر سنة ١٩٧٥ - المكتبة المركزية لجامعة القاهرة).

١٢٠- **عبد الحميد عبد المنعم مدكور:** أبو طالب المكي ومنهجه الصوفي (رسالة ماجستير بإشراف أ. د/ محمود قاسم سنة ١٩٧٢ - المكتبة العامة لجامعة القاهرة).

١٢١- **محمد عبده أحمد شراقه:** التصوف السني وركائزه الثلاث عند كل من أبي نصر السراج الطوسي وأبي طالب المكي وأبي حامد الغزالي (رسالة دكتوراه بإشراف أ. د/ محمد علي أبو ريان سنة ١٩٨٨ - مكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية).

١٢٢- **محمد المحمدي سليمان:** دراسة شرح ابن عجيبة على الحكم العطائية مع مقدمة عن المدرسة الشاذلية (رسالة ماجستير بإشراف أ. د/ محمد علي أبو ريان سنة ١٩٨٧ - مكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية).

(د) المعاجم والموسوعات

١٢٣- دائرة معارف البُستاني (دار المعرفة - بيروت) .

١٢٤- التكملة والذيل والصلة لما فات صاحب القاموس من اللغة ، للزّبيدي (مجمع اللغة العربية - القاهرة) .

١٢٥- جمع الجوامع ، للسيوطي (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية - القاهرة) .

١٢٦- الدليل الكامل لآيات القرآن الكريم (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية - القاهرة ١٩٧٢) .

١٢٧- القاموس المحيط للفيروز آبادي (البابي الحلبي - القاهرة ١٣٧١ هجرية) .

١٢٨- كشاف اصطلاحات الفنون ، للتهانوي (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٩) .

١٢٩- لسان العرب لابن منظور (دار لسان العرب - بيروت) .

١٣٠- اللؤلؤ والمرجان (دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٤٠٦ هجرية) .

١٣١- مفاتيح العلوم للخوارزمي (دار الكتاب العربي - بيروت) .

١٣٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه فؤاد عبد الباقي (دار الحديث - بيروت).

١٣٣- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، وضعه فنسنك وآخرون (طبعة بريل، ليدن ١٩٦٥).

١٣٤- المعجم الصوفي ، للدكتورة سعاد الحكيم (بيروت ١٩٨٧).

١٣٥- معجم المطبوعات، لسركيس (بيروت ١٩٨٢).

١٣٦- معجم المؤلفين، لعمر كحالة (دار احياء التراث العربي - بيروت ١٣٧٦ هـ).

١٣٧- معجم البلدان لياقوت الحموي (دار صادر - بيروت).

(هـ) الكتب الأجنبية

Braun (W.): Art. (AL-DJILANI) in, The Encyclopedia of Islam (New Edition) Vol. 1. -١٣٨

Brokelmann (K.): Geschichte der Arabischen Litteratur, Suppl. (Leiden 1937). -١٣٩

Trimingham (J. S.): The Sufi Orders in Islam (Oxford University Press - London, Oxford, New York, 1940). -١٤٠

Margoliouth (D. S.): Art. (KADIRIYYA) in, The Encyclopaedia of Islam Vol. 4. -١٤١

Massignon (L.): Art. (TARIKA) in, The Encyclopaedia of Islam Vol. 4. -١٤٢

Naser (S. H.): Living Sufism (London, 1980). -١٤٣

فهرس الموضوعات

الباب الثاني: علامات الطريق

(الفصل الأول) المجاهدة:

(الفصل الثاني) الأحوال والمقامات:

(الفصل الثالث) المحبة:

الباب الثالث: منازل القرب والوصول

(الفصل الأول) الولاية:

(الفصل الثاني) المعرفة:

(الفصل الثالث) القطبية:

الباب الرابع: فروع القادرية

أعمال الدكتور يوسف زيدان

الدراسات:

(١) عبد الكريم الجيلي، فيلسوف الصوفية (الهيئة المصرية العامة ١٩٨٧).
(٢) الفكر الصوفي (دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٨).
(٣) الطريق الصوفي (دار الجيل).
(٤) عبد القادر الجيلاني، باز الله الأشهب (تحت الطبع)

تحقيق التراث:

(٥) المقدمة في التصوف، للسلمي (مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٦).
(٦) قصيدة النادرات العينية، للجيلي (دار الجيل)
(٧) شرح فصول ابقراط، لابن النفيس (الدار المصرية اللبنانية)
(٨) ديوان عبد القادر الجيلاني (مؤسسة الأخبار ـ القاهرة)
(٩) ديوان عفيف الدين التلمساني (مؤسسة الأخبار ـ القاهرة)
(١٠) ديوان عبد الكريم الجيلي (تحت الطبع)